

الاستيفاء اللطيف

في خاطر الحاج الأديب مطوف
وهي الرحلة الحجازية لأبي البستان، وفائدة الزمان

الأديب مكيب برسان

وقف على تصحيحها وعلق بعض حواشيها

السيد محمد الرشيد رضا

مفتي مجازة

(حق إعادة الطبع محفوظ للمؤلف)

الطبعة الأولى في سنة ١٣٥٠

مطبعة الميناء بطنجة

شارع الأنصار رقم ١٤



marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع **المحتوى** العربي والإضافة إليه، لإنشاء **موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية**، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من **مصادر مرخصة بالنقل**. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة **مخطوط** فيها.

خلافًا للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. ادع **أصدقائك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم**.

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام **الأبجدية العربية**، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر **حيدر أباد وتبكتو وزنجبار وسمرقند** ملأى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات **الضوئية والإنترنت** بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات المسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات **باللغة العربية** التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة **بروكلمان** لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات **بالفارسية والتركية** (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في **الصين وتبكتو (مالي)**.

هذه قائمة **جزئية للمخطوطات التي لدينا**. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا **بالضغط هنا**.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات، أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع **معرفة المخطوطات** الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً **ندعو القراء للمشاركة فيه (بالترتيب هنا)**.
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع **غوتهبرج Gutenberg Project** لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة لمشروع **غوتهبرج** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي

مقدمة التصدير للناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَّ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ • لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ
فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا
وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّاسِخَ فِي الْبَيِّنَاتِ •

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ
آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الآيات من سورة الحج)

يحج بيت الله الحرام، ويؤد سجدته عليه أفضل الصلاة
والسلام، ألوف كثيرة من مسلمي الاتفاق، أكثرهم من العوام والعقراء، وبعضهم
من العلماء والادباء والكتاب والشعراء، ويقل في جماعتهم من يفقه ما يعمل، ومن
يعي ما يسمع، ومن يعقل ما ينظر، ويقل في هؤلاء من يكتب لآخوانه المسلمين
ما يفيدهم شيئاً لا يجدونه في كتب الفقه أو التاريخ والرحلات، أو
بل ترى من حجاج إخواننا المصريين من يكتبون في كل عام ما يفض
الله تعالى ويسوء جيرانه في حرمه، وجيران رسوله (ص) في روضته،

وخدام قاصدي هذين الحرمين من المطوفين والمزورين ، وحكامها
 المحافظين لأمن السكان ، وآمين البيت الحرام ، وأطباءها المحافظين على
 صحة أهلها ، وصحة من يتشرف بإداء المناسك والزيارة فيهما، بل يكتبون
 ما ينفر المسلمين عن إقامة هذا الركن العظيم من أركان الاسلام ، ويصدح
 عن إحياء هذه الجامعة العامة التي امتاز بها على جميع الاديان، - فهذا يشكو
 من شدة الحر ، وذلك يتمل من كثرة النفقة ، وآخر يتبرم بما يزعم
 من تقصير المطوفين وطعمهم

وأغرب من كل هذا أن منهم من ينتقدون منع البدع والخرافات،
 والطواف بالقبور والاستغاثة بالاموات ، وان منهم من كتب في هذا
 الشهر مشنعا على حكومة الحجاز التقصير في عمارة مسجد الرسول (ص)
 وتجديد فرشته ، وهو يعلم ان حكومة الحجاز الحاضرة على فقرها ، قد
 فعلت ما لم تفعله حكومة قبلها ، من حفظ الامن ، وتسهيل السبل، وتوفير
 المياه ، والاسعافات الصحية للحاج ، فان هذا قد صار متواترا ،
 ويعلم أيضا ان حكومته هر قد منعت ما كانت ترسله الى الحرمين وأهلها
 من الاموال ، والحقوق المقررة لهما التي كانت ترسلها في كل عام ، وان
 هذه الحقوق هي بعض ما وقفه الملوك والامراء، وأهل البر من الاغنياء ،
 ويسلم ان وزارة الأوقاف نجبي من أوقاف الحرمين في كل عام مشات
 الالوف من الجنيهاً ، وتصرفها في غير ما وقفت عليه - ويعلم أيضا ان
 الحكومة التركية، قد استحال حكومة لا دينية، وضمت أوقاف الحرمين

الى أملاكها ، بل هي تمنع من يريد الحج من شعبها ، وحجتها الظاهرة على هذا المنع ان الترك أحق بأموالهم أن تبقى في بلادهم من أن تصرف في بلاد العرب !!

وخير من هؤلاء الصادقين عن سبيل الله ، والمنهزين عن شماتة الله ، والمؤذين لجيران الله ، من يؤفون كتباً في رحلاتهم الحجازية ، ينقلون فيها أحكام المناسك الفقهية ، وبعض الأخبار التاريخية والأدبية ، ومن كتبوا في رحلاتهم وفي الصحف ما أملاه الحق من وصف أمن الحجاز ، وتوفير أسباب الراحة للحجاج ، والثناء على الحكومة السعودية ورجاء الخير العظيم للإسلام فيها .

بيد أنك قلما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة ، أو شيئاً من الاقتراحات المفيدة ، أو ترغيباً في البذل لعلمارة المسجد الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لتسهيل السبيل على الحجاج والزائرين ، وتوفير المياه لهم وللمقيمين ، اقتداء بما كان من فعل السلف الصالحين

دع ما هو أعلى من ذلك منزعا ، وأروى مشرعا ، وأبعد في الإصلاح غاية ، وأقوى في درء الخطر عن الإسلام وقاية ، فقد علم الواقفون على سياسة الاستثمار الأوربي أن خطره قد أحاط بجزيرة العرب ، وتعود بهض دولة تنقل في بعض أنحائها ، ثم طفق يوغل في أحشائها ، ويأغ في دماغها ، فان المستعمرين قد استولوا على سكة الحديد الحجازية ، التي كان الغرض الظاهر القريب من انشائها تسهيل أداء الفريضة ، والباطن البعيد حفظ

الجزيرة نفسها من الاستعمار الاوربي ، ومن قتل الاسلام في عقر داره ،
 وإزاحته عن قراره ، تمهيداً لحوه من الارض كلها ،
 كذلك كان شأن المسلمين في حجهم وزيارتهم ، وكذلك كان مادونوا
 في رحلاتهم ومقاتلتهم ، انى أن أذن الله تعالى لمبده المجاهد في سبيله
 بماله ونفسه ، ولسانه وقلمه ، وعلمه وعمله ، الامير شكيب أرسلان ، الذي
 بحق لقبته أمته بأمر البيان ، أن يستجيب لأذان ابراهيم خايل الرحمن ،
 فيؤدي فريضة الحج ، ويمرض مرضاً يضطره بمداد المناسك ، إلى الالتجاء
 إلى الطائف ، والتوكل في جبالها وذرأها ، والتنقل في مزارعها وقراها ،
 والهبوط في أخفافها وأوديتها ، فينال الشفاء والعافية من مرضه ، ومن
 مرض سابق له ، بما شم من هواء نقي ، وشرب من ماء روي ، وجنى من
 ثمر شهي ، ويشاهد ما ثم من قابلية للعمران ، لا يكاد يفضلها مكان ، في عصر
 عم الحجاز فيه العدل والامان ، وأن يصف ذلك بقوله السيل ، وبيانه السلسال ،
 الذي يجري فتكبو في غاياته جياد الفرسان ، ومن ذا الذي يطعم في لحاق
 أمير البيان ، في مثل هذا الميدان ؟ ميدان التاريخ وعلم الاجتماع والعمران ،
 وما فيه من دبر السياسة في هذا الزمان ، ولا سما سياسة الامة العربية والاسلام
 أحمد الله تعالى أن وفق أخى شكيباً لأداء المناسك ، وشهود ما قرنه
 بها القرآن من المنافع ، وانما هي منافع أمته ، لا منافع شخصه وأسرته ،
 وأن يسر له السير في تلك الارض ، لفقته ما أرشد إليه عقله ، وهدى له

قلبه ، فيعرف بنفسه جبالها ووهادها ، وأغوارها وأنجادها ، وسهوبها
وصفائفها ، ومجاهلها ومعارفها ، ثم يبيت مادفن في بطون الكتب من تاريخ
عمرانها ، وكروز معادنها ، مع بيان أماكنها ، ووسائل استخراجها من
مكائنها ، ويجلي للمقول ما فيها من العبر البالغة ، ويقرن بها وصف حالتها
الحاضرة ، ويستنبط منها ما يجب على الأمة العربية وحكوماتها ،
والشعوب الإسلامية وزعمائها ، من توجيه أصدق ما أوتوا من إرادة
وعزيمة ، وأفضل ما أعطوا من علم وثروة ، في سبيل عمران الحجاز ،
وصيانتته من خطر الاستعمار ، وإن ذلك لا يتم لهم إلا بعمران جزيرة
العرب كلها ، لأن انتقاصها من أطرافها ، يقضي إلى الاحاطة بسائر أكنافها
تلك الغاية البعيدة المرعى ، هي التي وضع لها الامير رحلته الحجازية
التي سماها (الارتامات اللطاف ، في خاطر الحاج الى أقدس مطاف)
وقد أقام الدلائل على إمكان ما دعا اليه وسهولته ، من قابلية في المكان ،
ومواتاة من الزمان ، وأشار الى ما يترض به على ذلك من شبهات داحضة ،
وكر عليها بما ينقضها من حجج ناهضة ، بما لم يبق لمعتذر عذرا مقبولا ،
ولا لمقصر قولا محقولا

ثم انه لم يقف في ارتساماته دون هذا المقصد الاسمي ، بل ألم فيها
بكل ما يهم المسلم من حال الحجاز وأهله وحكومته ، فأفاض القول في تعظيم
شأن المياه فيه ، وما يرجى من زيادتها بالوسائل العصرية ، ولا سيما الآبار

الارتوازية ، واستشهد التاريخ على ما كان من عناية السلف الصالح بمرانه ،
 وحبس الاوقاف الواسمة عليه ، وعناية الخلف الطالح بتخريب ماعمره ،
 واضاعة أكثر ماوقفوا ، وتمهيد حكمهم الفاسقين ، سبيل ذلك لسالبي ملكهم
 من المستعمرين . وضرب لذلك الامثال ، بتاريخ أكبر المعمرين من الملوك
 والامراء والوزراء ، وأسهب في بيان أحوال المطوفين والمزورين وقناعتهم ،
 ومايجب من اصلاح حالهم ، ونوه فيها بفضل الحكومة السعودية الحاضرة ،
 وخدمة ملكها للحجاز ، وأعظمها والمقدم منها تعمير الامنة في بدو البلاد
 وحضرها ، قريبا وبعيدها ، وما يرجى بحكمته من سائر اركان الاصلاح فيها

وقد منّ عليّ ، بأن دهد بنشر هذه الارتسامات إليّ ، بأن أطبعها
 بمطبعة المنار ، وأشرف عليّ تصحيحها بنفسه ، لتعذر ارسال مثل الطبع
 اليه في أوربة ليتولى تصحيحها بنفسه ، بل منّ دليّ بالاذن لي بتعليق بعض
 الحواشي على بعض المواضع التي أرى التعليق عليها مفيداً لقارئها ، ليكون
 اسمي مقرونا باسمه في هذا الاثر الخالد له في خدمة العرب والاسلام ،
 كما منّ عليّ قبله بمثله في رسالته التي جعل عنوانها (لماذا تأخر المسلمون
 ولماذا تقدم غيرهم) وهي الرسالة التي

سارت بها الركبان تطوي نفننا فنفننا وسببا فسببا
 فاضطربت بها بعض دول الاستعمار وزلزلت زلزالا شديداً ،

حتى قيل لنا انها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها ، وهي أحق بها وأهلها ، فانفردت بهذه المداوة للإسلام دون من أغروها بها
 ولقد كان سماح الامير حفظه الله لي بهذا وذلك اعلاما لثارثي الرسالة
 والرحلة بما بيننا من الاخوة الاسلامية الصادقة ، والاتفاق في المقاصد
 الاصلاحية النافعة ، للامة العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي تفتح
 روحها في كل منا شيخنا الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) بالتبع لاستاذه
 . ووقف الشرق وحكيم الاسلام (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله
 روحهما ، وأجزل ثوابهما

هذا وان الامير أمتع الله بعلمه وعمله ، ولسانه وقلبه ، قد وضع
 الرحلة حواشي كثيرة عزوتها اليه في مواضعها ، وكان يجب أن أشير إلى
 ذلك في ديباجتها ، ولكنني ما علمت بها إلا عند بلوغ أول حاشية منها
 وقد كازلي وقفة ونظر في اقتراحه على الحكومات المختلفة في الدين
 والسياسة أن تشدد على حجاج بلادها الفقراء ، فيما تفرضه من الشروط
 للسماح لهم بالسفر إلى الحجاز ، لا لأن هذا الاقتراح منكر في نفسه ، بل
 لأن الحكومات الاستعمارية التي تكره للمسلمين المرزوقين بسيطرتها عليهم
 أن يؤدوا هذه الفريضة ، لم تقصر في ارضاقهم بالشروط المالية والصحية ،
 بل أنا أعلم علم اليقين أن جميع الدول الاستعمارية تمتعت قيام المسلمين بهذه
 الفريضة ، وتعاون على صدم عنها بما تستطيع من حول وحيمة ، ولولا
 ما لبوا اخرها وتجارها من المنافع من نقل الحجاج لكان تشديدهم في الصد

أكبر ، ولكن ما وضعوه من العوائير والعقاب في سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة، قد أنالهم بعض مرادم منه بقلة من يتحمل مشقته من ملوك المسلمين ، وأمرائهم المترفين ، وأغنيائهم المحسنين ، وزعمائهم المفكرين وقد كانوا حاولوا ان يقرروا في مؤتمر طبي عقد بمصر في أوائل عهد الاحتلال البريطاني أن الحجاز بيئة وبائية بطابعه ، يجب جعله تحت سلطة الحجر الدولي دائماً لذاته، بجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير اطباء مصر (والطيب النحاس لسو الخديو توفيق باشا وأمرته) يومئذ جهادا كبيرا دون ذلك ، حتى دحض كل شبهة تؤيد هذا الاقتراح ، وأثبت بالادلة الفنية الطبية والتاريخية ، أن الحجاز ليس بوطن لوباء الميضة الوبائية ، (الكولرة) ولا غيرها من الأوبئة السارية المعدية . ولكنني لم أضع لهذه المسألة حاشية ، بل أدعها الى علم الامير الواسع ، ورأيه الناضج ، لعله يستدرك ما يرى استدراكه ممحضا لهذا الرأي (١)

(١) ارسلنا الى الامير مثلا من هذه المقدمة قبل طبعا فكتب إلينا هذا

الاستدراك : —

« اقتراح تشديده الحكومات على الفقراء بدم الحج لم يكن مرادى به إلا منع الفقراء المعدمين الذين لا يستطيعون الى الحج سيلا ، والذين اذا جاءوا الى مكة صاروا وقرأ على أهلها وحكومتها

وأما الفقراء الذين لم يبالغ فقرهم هذه الدرجة فليسوا المراد بكلامي . واني أوافق الاستاذ على كون دول الاستعمار تشدد الشروط عمداً على من يريد الحج المستطيع وغير المستطيع ، وذلك قطعا لصله المسلمين بمكة وعزلا لهم عن اخوانهم في الدين . واذا سمحت احبانا بالحج فيكون على كره منها وتناض من ذلك بأكرام =

وها أنا إذا أُرِف إلى قراء العربية هذه الرحلة النفيسة ، والارتسامات اللطيفة ، ولا ريب عندي في أنهم يقدرونها قدرها ، ويُعنون معي بنشرها . وبث الدعاية إلى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة ، التي تتوقف عليها حياة هذه الأمة المسكينة ، التي كانت هي الناشرة لدعوة الاسلام ، والمفيضة لنور هدايته ، والمفجرة لأنوار حضارته ، وباحياتها وعمران بلادها يناط يتأوه ، ويدود رواؤه ، وينضر إهابه ، ويتجدد شيا به ،

= الحجاج على ركوبها ، وتعرض عليهم أجرة فاحشة ونحصرهم فيها حنرا أبز يد قهرهم ، وفي السنة الفاتنة لم نزل فراسة تتنوع في الشروط وتمنت على الحجاج حتى لم يقدر على الحج إلا ٣٠ شخصاً من كل جزائر المغرب مع أن الدين كانوا تووا الحج هم أكثر من ألف وتسعمائة

ولا يكتر على الفراسيس بعد ذلك أن بنوا بكرة واصيلا على مسلمي المغرب بالحريية الدينية التي امنعوم بها ، وان يلاوا جرائد هم بما منحوم منها حتى يخال من لم يطلع على الحقيقة ان مسلمي المغرب راعون في مجامع الحريية الدينية كما يصنفها هؤلاء الخطباء والكتاب

والحقيقة أن أهل المغرب جميعاً في عناء شديد من كل جهة ولا سيما من جهة حريية الاجتماع بسائر المسلمين بل من جهة حريية اجتماعهم بعضهم مع بعض ومنذ نحو شهر نادي النادي في أسواق فاس بأنه ممنوع ذهاب التجار للبيع أو لشراء بين قبائل البربر . وجميع الناس يعلمون انه لا يقدر أحد من الفقهاء ولا من حملة القرآن ولا من مشايخ الطرق الصوفية ان يدخل قري البربر ولا أن يجول في الحياض التي هم فيها إلا باذن خاص من الحكومة على حين مئات من الرهبان والراهبات والاقسة والمبشرين يجولون في بلاد البربر كيف يشاؤون وينوب المدارس والكنائس

فهذا هو كنه الحريية الدينية التي تمن بها فراسة على مسلمي المغرب . ومن كان في شك من كلامنا هذا فليذهب إلى تلك البلاد أو فليسال الثقات من أهلها

وأختم هذا التصدير لها بما يؤيد قولي هذا من الاحاديث النبوية في شأن الحجاز ومستقبله ، وكونه مأرز الاسلام ومعقله ، وحصنه وموئله ، عند ما يشتد على المسلمين البني والعدوان ، ويركبون المناكير فينا كرم الزمان ، او تستباح بيضتهم بما أعرضوا عن هداية القرآن

قال رسول الله (ص) « ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » (١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .
وأعم منه وأدل على المراد قوله عليه الصلاة والسلام « إن الاسلام بدأ غربا وسيعود غربا كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها » رواه مسلم من حديث ابن عمر

وأعم منه وأظهر قوله (ص) « ان الدين ليأرز الى الحجاز كما تأرز الحية الى جحرها ، وليعتان الدين من الحجاز معقل الأروية (٢) من رأس الجبل . ان الدين بدأ غربا ويرجع غربا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سني »

وأوسع من ذلك كله وأدل على الباعث عليه ما رواه أحمد والبخاري ومسلم

(١) أرز كمل انضم واجتمع وانكش (وورد لغة من بابي ضرب وقد) والمعنى انه سيعود الى المدينة والحجاز كله وبأوي اليه كما تعود الحية الى جحرها ولا سيما اذا خافت

(٢) الأروية بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنثى الوعول وهي تنصم في أعالي الجبال . والمعنى أن الاسلام سينضمف ويصير غربياً ومضطهداً في الاقطار فلا يجد له حصناً ومعقلاً إلا الحجاز فينصم فيه كما تنصم الأروية في شناخيب الحياك

من حديث ابن عباس ان النبي ﷺ أوصى عند موته بثلاث أولها « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن عمر (رض) انه سمع رسول الله ﷺ يقول « لا اخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما » وما رواه أحمد من حديث عائشة (رض) قالت آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قل « لا يترك بجزيرة العرب دينان » وروى عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قل: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ « اخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب » والمراد انه آخر ما أوصى به عند موته ، وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهي « اللهم الرفيق الاعلى »

وقد بينت في مواضع من جزء التفسير العائش وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية، وهي ما أطعم الله تعالى عليه رسوله وأخبر به كافي حديث ثوبان (رض) وغيره، من تداعي الامم على المسلمين كما تداعي الآكلة على قصعتها، وسلبهم ملكهم، واضطهادهم لهم في دينهم، إلى أن يضطروا إلى الالتجاء إلى مهد الاسلام الاول، ومهقله الاعظم، ومأرزه الآمن، وهو الحجاز وسياجه من جزيرة العرب. ولذلك أوصى بأن يكون هذا المهقل خاصا بالمسلمين لا يشاركهم فيه غيرهم، فهذه الوصية من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سرها في هذا المصر

وهانحن أولاء نرى أعداء الاسلام ما زالوا يضاروننا المسلمين حتى

انتهبوا بهم إلى جزيرة العرب ، وطفقوا ينازعونهم فيها ، بل وصلوا إلى الحجاز واستولوا بمساعدة بعض أمراءه على أعظم موقع من ممالك البرية والبحرية (ما بين العقبة ومعان) وصاروا بائسلاهم على سكة الحديد الحجازية على مترية من المدينة المنورة التي خصها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر، وأنشأوا يؤسسون وطنا لليهود في جوارها من فلسطين التي يدعون أنها لهم وحدهم ، وسيطلبون ضم خيبر إليها ، بأنها كانت لهم وأخرجهم عمر بن الخطاب منها .

فإذا لم تتعاون جميع الشعوب الاسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصوري والمعنوي على حفظ الحجاز وعمرانه ، بل إيجائها الى ذلك واضطرارها اليه ، فستقطع قلوبهم اسفا وندما ، وبذرفون بدل الدموع دما، إذ لا ذات مندم ، ولا متأخر ولا متقدم، ولقد كنت في حيرة لأهتدي السبيل إلى أقرب الوسائل لهذا العمران ، حتى وجدته مرسوما في هذه الارتسامات ، داحضة أمامه جميع الشبهات ، فبادروا اليه أيها المسلمون (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)

وكتبه ناشر الارتسامات .

السيد محمد رشيد رضا

منشى ، مجرة المنار

الاستيفاء اللطيف

في خاطر الحاج الأندلسي مطاوع
وهي الرحلة الحجازية لأمة البيان وفادير الزمان

الأمير شكيب أرسلان

وقف على تصحيحها وعاق حواشيها

الشيخ محمد رشيد رضا

مفتي مجلس العلماء

الطبعة الأولى في سنة ١٣٥٠

مطبعة المنار بدمشق

شارع الأنش رقم ١٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الخلاق، وسبحان الله وبحمده في العشي والإشراق:
ونشهد أن لا إله الا الله شهادة الاخلاص التي نرجو بها الخلاص يوم
التلاق، وتهون بها سكرات الموت اذا حشرجت الانفس في التراق،
ونشهد ان محمداً عبد الله ورسوله اشرف الخلق على الاطلاق، المبعوث
لاقامة الحق والعدل وإمام مكارم الاخلاق، بكتاب باهر الحجية، وسنة
واضحة الحجية، وبراهين كالصبح في الاتفلاق، والشمس في الاثتلاق،
صلى الله عليه وعلى آله النظاريف، وعلى اصحابه الصناديد، وعلى
انصاره الكرام العتاق، الذين نشروا التوحيد المحض في الآفاق، وجمعوا
كرم الافعال الى كرم الأعراق، ما هبت نسائم الاسحار، وتفتت
كأثم الازهار، وسجعت الورق على الاوراق، وسلم تسليماً كثيراً
(وبعد) فقد مضت علي حجاج كثيرة وأنا اعمّ باداء فريضة الحج.
والمواثق تعوق، والموانع من حول الى حول تجول، الى ان يسر الله
باطنه وحسن توفيقه لي اداء هذا القرض في سنة ١٣٤٨ أي منذ سنتين
كاملتين. فكان تصدي الى الحجاز من لوزان بسويسرة، عن طريق نابولي

بايطالية، اذ ركبت منها البحر على باخرة انكليزية الى يورسعيد حيث
 تزلت، وفي اليوم التالي ذهبت الى السويس، ومنها اجرت الى الحجاز، في
 باخرة مكتظة بالحجاج، فأحرمتنا وبيننا من بحر رابع، ووصلنا الى جدة
 من السويس في اليوم الرابع، على ما وصفت في رحلتي الحجازية التي
 سيقراها المطالع. وفي مساء يوم وصولي الى جدة يسر الله دخولي الى البلد
 الامين. مبادر الى البيت العتيق بأطواف، والى المروة والصفاء بالسعي،
 وبعد ذلك بيومين صعدنا في منى فعرفة، ثم افضنا منها الى المزدلفة،
 حيث بتنا ليلة، ثم عدنا الى منى حيث لبثنا ثلاث ليال، وعدنا الى البيت
 الحرام، وتممنا مناسك الحج، والله يتقبل منا، ويتوب علينا، انه قابل
 التوب غافر الذنب العلي الكبير، لا يقترن بشرك به ويغفر ما دوز
 ذلك من يشاء ويعفو عن كثير.

واتمد وجدت مناصبان نشر ما رسم في مخيلتي من هذه المشاهد،
 وما اتفيع في لوح دماعي من ماضى تلك المشاعر المباركة والمعاهد.
 مقرونا بما بين لي من الآراء، التي امتلا على ما عندي من الملاحظات التي
 احب أن يطالع عليها القراء، زرست الى جريدة «الشورى» بمقالات
 كنت أنشرها فيها الفينة بعد الفينة، ذاتراً فيها مكة وعرفة. ومنى
 والمزدلفة، وتلك البقاع المفضلة مشرفة، وما كنت بمد ذلك تصعدت
 الى الطائف، مستمداً من هناك ما اني في اثناء اداء القرىضة، كتبت

أيضا عن الطائف وجبالها ومرابها ومنازها، وجنانها وكرومها وفواكهها، ولم أقتصر في الوصف على جناتها الناضرة ، وأحوالها الحاضرة ، بل كررت النظر الى الوراء من امور تاريخية ماضية ، ومددته الى الامام في امور اجتماعية مستقبلية ، بحيث جمعت في هذه الرسائل بين مباحث جغرافية وتاريخية ، ومواقف سياسية واجتماعية ، ومسائل عمرانية واقتصادية ، ودقائق لغوية وأدبية ، متناولا من القديم والحديث، ومنتقلا بين التالد والطريف . ومن حيث اني كنت أصدرها من وقت الى آخر في جريدة سيارة كانت هيئتها اقرب الى اسلوب الجرائد منها الى أسلوب الكتب ، لان الكاتب اذا كتب بين أسبوع وآخر متأثرا بالعوامل المختلفة ، ملاحظا المتجددات اليومية ، مراعيًا حالة قرائه الروحية ، ذهب به الاستطراد كل مذهب ، وشردت به شجون القول فشرق وغرب ، ولهذا جاء في هذا الكتاب استطراد ليس يبسير من فصل الى فصل ،

وان كان جميعه مرتبنا بالموضوع ومردودا الى الاصل

تم رأيت ان اكمل هذا التأليف على الخطة التي انتهجتها اولاً من نشره رسائل متفرقة على الاسابيع قد يأخذ وقتا طويلا ولا ينهي باقل من سنتين أو ثلاث ، على أنني صرت مشغولا مستغرقا برحلي الاندلسية ، التي قد تأخذ مجلدات عدة ، ولا يتأتى لي الاشتغال بغيرها هذه المدة ، فعدلت مؤخرا عن الطريقة الاولى ، وقطعت رسائل هذه « الارتسامات » عن الشورى ، وانصرفت الى اكمل هذا التصنيف توجاً

حائما مطية القلم الى غايته ، ماضيا به بلا توقف الى آخره ، فكان ما نشر
منه في الشورى نحو الثلث ، وما لم ينشر في الشورى ولا في جريدة
غيرها نحو الثلثين

هذا ولما نسى اكمله ، وبلغ الابدان هلاله ، رأيت ان أتوجه باسم جلاله
الملك الهمام ، الذي هو غرة في جبين الايام ، عبد العزيز بن عبد الرحمن
الفصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، تذكرا لجميل الامن الذي
مد على هذه البلدان سرادقه ، وعرفانا بقدر العدل الذي وطد فيه دعامته
وناط بالاجراء موافقه ، وابتهاجا بالملك العربي الصميم الذي صان للعروبة
حقها وللإسلام حمائقه ، أدام الله تأييده ، واطلع في بروج الاقبال
سعوده ، وخذل شمسها الشارقة ووقفه للاتفاق مع سائر ملوك العرب
وامراتها ، والعمل مع رجالاتها العاملين لرقبها وعلائها ، ولا سيما الملكين
الهامين ، الفاضلين الكاملين ، الماهدين المجاهدين ، المتوكل على الله الامام
يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب اليمن ، والملك فيصل بن الحسين ،
صاحب العراق والرافدين ، أدام الله توفيقهم جميعا لما به حفظ تراث
الامة العربية ، وابلاغها المقام الذي تسمو اليه نفوس العرب الالية ،
وحياطتها بوحدة الكلمة من سطوات القدر ، وغوائل المكر ، التي لا تفارق
حركات الدول الاجنبية ، والله تعالى سميع الدعاء ، كفيل بتحقيق الرجا: آمين
وكتب بلوزان في ٥ ذي الحجة الحرام ١٣٤٩

سكيب أرسلان

من السويس الى جدة

(ووصف الاحرام والتلبية)

فصلنا من ميناء السويس في ٨ مايو على باخرة تقل نحو ١٣٠٠ حاج من اخواننا المصريين ، وفيهم بعض المغاربة ، فسارت بنا الباخرة رهواً ورخاء لم نشعر فيها الى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب ، وانما كان المزعج هو اكتظاظ السفينة بالراكبين حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام وفي اليوم الثالث من مسيرنا نأوحنا ميناء رابغ ، ولما كان الحجيج الوارد من الشمال في البحر الاحمر عليه أن يحرم من رابغ فقد احرم جميع الحججاج الذين في الباخرة ، وارتفعت الاصوات من كل جهة « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » فاستشعر الناس من الخشوع في اثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل باعماق القلوب ، وتغلغل في سرائر النفوس ، وأحس الجميع ان البيت الذي يخلع الناس تعظيماً له اتوا بهم قبل الوقوف بعنته بمسيرة يومين ، ويشتملون في القصد اليه ما ليس فيه شيء من الخيط ، لبيت مقدس ، لا يؤمه الناس كما يؤمون سائر البيوت ، وأنه فوق بيوت الملوك ، وفوق مقاصير القياصرة ، وأواوين الاكاسرة ، التي لا يحرم في الطريق اليها احد لامن بعيد ولا من قريب

وما زال الناس مستشعرين الخشوع تلك الليلة ، مواظبين على التلبية ، مترقبين طلوع الفجر الذي يدنيهم من جدة ، ميناء البيت العظيم الذي يؤمنه ، إلى أن انفلق الصبح ، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير ، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير ، وخالط ألهيبة والخشوع

بالتقدم على البيت الحرام ، الفرح والابتهاج بالوصول إلى أظهر بقعة وأقدس مرام ، ولم تكن ترى إلا عيوننا شاخصة ، ولا نحس الا قلوبنا راقصة ، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز منتظرون بزاهب الصبر أن يقبلوا على جدة . فلما كان ضحى اليوم الرابع من ذي الحجة دخلت الباخرة مرسى جدة ، لكن بتؤدة عظيمة لما في هذا المرسى من الجبال والصخور التي تكاد رؤوسها تبرز من تحت ليج البحر وإذا بخمس عشرة باخرة راسيات في ذلك الميناء على أبعاد متفاوتة من البر

وصف بحر وغرابة ألوان بحرها

واقعد طابلي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري (احدهما) رؤية هذه البواخر الواقعة في الميناء ناطقة بلسان حالها : انه وإن كانت هذه السواحل قفاراً لا تستحق ان ترفأ اليها البوارج ولا السفن فان وراها من المعنوي امرأ عظيماً ، ومقصداً كريماً ، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله ، ولقد قيل لي في جدة ماذا رأيت ؟ فن العادة ان يجتمع في مياه جدة ثلاثون باخرة وأربعون باخرة ، وقد يبلغ عدد الراسي فيها الى خمسين باخرة ، حتى يعود البحر هناك غاباً أشبأ ، وتظن نفسك في هامبورغ أو نيويورك وأما المنظر الثاني فهو منظر مياه هذا الميناء ، فلقد طفقت كثيراً من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر البلطيك وبحر المانش والاقيانوس الاطلانتيك ، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللحمان . كنت كيفما نظرت يمتة أو يسرة اشاهد خطوطاً طويلة عريضة في البحر اشبه بقوس قزح في تعدد الالوان ، وتألق الانوار ، من احمر وأزرق وبنفسجي وعنابي وبرتقالي وأخضر الخ . ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى ان هذه الخطوط مستقيمة وان قسي قزح مقوسة ، وان هذه في السماء ، وهاتيك في الماء ، وقد تشبه هذه الخطوط ذبول الطواويس ، لا فرق بينهما إلا في كون هذه الذبول

المنسحبة على وجه البحر عظيمة جداً تمتد مئات من الامتار وبعرض عشرات منها، ولكن في تعدد الالوان وموازاة بعضها لبعض وشدة تألقها الآخذ بالابصار لا تجد بينها بونا . فكأن في كل جهة من بحر جدة مسرح طواويس ساجدة في الاجيج الخضضر وظهورها إلى سطح الماء الواحد منها بقدر الف طاووس مما نعهد

قضيت العجب من هذا المنظر وقلت ان مثل هذا الميناء لا تمله النواظر ، ولا تشبهه المناظر، معها كانت نواضر . ثم سألت ربان الباخرة - وهي من البواخر الهندية ربانها انكليزي - عما إذا كان رأى هذا المنظر في بحر آخر وقلت له إنني جلت كثيراً في الدنيا، ورأيت أبحرا وبحيرات وأنهارا لا تحصى ، ولم أعهد مسرح لمحة على سطح ماء يحاكي في البهاء هذا الميناء، فما قولك انت ؟ قال لي : معها يكن من سيرك في الارض ومعرفتك للبحار فلا تعرف منها جزءاً مما اعرف، وأنا اقول لك اني لا اعهد هذه المناظر البديعة الا لهذا الميناء وحده . فسألت عن السبب في تشكل هذه الالوان . فقال : ان قعر البحر هنا ليس يبيد وان فيه اضلاعاً مكسوة نباتا بحريا متنوع الالوان والاشكال ، وان هذه الاضلاع ناتئة قريبة من سطح الماء فتعكس مناظرها الى الخارج، ويزيدها نور الشمس رونقا واشعاعا وقيل لي فيما بعد ان ملوحة البحر الاحمر زائدة، وان هذه الملوحة هي السبب في تكون هذه الشعاب التي تكثر في هذا البحر وتجعل مسالكه خطيرة، وان هذه الشعاب تنمو وتعلو حتى تقارب سطح الماء، ومنها ما يبرز عن سطح الماء فيكون جزيرة . وان هذه الشعاب متكونة من أعشاب وحيوانات بحرية من طبقة الاسفنج، وهي ذوات ألوان شتى كلها ناصع، ومنها ماهو أحمر ساطع، ومنها ماهو أخضر ناضر ، ومنها ماهو اصفر فاقع، ومنها ماهو دون ذلك، وقد يقتلع الملاحه والقواصة منها أشجاراً تسمى بشجر المرجان ، وهي في غاية الجمال ، ومن ابهى ما يوضع في ابهاء القصور للزينة .

فهذه الشماط هي التي تنعكس ألوانها على سطح الماء فتكون أشبه بذيول الطواويس أو بقسي السحاب ، وهي في الوقت نفسه الاخطار الدائمة على السفن والغيلان المتحفزة لابتلاعها. فسبحان الذي أودع فيها الحسن ولكنه أنزل فيها البأس ، وجعلها غائلة للمراكب . ولقد صدق المثل (ان من الحسن شقوة)

قالوا : وان آمن مرسي في الحجاز مرسي رابع، ذلك لعمق غوره وقلة شماطه، وعللوا ندور الشعاب فيه بكون ملوحة بحر رابع اقل من ملوحة سائر المراسي، وهذا من كثرة السيول المنصبة على رابع، فالملء الحلو قد نقص من ملوحة ميناء رابع، وعافاه من تلك الشعاب التي هي آفة الموانئ الاخرى في البحر الاحمر

وحبذا لو قامت هيئة جيولوجية بالفحص اللازم لاحوال البحر الاحمر الطبيعية وأعطت حكمها في اسباب تكون هذه الشماط وكثرتها في هذه الموانئ ، وفي منشأ هذه المماظر الجميلة التي تلوح للرائي اذا أقبل عليها، فمن الاسباب التي ذكرناها لم تتوكل فيها على تقرير فني، بل على الكلام الذي يدور على ألسنة الناس

هذا ما كان من تأثير بحر جدة في خاطري . فأما بر جدة فلبدة لا بأس بها ، ولا يوحش الداخل منظرها . نعم ان بناها لا يزال كأنه من القرون الوسطى، ولكن بناء اقرون الوسطى ليس كله منبوذاً . وقد بدأ المهندسون يقلدونه ويرجعون إلى كثير منه . ولمرئى لست ممن يحب الجدة الجدة في طرز البناء ولكني أتمناها لها في استعمال الآلات الميكانيكية الحديثة، والطرق العصرية في مرافق الحياة وفي الصناعة والتجارة وسائر أركان العمران ، وأما أسلوب البناء فليس فيه ما يستهجن بل أرى نجارة الابنية فيها راقية . وهذه الرواشن الكثيرة اللطيفة التي قد أعجبت السكولونل لورانس الانكليزي — يوم جاء جدة في الحرب الكبرى — قد أعجبتني انا ايضا

وقد اخنت الحرب الكبرى على معظم عمران جدة فيما اخنت عليه من عمران هذا العالم . وازداد جزرها في الحصار الاخير. قبل ان استولى عليها الملك ابن سعود فلما ألفت بمقاليدها إلى جلالته بدأ يتراجع اليها العمران ، واستؤنف النشوء. ولا تخفي سنوات معدودات حتى تسترجع درجة عمرانها السابقة

شعوري القومي

في جدة والحجاز

يأذ الانسان عند دخوله إلى جدة تذكره انها باب مكة المشرفة وان الزار
أصبح قريبا . وقد لذني انا يوم دخولي اليها زيادة على ذلك ماشعرت به من اني
هنا لست تحت سيطرة أوربية ... نعم شعرت منذ وطلت بقدمي رصيف جدة
اني عربي حر في بلاد عربية حرة . شعرت اني تخلصت من حكم الاجنبي الثقيل
الملقى بكله على جميع البلاد العربية - ويا للأسف - حاشا مملكتي الامامين عبدالعزيز
ابن سعود ويحيى بن محمد حميد الدين .

شعرت اني حر في بلادتي وبين أبناء جلدتي، لا يتحكم في رقبتي السيوف فلا نولا
لمستر فلان الخ بحجة انتداب او احتلال ، او سيطرة او حياية او وصاية، او غير ذلك
من الاءاء المخترعة التي يراد بها تنعيم مس «الفتوحات» وتخفيف مرارتها في الاذواق .
شعرت اني إن كنت خاضعا هنا لحكومة فكخضوع لويد جورج لحكومة
إنكلترة ، وكخضوع كليمنسو لحكومة فرنسة، اي اني خاضع لحكومة عربية بحجة
رأسها وأعضاؤها مني وإلي ونامنها واليها، وبعبارة أخرى اني هنا خاضع لنفسي،
وان كل من أراه من رعاياها اتما هو خاضع لنفسه ، وأن الامر في هذه الديار
مع العرب هو على حد مقال الصوفية : المكلف هو المكلف . وان تعدد
الوجودات هو تعدد ألوان لانعداد أنواع

شعرت ان رئيسي هنا هو ابن جلدتي الذي يغار علي كما اغار على نفسي، وان
الجندي الذي يحيط بي ويحفظ الامنة علي وعلى غيري هم ممن أجمع واياهم في ارومة
واحدة، ومن أرمي واياهم الى هدف واحد، فلا تنقل علي سلطتهم، ولا يتكلموني

الخضوع لنظامهم، لاني أرى فيه نظام أمتي وانتظام شملي . وليس هنا ذلك الرئيس الغاشم ، الثقل الوطأة ، السوء النية ، للتكبر المتعجب المتعطرس ، الغريب غني ، الذي لست منه ولا هو مني، الآتي إلى بلادى ليتحكم في أمورها ويستغل خيراتها، ويضرب على سكانها الذل والسكنة، لانه لا يقدر ان يعتز إلا بذلم، ولا ان يثري إلا بقرهم، ولا ان يقوى إلا بضعفهم ، ولا ان ينصع وجهه إلا بفقر دمهم. وسيأتي يوم نقول فيه : ولا يحيا إلا بموتهم

لم أكن هنا في البلاد التي مع انها وطني ووطن آبائي وأجدادي، ووطن قومي وأمتي، وجني سواعدهم ، وثمره دماهم التي سالت فيها أنهاراً، لا يؤذن لي ان ألقي عليها نظرة بعد غربة متطاولة ، ونبوة متأدية ، ولا ان أدوس على ترابها بقدم خفيفة ولو ساعة من الزمن ، وذلك لان غربيا غلب عليها فقبض على أعتها وتصرف بها كيف شاء ، يدخل من يشاء ويخرج من يشاء ، فأصبح هو صاحب البيت وأصبح أصحاب البيت هم العرباء...

شعرت في الحجاز اني تظللني راية عربية محضة حقيقية، لاراية مشوبة بشعار أجنبي ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربي إلا ما كان من قبيل مرتزقة او مستأجرين تحت قيادة من لا يرقب في هذه الامة إلا ولا ذمة ، وانما ينظرون اليها كعامة اللام التي تدعي عليها الوصاية وكنتم لاسباب رفاهيتها ونعيمها لقد صدقت الجريدة الدمشقية التي قالت: انه لم يبق في البلاد العربية بلاد أقدر ان أدخلها إلا الحجاز . والحقيقة اني أدخل أية بقعة أردت دخولها من جزيرة العرب حامداً لله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون سواهم ، وعلى ان حكومات الحجاز ونجد واليمن لا تعرف شيئاً من الامتيازات الاجنبية التي تكاد تفرق في لججها الامم التي تحت الوصاية ، والتي لا يزال منها رسيس حتى في تركيا فالفرنجي - سواء في مملكة ابن سعود او في مملكة الامام يحيى - خاضع للشريعة الاسلامية بجميع أحكامها

الملك ابن السعود

تم شاهدت جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن سعود وكان في جدة ذلك اليوم ، فوجدت فيه الملك الاشم الاصيد، الذي تلوح سياء البطولة على وجهه ، والعاقل الصنديد الانجيد الذي كأنما قد ثوب استلال العرب الحقيقي على قدمه ، فحمدت الله على ان عيني رأت فوق ماأذني سمعت، وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الامة

لا أقصد في اعجابي هذا بشخصية الملك ابن سعود تنقص أحد من ملوك العرب الآخرين ، ولا التعريض باي ملك او أمير ينطق بالضاد ، بل نحن نتعني تأييد الجميع وتسديد الجميع كما نتعني تأييد ابن سعود وتسديده بدون فرق ، وحباً بمصلحة الامة العربية التي استقلالها صربوط باستقلالهم فأما اذا كانوا يشترطون على المحب لهم والمتواجد على خيرهم ان يكره لهم ابن سعود ، او ان يسكت عن الاشارة بحسناته، والاعجاب بما آتاه الله من المواهب ، فان شرطاً كهذا ليس من الانصاف في شيء ويكون من البديهي اننا لا نقبله

ركت بدعوة جلالة الملك ابن سعود إلى يساره في السيارة (اصطلاحوا في الحجاز على تسمية الاوتوموبيل سيارة وقديقولون موتر اي Moteur ويجمعونها على مواتر) وسرنا بمعيته مساء يوم وصولي ، وذلك إلى البلد الامين ، حماه رب العالمين

ولم أجد الحرارة في جدة فوق ماتحملة النفس حتى نفس الذي لم يتعود الحر، نظير هذا العاجز . بل هواء البحر يرطب جو جدة ويخفف من سموم الصحراء ، وذلك بخلاف مكة التي حرها شديد

الطريق من جدة إلى مكة

فأما الطريق من جدة إلى مكة في هذا الفصل فليس فيها مايسرح به النظر في مؤنق او ناضر . فلا ترى من أولها إلى مايقارب آخرها غصنا أخضر يلوح ، ولا رقعة بقدر الكف خضراء . ولا يكاد يقع بصرك من الجانبين إلا على رمال

محرقه تدخل العشايا ويجن الليل وهي حافظة لحرارة النهار، وعلى آكام
وأهاضيب أكثرها من الحجارة السود كأنها من بقايا البراكين
ولما وصلنا الى بحرة ظننت اني أرى فيها قرية أشبه بالقري فاذا بمجموع
عشاش وخصاص ويون لا ترضي ناظرآ، وهناك اماكن استعاروا لها اسم
المقاهي، وهي في الحقيقة اخصاص تشتمل على مقاعد من خوص يجلس عليها
المسافرون الذين بلغ بهم الجهد، فيشربون شيئاً من الشاي او يتمعون غلتهم بماء
لا غناء فيه . وكان الاولى باهل مكة وجدة ان يجعلوا من بحرة منزلاً تقر به
عين المسافر ويجد فيه خضرة ونعما بعد تلك الرمال المحرقة والآكام الجرداء
والامل ان حكومة الملك ابن سعود تنظر الى هذه العلة فتزيلها
وقد قيل لي ان طريق جدة الى مكة ليست طول السنة في هذه القسوة التي
رأيتها فيها، بل هي في الربيع غيرها في الصيف إذ يرى منها المسافر في الربيع كلاً
كثيراً، وخصباً نضيراً، وقتاداً وطلحاً، وشجراً وسرحاً
وكانت قوافل الحجاج من جدة الى مكة خيطاً غير منقطع والجمال تنهادي
تحت الشقادف، وكثيراً ما تضيق بها السبيل على رحمتها، وكان الملك أيده الله
من شدة اشفاقه على الحاج وعلى لرعية لا يرفع نظره دقيقة عن القوافل والسوابل
ولا يفتأ ينتهر سائق السيارة كلما ساقها بعجبة قاتلته : تريد ان تدبح الناس .
وكل هذا اشدة خوفه ان تمس سيرته شتدفا، او تؤذي جملاً او جمالاً، وهكذا
شأن الراعي البر الرؤف برعيته، الذي وجدانه معمور بمعرفة واجباته
وما زلنا نسير حتى دخلنا حدود مكة التي يحرم فيها الصيد والمسافة بالسيارة
لاتتجاوز اربع ساعات، وبعد ذلك وصلنا الى الثكنة العسكرية وصرنا بين
البيوت، فملنا اننا نترفنا بدخول البلدة التي تشرفت بمولد محمد سيد الوجود،
وبالبيت الذي طهره ابراهيم واسماعيل للطائفين والعاكفين والرُكع السجدة، فقصدنا
تواً الى البيت الحرام حيث طفنا وسعينا، وجأرنا ودعوننا، والله يتقبل الدعاء
ويغفر الذنوب في ذلك المقام الكريم (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم
لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم)

الكلام على مكة المكرمة

(صفتها الحسية ، ومكانتها المعنوية ، وكعبتها البهية ، وهوي القلوب إليها من جميع البرية ، ورزقها من جميع الاغذية والثمرات ، استجابة لدعاء ابراهيم عليه السلام)

جعل الله مكة مكانا لعبادته تعالى لاغير . وكأنه سبحانه وتعالى لما قضى بأن تكون محلا للعبادة ومثابة للناس وأمناء، قضى ايضاً بتجريدتها من كل زخارف الطبيعة، ولم يشأ أن يطرزها بشيء من وشي النبات ، ولا أن يخصها بشيء من مسارح النظر المؤفة، حتى لا يلهو فيها العابد عن ذكر الله بخضرة ولا غدير ، ولا بنضرة ولا نيمر ، ولا بهديل على الاغصان ولا هدير ، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصاً لوجه ربه الكريم، لا يشوبه تطلمع إلى جنان أو رياض ، ولا حنين إلى حياض أو غياض . وحتى يبثلي الله عباده المتخلصين الذين لا وجهة لهم سوى التسبيح له والتأمل في عظمته تعالى، فكانت مكة أجرد بلدة عرفها الانسان، واقفل بقعة وقعت عليها العينان .

مكة هذه البلدة المقدسة التي هي فردوس العبادة في الارض وجنة الدنيا المعنوية ، عبارة عن واد ضيق ذي شعاب متعرجة ، تحيط بذلك الوادي جبال جرداء صخرية صماء ، لاعشب ولا ماء ، قائمة اللون كأشها بقايا البراكين ، إذا مر عليها الانسان يوم من أيام الصيف في هاجرة ظن نفسه يدوس بلاط فرن او بضطجع في حمام، وان ترك على تلك الصخور لحما كاد يشتوى بلانار ، او ماء كاد يغلي بلاوقود . وليس في تلك الشعاب اشجار ولا أنهار ، ولا مروج ولا عيون تلتطف من حرارة تلك الحجارة السود في حمارة القيظ . وكان القاصد

إلى هذا الوادي إنما يزداد بهذه القوة الجغرافية أجراً وثواباً وارتفاع درجات .
فبقدر ما أفاض الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من
الحلية المادية .

وقد وصف الله تعالى هذه الحالة فقال عن اسان ابراهيم عليه السلام (ربنا إني
أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا
الصلاة) وظهر من هنا انه واد مجرد للعبادة دون غيرها ، وانه غير ذي زرع
ولا ضرع ليزداد اجر الناس بالقصد اليه والعكوف فيه . ولما كان تد الرحال
الى واد كهذا خال من جميع اسباب الحياة تقريبا ليس مما يرغب فيه الناس الذين
من عادتهم ان يقصدوا الاماكن الرغيدة والمتزهات، وأن يعولوا على البقع المربعة
التي يأتيها رزقها رخاء ورغداً دعا ابراهيم ربه فقال (فاجعل افئدة من الناس
تهوي اليهم وارزقهم من الشمرات لعلهم يشكرون)

فبدعوة ابراهيم هذه هوت الى هذا الكان والى المتمكنين فيه أفئدة
ورفرت عليهم جوائح من جميع فجاج لارض ، وترى الناس منذ ألوف من
السنين يحجون هذا البيت المحرم ، ويحرمون قبل لوصول اليه بمراحل ، ويوفضون
اليه كأنما يوفضون الى اوزه بقع البسيطة واضيها نجمة واكثرها خيراً وميراً ،
وتجد قلوبهم في الرحلة اليه ، الأمل بانفرح ، لا يكادون يصدقون انهم مشاهدوه
من شدة الوجد، وغابة الهيام ، حتى اذا شاهدوه فضت العبرات وخفقت الجوائح
وتمايلت الاعصاف، وانتقل الناس الى عالم تكاد تقول انه غير هذا العالم قال ابن دريد:

بممن كل صاحب محوقوف من طول تدآب الغدو والسرى

بوى التي فضلها رب السما لما دعا تربتها على النبي

حتى اذا قلبها استعبر لا يملك دمع العين من حيث جرى

و اذا وصلوا الى مكة وجدوا عندها من اشمرات والخيرات مالا يجدونه

في البقاع التي تشقها الانهار، وتظلها الاشجار . وذلك أن المجلوب الى مكة من أصناف الحبوب والخضراوات والفواكه والمحمول اليها من البضائع والتاجر واللباس والقراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق ما يجلب الى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربما أكثر .

ولا يكاد الحاج يشتهي شيئا إلا ومجده في هذه البلدة القاحلة ، فحول مكة من الزراع والمباقل والمباطخ والمقاني، وفي جبال الطائف من الجنسان والبساتين والكروم مالا يأخذه العبد، ومالا يدرك منه شيء في فصل من الفصول إلا انحدر به اهله الى مكة ، فالشعرات التي دعا ابراهيم ربه من أجاها تفيض على البلد الأمين كالسيل المتدفق ، أو العارض المتدفق

مياه مكة في الجاهلية والاسلام

وأما الماء فقد كان في أم القرى من أيام الجاهلية آبار تبع ومصانع مما يجتمع من مياه المطر . ومن هذه الآبار اليسيرة التي حفرها لؤي بن غالب ، والروي التي حفرها مرة بن كعب، وخنم ورم وهما من حفر كلاب بن مرة، والحفر والمعجول وبئر التي حفرها هاشم بن عبدمناف . وسجلة وخنم ورم أخريان حفرها عبدشمس بن عبدمناف وأم احراد ، والسنبلة وهي حفر بني جهج ، والغمر لبني سهم ، والخفير لبني عدي ، والسقيا لبني مخزوم ، والثريا لبني تميم ، والتقع لبني عامر بن لؤي ، وبئر حويطب لحويطب بن عبدالعزي من بني عامر بن لؤي ، وبئر أبي موسى الاشعري بالمعلاة ، وبئر سوذ ، وبئر بكار ، وبئر وردان ، وسقاية سراج ، وبئر الاسود للاسود ابن سفيان من مخزوم ، وغيرها ، ومن هذه الآبار ما هو معروف الى اليوم باسمه ومكانه ، ومنها ما قد طوي اسمه أو ردم مكانه ، فإذا سألت علماء مكة لم يعرفوه . والظاهر ان جميع هذه الآبار لم تكن لتكني مكة في الجاهلية ، الى أن وضع عبدالمطلب بئر زمزم فكثر الماء وارتوى الحجيج .

عين زبيدة - صمها لله

أما بعد الاسلام فكثير الحجاج أضغافاً مضاعفة عن ذي قبل ، واشتدت أزمة الماء ، لاسيما في عرفة ومنى أيام الحج ، فانتدبت زبيدة امرأة الخليفة هارون الرشيد رحمها الله لهذا الامر وأسالت العين المسماة بعين زبيدة من مسافة نحو اربعين كيلو متراً ، وهو عمل عظيم جداً يستنطق الالسن بالترحم عليها كما ذكرت أو كما روى حاج ظلمة أو أسخ وضوءه منذ نحو ١١٠٠ سنة الى اليوم - والى ماتنا الله ولقد جرت زبيدة رحمها الله هذا الماء من وادي نعمان الشهير في قناة كانت تنتهي قبل الوصول الى مكة بمسافة ثلاثة ارباع الساعة ، وهذه القناة اكثرها تحت الارض ، وفي بعض الاماكن تظهر على وجه الارض تابعة لخطتها الهندسية ، وأما علو سقف القناة ففي بعض الاماكن يقدر أن يمر فيها الفارس راكباً ، وفي غيرها لا يقدر أن يمشي إلا الراجل ، وليس خطها مستقيماً على اطراد بل فيه تعاريج كثيرة قد تكون اقتضتها طبيعة الارض أو يكون مهندسو القناة مروا بهميون أرادوا أخذها في طريقهم ففرحوا بلبها وحبوا ان القناة من الجانبين غير مطاية بالجبر ولا بمحصنة ، بل مبنية بالحجر البسيط وذلك حتى ترشح الماء من خلال الحيطان ، لان الجص من شأنه أن يمنعه كما لا يخفى ، ومن دقائق هندسة هذه القناة أنهم جعلوا أنحدار الماء في المجرى خفيفاً وذلك خشية من ان يحفر في الارض فيما لو كان شديداً فتصير أرض المجرى مع توالي القرون أسفل كثيراً من الحيطان فتصبح هذه على شفا جرف هار ، ولهذا القناة خرزات مفتوحة من سطحها على مسافة كل ٢٠ أو ٣٠ ذراعاً واحدة وذلك لاجل سهولة التعزيل قالوا ان زبيدة انفقت على هذه العين مليون دينار ، وانها لما انتهت من العمل جيء اليها بدفتر الحسابات لمراجعتها فأمرت بطيها وقالت انما عملنا ما عملناه في سبيل الله ، فلا فرق بين أن تكون النفقة اكثر أو اقل

وكان في الماضي موكلاً بهذه القناة ثلاثمائة رجل من يدشة ، وكانوا يحرسونها ليلاً ونهاراً ومنهم أناس عند كل خروقة ، فأما الآن فإن الحكومة تجعلها لها دركاً خاصاً ومفتشين لا يزالون يتعهدونها من رأس نبعها إلى مكة . وقيل لي أنه لا يزال في وادي نعمان عيون من الممكن شراؤها وإضافتها إلى عين زبيدة ، ثم إنه يوجد عين أخرى اسمها عين الزعفران جددتها ملكة أخرى اسمها زعفران قيل لي أنها من إحدى الأسر المالكة كانت بمصر ، ولم أجد ذلك في كتاب . فهذه العين مجرورة من وادي حنين من مسافة لا تقل عن مسافة قناة عين زبيدة إلا أن ماء عين زبيدة اغزر واعذب ، وتتصل قناة الزعفران بقناة عين زبيدة في محلة المعابدة في أول مكة من جهة الداخل من منى ، وكان أحد سلاطين بني عثمان قد أوصل هذه المياه إلى مكة فأكل ذلك العمل العظيم الذي قامت به زبيدة واقتدت بها الزعفران فيما قالوا ، وبعد ذلك منذ نحو أربعين سنة جاء أحد الهنود المسلمين وتبرع بمبلغ من المال وجمع من مسلمي الهند مبلغاً آخر وبنى بهذه الأموال بضعة عشر خزاناً للماء ، في كل حارة من حارات مكة خزان ، فكان بذلك للناس مرفق عظيم ، وهذا الخزان يقال له اليوم بمكة « بازان » وهي لفظة إنكليزية جاءتهم من الهند معناها بركة أو صهريج ، ومع هذا فقد بقي الماء عزيزاً في موسم الحج فرمما بيعت قربة الماء بأربعين قرشاً

ولما تولى الحجاز الملك عبد العزيز بن سعود زاد سبل الماء في مكة ومنى فأزاح جانباً كبيراً من العلة ، وفي أيامه نأسس في مكة معملان الجمدة (الثلج) فكان في هذين المعملين من إزاحة العلة وسفاه العلة ما لا يخفى على من يعلم حر مكة في أيام السرطان والاسد والسنبلة ، فقد أصبح أكثر الحجاج والسكان يشنون أوامهم بالماء الثلوج ، ولعمري لا أجد مؤنسا في حر كهذا الحر كألواح الجمد التي ترواح النفس إلى مجرد النظر إليها ، قبل التهل والعل منها ، وكأنها في فصل كهذا حصون منيعة يتقي بها الإنسان لفحات السموم ،

الحر في الحجاز وما يقتضيه من كثرة المياه

والحر في الحجاز نوعان: أحدهما الومد وهو الحر الشديد مع انقطاع الريح، والثاني السموم وهو الريح الحارة، وهذه الريح إذا اتقاها الانسان بمنشفة مبلولة باناء، او بحصير مرشوش بالماء معلق فوق باب او نافذة انقلبت باردة وبالجملة فأشد ما يعاني المرء من حر مكة هو فيما لو تعرض للشمس في وسط النهار، أما المتعودون وابناء مناطق خط الاستواء فلا كلام لنا فيهم، فقد كنت اراهم في وقت الظهيرة يتشون ويتهادون في الشمس كما يمشي الواحد منا في ظلال جنة، ولم يكن يصيبهم ادنى ضرر، ولم يكن يصاب بضربة الشمس إلا من تعرض لها من حجاج الشمال لا غير

من فوائد هذه الحرارة الشديدة في مكة في أيام الموسم انها تقتل بشدتها جميع الجراثيم المضرة، فلا تجد في الحج شيئاً من الاوبئة السارية. وقد مات في هذا الموسم من مائة الف حاج نحو ٢٥٠ نسمة فقط، كما هم تقريباً ذهبوا بضربة الشمس. ولا أريد أن أجعل الفضل كله في قلة الامراض الحارة، فيضليل الادارة الصحية في الحجاز بفضل تدابير مديرها وهمة نخبة والعشرين طبيب الذين يعاونونه هي خير ادارة صحية عرفها الحجاز لي اليوم ماعد الايام التي كان فيها المرحوم قاسم بك عز الدين في زمن الامير عون الرفيق، وأسس الترتيبات الصحية التي لا تزال نبراساً إلى هذه الساعة. فالدكتور محمود حمدي يحدو حدو المرحوم الدكتور عز الدين وتجدده هو واخبروه في أيام الموسم لا يعرفون لذة "كري من أجل سهرهم على صحة الحجاج. وكل سنة يستزيد الدكتور حمدي جانباً من التخصصات المالية لاجل اتمام تدابير صحية جديدة، وفي هذا الموسم رأيت العربات في منى ترش الحوامض الطهارة، فكان لذلك أحسن وقع في النفوس.

وأما الجمد فتقاتل به الصحية كثيراً من الامراض ولا سيما الحمى وان كانت

تنهى عن الإفراط في شرب الماء المذاب من الثلج . فثلج إذا اقتصد في شربه روح للأرواح ، وشفاء للملتاح ، في مثل الحجاز - حاشا الطائف وجبالها حيث لا لزوم له ألبنة - وكنت هممت بنشر رسالة اسمها « قطف الثلوج ، في وصف الماء الثلوج ، بجوار البيت المحجوج » أصف فيها محاسن هذا الماء في مكة أيام القيظ وأجعلها مقدمة للاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

ونعود إلى حديث الماء في مكة فقد سمعت أنهم حفروا فيها في محلة الشهباء فعمروا على قني قديمة عدملية تحت الأرض وعلى مياه جارية وأخرى مطمورة، ولعل الحكومة السعودية تتابع الحفر في هذه المحلة فتنشر هذه المياه من قبرها ولعلها تهتم بإضافة مياه من وادي فهان إلى عين زبيدة . ولكن هذا العاجز يرى أن كل هذه الجهود لا تنفي عن مشروع آخر لا بد منه للبلد الحرام والمشاعر العظام وهو احتفار الآبار الارتوازية

ان مكة اليوم أصبحت لا تكفي بسد حاجتها من جهة الشرب ولوازم البيوت ولو قاض فيها الماء فيضانا يعني الحاج والسكان عن شراء الماء بالدرهم بل مكة محتاجة إلى مياه تكفي لرش طرق وسقيا حدائق بلدية واحدار شلالات من مرتفعات مكة الكثيرة، وان مكة بعد اليوم لمحتاجة إلى ري الشجر فضلا عن ري البشر. ذلك ان فصول مكة الاربعة تنحصر في فصلين : أحدهما الشتاء وهو في غاية اللطف وكأنه فصل الصيف في اعلى لبنان . والثاني فصل القيظ المصادف مايسمونه باشهر السرطان والاسد والسنبلة، وهو فصل قد تصعد فيه الحرارة في الظل بميزان سنتيفراد إلى الدرجة ٤٥ والى ٤٩ وفي الليل يتعذر النوم حتى على سطوح المنازل . فان الذي يبقى لاصقا بتلك الصخور من لعاب الشمس يكفي لتسخين صفحة الليل إلى أن ينبليج الصبح . وان اليوم الذي تكون فيه الحرارة ٣٨ او ٣٩ يعده المكيمون معتدلا ويقولون « اليوم براد » فاذا نزلت الدرجة إلى

٣٥ قولوا « براد بالحليل » بفتح فسكون أي « برودة زائدة » وقد تأتي في هذه الاشهر الثلاثة أيام وليال مقبولة الا ان هذا من النادر الذي لا يعتد به .
 فالحج الشريف يصادف على مدة ستة أشهر فصل القيظ الذي فيه حر شديد وحر أشد هو حر السمرعان والاسد والسنبلة . وهذا لا يطيقه إلا اهالي خط الاستواء والتكرارة ومن هم في ضربهم . فلما حججاج مصر والشام والمغرب والاناضول والبلقان وتركستان وشمالى فارس وافغانستان وشمالى الهند فانهم يتطوقون من هذا الحر عذابا واصباً . وقد شاهدت علماء من العراق فمأتمهم عن نسبة حر العراق إلى حر تهائم الحجاز فقالوا ان حر الحجاز أشد . وأكثر من يموت من الحججاج في المواسم المصادفة لفصل القيظ انما هم من حججاج الشمال ، وذلك بضربة الشمس . وأكثر ماتصيبهم هذه الضربة في عرقات حيث يجب أن يكونوا مكشوفى الرؤوس . فليتأمل التأمل في قضية الحسر عن الرأس في عين الشمس عند ما تكون درجة الحرارة في ظل الخيمة ٤٨ بميزان سنتغراد . ومع انه يجوز للحجاج اتقا للضرر ان يستظل بمظلة عالية فوق رأسه فتجرأ أكثر الحججاج يتورعون عن ذلك ابتغاء زيادة الاجر والثواب وعملا بان الاجر على قدر المشقة . وهم ينسون ان الله نهى عن اتقاء الانسان بيده إلى التهلكة ، وان احتمال المشقة ان كان فيه أجر وثواب ، فالتهور في الهلكة ليس فيه اجر ولا ثواب ، بل يكاد يكون انتحارا والانتحار ممنوع حتى في العبادة . ان الانسان لا يجوز له أن يهدم بنية الله تعالى ابتغاء مرضاة الله تعالى الذي لا يرضى بذلك منه . وانه ليس في الشرع الاسلامي من يجيز للمسلم أن يضر بجسمه ضرراً يئامتها حقاً ولو في سبيل التعمد . فعدم الاستظلال بمظلة عند ما تكون درجة الحرارة كما وصفنا نراه مخالفاً لروح الشرع (١) ومن باب

(١) قد احتاط الأمير في قوله هذا ولو قال لنص الشرع لم يكن مخطئاً ، فالتلو في الدين منهي عنه ولو لم يكن فيه ضرر بدني محقق ولا مرجح ولصوص الكتاب والسنة في ذلك كثيرة . والأفضل للمحرم أن يضحى (أي يبرز للشمس) إذا كانت الشمس لا تضره ، فان خشى الضرر كره له ، فان تحققه بالتجربة أو بقول طبيب يمتد صدقه حذر عايه ووجب الاستظلال ، وكتبه مصححه

طلب الزيادة والوقوع في النقصان

ان لهنود الهندوس الذين يرون في فصال النفس عن هذه الحياة الدنيا رجى منها إلى الروح الكلية التي الانحاد بها أعلى درجات السعادة عندهم يقصدون الهلاك ويستعدون العذاب، ويرون في المحن سبكا للنفوس وتصفية لها كما يصفي الذهب الابريز بالنار. فتجدهم في عبادتهم ينزعون إلى الموت نزوعا. ولكن الشرع الاسلامي خال من هذه العقائد وهو شرع دنيا واخرى، وكما انه نهى عن الافراط في حب الدنيا نهى عن الافراط في كرهاها. وان كان الاسلام انتدب المؤمن إلى عزائم هي قوام الرجولية والانسانية فقد أوجب عليه القيام بها ما لم يتحقق منها عليه ضرر او خطر. وان الموطن الوحيد الذي حيب فيه القرآن احتقار الموت هو موطن الجهاد حيث يموت البعض لحياة الكل، ولان الامة التي يعز على أفرادها أن يموتوا لا يمكنها أن تميا. فلهذا قل تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالشهادة انما وعد الله بها الذين يموتون في الآب عن بيضة الاسلام، وفي صد العدو عن أن يستذلهم ويستعبدهم، ولكنه لم يعد بها الذين يموتون من ضربة الشمس في عرفات او منى لانهم أبوا أن يتقوا لهيب حرارتها بمقابلة. فتحمل المشاق في القيام بمناسك الحج واجب وفيه تمحيص للذنوب ولكن أوجب من ذلك الوقوف فيه عند المد الذي لا يؤذن بالخطر. وكان حقاً على العلماء أن يمطوا هذا المعنى حقه في الدروس التي يلقونها في الحرم أمام الحجاج المتواردين فان قتل النفس في العبادة أشبه بان يكون منزعا هنديا من أن يكون منزعا اسلاميا.

على ان منع جميع الحجاج من مثل هذه الامور مع كثرة العامة بينهم سيبقى متعذراً. فكان الاولى أن ينظر في امر عرفة ومنى وان تقلبا عن حالتها الرملية

الصحراوية الحاضرة . فينبغي أن يبادر إلى حفر آبار ارتوازية في طول صحراء
عرفة وعرضها حتى تفيض من تحت الارض المياه إلى ما فوق الارض ثم تبني
القنوات والصهاريج وتغرس حفافها صفوف الاشجار والرياحين، فتهدل هناك
الاعضان، وتتدلى الافنان، وترف الظلال، ويتسلل الزلال، فتخف حرارة الشمس
ويجبأ الحجاج في مثل هذه الايام العصبية إلى ظل ظليل ، وهواء بليل . فتكون
درجة الحرارة تحت فيتان الدوح ادنى منها في الشمس بنحو عشرة درجة، ويصير
الحاج إذا تعرض للشمس قادراً أن يفيء إلى الظل . وقد يجد القاريء هذا الفكر
خيالاً، ويصعب عليه أن يرى في تلك الصحراء حياضاً وجناناً، ورواحوراً بحاناً، وهذا
كله خطأ في خطأ او استخذاء في المهم .

فلاوربيون احتلوا بلدانا كثيرة من افريقية وآسية هي في الحرارة مثل
مكة، ومنها ما هو اشد حرارة من مكة ، وترى هذه البلدان الآن - بفضل العلم
والفن والدأب واثبات - غير ما كانت من قبل ، قد بدلت فيها الارض غير
الارض ، وقد خفت فيها الحرارة درجات عما كانت بما ادالوا اليها من مياه ،
وما غرسوا من أشجار وما احدثوا من مروج خضر وما أزالوا من غبار ،
وهكذا صارت قابلة للسكنى وصار كثيرون من الاوروبيين يقيمون فيها
بالسهولة ، وذلك انهم سألوا العلم فأجابهم ، واستدروا ضرع الفن فجاد عليهم
واعتصموا بجبل اثبات فأوردتهم اثبات نباتا ، وتعلموا على الطبيعة وخففوا
بأسها ونعموا حرشتها، ونحن باقون على ما كنا عليه في القرون الوسطى او قريب
من ذلك ، نجد كل تنوير بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وننسى ان من البدع بدعا
مستحسنة لا بد منها ، وان الضلالة كل الضلالة هي الجلود على التمديم الذي لا قوة

له إلا حكم العادة، ولا كتاب يأمر به ولا سنة (١) وان لم يبق لنا عذر من قبل الدين والعرف رجعتنا نلتبس لانفسنا المآذير من عدم اجابة الطبيعة نفسها إلى ما نريد واجيب - بشأن عرفة - بان صحراءها رملية وانها بجذاء جبال عالية وكل من رآها يحكم بان في باطن أرضها مياه، لا بل فيها آبار قديمة مسموطة تدل على وجود المياه، فاعلينا إلا أن نجرب عملية الآبار الارتوازية في عدة مظان منها، فان رأينا الارض لم تبض بالماء في كل ذلك السهل الا فيصح تركنا المشروع من أساسه . ولقد بلغني ان الملك ابن سعود - أيده الله ووفقه إلى كل خير - قد أذن لانا من الهولانديين أن يجربوا حفر آبار ارتوازية بين جدة ومكة، فشكرت لجلالته هذا الاذن، ورجوت أن تثمر هذه التجربة بما ينشط الملك على الامر بالحفر في مواضع كثيرة من هذه البلاد من جملتها عرفة والمزدلفة ومنى . فالله قد جعل من الماء كل شيء حي في الاقاليم الباردة، فكيف في الحجاز والارض الرملية التي مثل عرفة؟ هي أسرع نباتا وأيدر إلى الخضرة، فاذا جاءها الماء لم تكن إلا سنة واحدة حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وقد يؤتى من البلاد الحارة كهند والجاوى بأشجار سريعة البسوق، ورياحين باكرة السموق، لا تمضي سنوات حتى ترى فروعها في السماء، وأغصانها لاحقة بالارض، فتقلب عرفات من هذه الغبرة الباسرة، إلى الخضرة الناضرة، التي لا تضر شيئاً بمناسك الحجاج، بل تزيدهم من الفرح والابتهاج

«١» قوله (ص) «كل بدعة ضلالة» مراده به البدعة في الدين نفسه كما يدل عليه السياق . وقول العلماء ان البدعة تنقسم الى حسنة وسيئة مرادهم به ما يتجدد للناس من المصالح والمنافع العملية والعملية ودليلهم عليه حديث «من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء» رواه مسلم

عرفة في القديم

وخبر عبد الله به عامر به كبريز

ان في صحراء عرفة آباراً معطلة احتفرها آباؤنا وأهملناها نحن ، فذنت على ان الابناء قصرُوا عن شأو الآباء ، وان الابناء انما ارتفقوا بما عجز الحدثن عن طمسه من مآثر الآباء ، ولكنهم لم يزيّدوا عليهم شيئاً ، بل هم لم يصلحوا ما عطاله الدهر من حلاها . والحال ان الآخر حقيق بان يزيد على الاول ، وان الذي يتسنى للخلف بما استفادوه من عبر الدهر التراكمة ، واستثمروه من اتجاريب المتكررة ، لم يكن يتسنى للسلف ، فنحن ترائنا بعكس التعادة نعجز في عنفوان النسبية عن مبارزة ما حققته أجدادنا في حداثتها . وايت شعري لو لم تكن زبيدة امرأة هارون الرشيد جرت مياه نهمان إلى عرفات ، من يقول ان رجلاً من مسلمي اليوم فضلاً عن امرأة تسمو همته إلى القيام بشروع كهذا ؟

فعرفت التي هي ماهي اليوم من التحولة واليبوسة ، والتي كان الح جيضاً فيها إلى الموت لولا قناة عين زبيدة المارة بها قد كانت في الماضي ذات رياض وغياض ، وسقايات وحياض ، انظر ما في معجم البلدان بشأن عرفات فهو يقول :

« قل ابن عباس حد عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبهها إلى قعر آل ملك ووادي عرفة . وقل البشاري فرعة قرية فيها زارع وخضر ومبطن وبها دور حسنة لاهل مكة ينزلونها يوم عرفة والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطى (أي متدان إلى الارض) وبها سقايات وحياض وعيد قد بني يقف عنده الامام الخ »

وقد ذكروا في أخبار عبد الله بن كبريز العبشمي الذي كان من شجعان

الصحابة وأسود فتوحات الاسلام وهو الذي فتح فارس وخراسان وسجستان وكابل (نضم الباء) « انه اتخذ النجاج (١) وغرس فيها فهي تدعى نجاج ابن عامر واتخذ القريتين او غرس بها نخلا وأنبط عيوننا تعرف بعيون ابن عامر بينهما وبين النجاج ليلة على طريق المدينة وحفر الحفير، ثم حفر السمينة، واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجبا ليعملوا فيه، فماتوا فتركه، واتخذ بعرفات حياضاً ونخلاً وولي البصرة لعثمان بن عفان فاحتفر بها نهريْن وحفر نهر الابلّة. وكان يقول: لو تركت لخرجت المرأة في حدايتها على دابتها ترد كل يوم ماء وسوقا حتى توافي مكة. وكان علي بن ابي طالب يقول عنه انه فتي قريش مات سنة ٥٩ هـ»

فالاسلام ولا سيما العرب في أشد حاجة اليوم إلى رجال كعبد الله بن عامر ابن كرز العبسي الفاتح الماتح المعمر المثمر الذي كان مغرماً بالعمارة حيث حل وأبنا ارتحل. وناهيك بمن يقول فيه أمير المؤمنين كرم الله وجهه انه «فتي قريش» (٢) ولنا الرجاء في معالي همم جلالة ابن سعود الذي حضر طائفة كبيرة من الاعراب وبنى لهم «الهجر» (جمع هجرة - وأصل معنى المهاجرة في العربي النزوع من البادية إلى الحضرة (٣) وحملهم على الحرث والزرع ولا يزال يشوق الناس إلى الحضرة - ان تنصرف تلك الهمم السماء، إلى استنباط المياه، واحتفار الآبار

(١) هو بالكسر ككساب اسم قرية

(٢) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته من الاصابة: ولد على عهد النبي (ص)

وأنى به اليه وهو صغير فقال «هذا اشبهنا» وجعل يفلح عابده ويؤذنه فجعل يتبعه ريق النبي

(ص) فقال النبي (ص) «انه لمسمي» وكان لا يهالج أرضاً إلا ظهر له الماء حكاه ابن

عبدالبراهم قال وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها العين

(٣) أي ثم عم استعماله في كل تحول من مكان سكنى إلى غيره ومنه هجرة

النبي ﷺ واصحابه (رض) من مكة إلى المدينة. ولفظ الهجرة اسم للمهاجرة

واسم المكان «مهاجر» بفتح الحيم وزن اسم المفعول، وفي نجد يسمونه هجرة

الارتوازية في الصحارى المحرقة ، حتى يعود بها الغامر عامراً ، واليابس ناضراً ،
والموات حياً ، والجناد غصاً طرباً

ولنذكر شيئاً عن البتاع التي عمرها الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز.
فالنباج كما نقله ياقوت عن أبي منصور نباحان أحدهما موضع على طريق البصرة
يقال له نباح بني عامر وهو بجنداء قيد ، والآخر نباح بني سعد بالقرينين ، وقال
غيره : النباح لحجاج البصرة ، وقيل النباح بين مكة والبصرة للكريزيين ، وقال
عبد الله انسكوبي : النباح من البصرة على عشر مراحل ، وقال النباح استنبط
ماه عبد الله بن عامر بن كريز شق فيه عيوننا وغرس نخلاً وولده به ، وساكنه
دهظه بنو كريز ومن انضم اليهم من العرب « انتهى

وأما الحفير فانه اسم لاكثر من عشرين بثراً ومنزلاً في بلاد العرب ، هذا
على تقدير انه بوزن فعيل بفتح الاول وكسر الثاني ، وأما اذا كان لفظه مصغر حفر
أي بضم الاول وفتح الثاني فهو اسم لمازل عدة أيضاً (١) وقال الهصبي اذا خرجت
من البصرة تريد مكة فتأخذ بطن فلج فاول ماء ترد الحفير . قال بعضهم :
وتقد ذهبت مراغماً أرجو السلامة بالحفير
فرجعت منه سلماً ومع السلامة كل خير

وأما السمينة - بضم الاول وفتح الثاني على التصغير - فهي المعجم انه أول منزل
من النباح للقاصد إلى البصرة . وأما قباء التي أتخذها عبد الله بن عامر بن كريز

(١) قال في المصباح : والحفر بفتحين بمعنى الحفور مثل المدد والحبط والنقض
بمعنى المدود والحبوط والمنقوض ومنه قيل للبئر التي حفرها ابو موسى بقرب البصرة
« حفر » وتضاف اليه فيقال : حفر ابي موسى وقال الازهري : الحفر اسم المكان
الذي حفر كخندق أو بئر والجمع احفار مثل سبب وأسباب ، والحفيرة ما يحفر في
الأرض فميلة بمعنى مملولة والجمع حفائر والحفرة منها والجمع حفر مثل غرفة وغرفاه

قصرًا فلا نظنها قباء التي في المدينة على مسافة ميلين منها على يسار القاصد إلى مكة والتي فيها المسجد الذي أسس على اتقوى من أول يوم، ولكنني أظنها قباء التي يقول عنها ياقوت في معجمه أنها «موضع بين مكة والبصرة» والدليل على ذلك أن عبد الله بن عامر ولي البصرة لعثمان بن عفان فأكثر من البناء والحفر والغراس على الطريق المؤدية من البصرة إلى مكة، فالنباج والحفير (بضم ففتح على التصغير) والسمنية (بالتصغير أيضاً) كلها على هذا سمت. فالاشبه أن تكون قباء التي بنى عبد الله فيها صرحا هي قباء التي موقعها بين مكة والبصرة. ولقد أورد ياقوت بعد ذكره قباء التي بين مكة والبصرة أبياتا للسري بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويم بن ساعدة الانصاري، مما يؤم أن هذه الابيات قيلت في قباء هذه والاولى هو ان تكون قباء المقصودة في شعر السري بن عبد الرحمن الانصاري هي قباء المدينة المنورة لان الانصار كان لهم مساكن فيها، ولأنه يصف فيها ماء بئر عروة الشهيرة بالعدوبة والتي يقال انه كان يحمل من مائها إلى هارون الرشيد وهو بالرقّة. وبئر عروة هي في ضواحي المدينة كما هو معلوم، وعندها بستان لطيف، وقد قسم الله لي النزهة «او القيلة كما يقول أهل الحجاز» عند هذه البئر منذ خمس عشرة سنة قبل الحرب العامة بقليل، ووجدت من خفة مائها وحلاوته ما تذكره هذه المرة عند شربي من بئر جعرانة التي في ضواحي مكة. أما الابيات التي استشهد بها ياقوت فهي هذه:

ولها مربع ببرقة خاخ ومصيف بالقصر قصر قباء
كفنونني إن مت في درع أروى واغسلوني من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردة الصيف سراج في الليلة الظلماء

وخاخ هي روضة خاخ بقرب حمراء الاسد من المدينة كانت من الاحياء التي حماها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون يقال انها في حدود العقيق بين الشوطير

والناصفة . وقد أكثر من ذكرها الشعراء ، وكانت فيها منازل لأئمة من آل البيت وغيرهم من أعيان المدينة ،

وأما نهر الابله الذي يقال ان عبدالله بن عامر شقه فهو نهر بالبصرة وهو إحدى جنان الدنيا الاربع بحسب قول بعضهم وهي غوطة دمشق ، وصغد سمرقند ، وشعب بوان ، ونهر الابله . وحكي ان بكر بن النطاح مدح ابا دلف العجلي بقصيدة فأثابه عليها عشرة آلاف درهم فاشترى بها ضيعة بالابله ثم جاء بعد قليل وأنشده :

بك ابتعت في نهر الابله ضيعة عليها قصير بالرخام مشيد

إلى جنبها أخت لها يعرضونها وعندك مال للهبات عتيد

فقال ابو دلف : وكم تمن هذه الضيعة الاخرى فقال : عشرة آلاف درهم فأمر ان يدفع ذلك اليه فلما قبضها قال له ابو دلف « اسمع مني يا بكر ان إلى جنب كل ضيعة أخرى إلى الصين وإلى مالانهاية له فاياك أن تهينني غداً وتقول إلى جنب هذه الضيعة ضيعة أخرى فان هذا شيء لا ينقضي » خاف ابو دلف أن تصير ضياع بكر ابن النطاح مثل مستعمرات الانكايز كل واحدة تجر جارتها وهلم جرّ .

المناهل في مكة

وذكر الامراء على الاوقاف التي وقفها السلف

نمود إلى عرفات التي كنا فيها ، وإلى عبد الله بن عمر بن كريب المغموم كان بالعمارة وإحياء الارضين فنقول :

قال ابن حوقل - صاحب كتاب المسالك والممالك الذي عاش في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وهو من أشهر جغرافيين العرب « وعرفة ما بين وادي عرنة إلى حائط بني عامر (الحائط البستان) إلى ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الإمام وإلى طريق حصن ، وبحائط بني عامر نخيل ، وكذلك في غربي

عرفة بقرب المسجد الذي يجمع فيه الامام بين صلاتي الظهر والعصر في يوم عرفة ونخل الحائط والعين تنسب الى عبدالله بن عامر بن كريز — الى أن يقول — وليس بمكة ماء جار إلا شيء قد أجري اليها من عين قد عمل فيها بعض الولاة واستتم في أيام المقتدر ، ويمتدح (اي يمتد) إلى مسيل قد جعل إلى باب بني شيبه في قناة عملت هناك ، وكانت أكثر مياههم من السماء إلى مواجن بها كانت عامرة فخربت باستيلاء التوليين على أموال أوقافها، واستثنارهم بها، وليس لهم آبار تشرب وأطيبها زمزم ولا يمكن الادمان على شربه »

هذا ما يقوله ابن حوقل ، ولا أعلم هل يقصد بهذه العين قناة زبيدة أم عيناً غيرها (١) وكنت أود لو سألتنا عن ذلك القريشي العريق والعبدري العتيق الشيخ عبد القادر الشيبى زعيم بني شيبه سدنة البيت الكريم ، ومقام ابراهيم ، والذين اليهم مفاتيح الكعبة بمحکم الذکر الحکيم ، فان الشيخ الشيبى من أعلم الناس بخطط مكة، وأهل مكة أدرى بشعابها ، فكيف إذا كانوا من أعرق بيت فيها؟

وأما (المواجن) فالظاهر انه يريد بها ما نسميه اليوم (بالسبل) ولكننا لم نجد في متون اللغة المواجن بهذا المعنى وإنما (المواجن) جمع (ميجنة) وهي مدقة القصار كما لا يخفى . نعم يوجد في اللغة (ماء مجان) أى كاف مستفيض . ويوجد (مجان) أى بدهن ممن . وكلاهما يطابق هذا المعنى ، ولكن على هذا يكون ابن حوقل عدل عن (فعال) إلى (فاعل) ولو أن المؤلف ذكرها مرة واحدة في كتابه لكننا نقول لعلها من غلط النسخ والطبع ، ولكنها وردت في كلامه مراراً بالجمع (مواجن) وبالمفرد (ماجن) وكل ذلك بالنون . وأما الأزرقى أبو الوليد محمد صاحب كتاب [أخبار مكة] فقد أوردتها باللام فهو يقول عند ذكر العميون التي أجريت إلى الحرم (ومنها) حائط خرمان وهو من ثنية اذاخر إلى بيوت جعفر العلقمي

(١) الراجع انه ينسبها إذ لم يكن ثم غيرها يطلق الكلام عليها دونها

وبيوت ابن أبي الرزاق، وماجله قديم إلى اليوم وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر وكانت له عين ومشروع يرده الناس» ويقول في موضع آخر «وكانت عيون معاوية تلك قد انقطعت وذهبت فأمر أمير المؤمنين الرشيد بعيون منها فعملت وأحييت وصرفت في عين واحدة يقال لها (الرساد) تسكب في الماجلين اللذين احدهما لامير المؤمنين الرشيد بالمالا ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام وفي القاموس: الماجل كل ماء في أصل جبل أو واد. وقال يزيد في التاج: ان بعض ثقات اللغة رواه بدون همز وان الآخرين تحفظه بالهمز. وجاء في القاموس ما هو أصح وهو ان الماجل موضع بباب مكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه واستدرك صاحب التاج في هذه المادة بقوله: وفي حديث أبي واقد كنا نتماقل في ماجل او صهرج، قل ابن الاثير هو الماء الكثير المجتمع، وقيل هو معرب والتماقل اتعاوض في الماء

وبالاختصار الماجل هو في مكة مايسمونه اليوم (بالبازن) وهي Basin الانكليزية، او Bassin الافرنسية. وهكذا الالفاظ مثل سائر الاشياء تصيها وتموت بأجال متدرة، ففي دور من الادوار يقولون حوض، وفي آخر بازان الخ والمعنى واحد، واعلمهم في زمان ابن حوقل (نحو سنة ٣٣٠) كانوا حرفوا هذه اللفظة من انلام الى النون كما قالوا في جبريل جبرين (١) وأما في زمان لازرقى نحو المائتين للهجرة) فقد كانوا يلفظونها باللام

«١» لاشك في تحريف الكلمة وان أصلها باللام والارجح ان فلفظها الناسخ ويحتمل أن يكون ابن حوقل نفسه فقد قال صاحب كشف المرون انه لم يضبط الاسماء

سوء تصرف المسلمين في اوقاف سلفهم

وأكلها بالباطل

وأما الذي لم نجده - مع لاسف - تحرف ولا تزيير فهو اكل أموال الاوقاف حتى التي على حياض الماء فقد رأيت كيف ان ابن حوقل يذكر خراب تلك المواجن أو المواجل (باستيلاء المتولين على اموال اوقافها واستئثارهم) وهذه شئنة قل أن يخلو منها بلد من ابدان الاسلام ، وبسببها تعطلت هذه البلدان من الحلي التي تجدها في بلاد الافرنج . فآباؤنا لم يقصروا في حبس العقارات الدارة على كل ما يخطر في البال من طرق الانسانية ، ووسائل المدينة ، ولكن اختلف (إلا من رحم ربك) خانوا امانات السلف ، وخاسوا بهدم وتركونا خجالي أمام الاجانب في مساكننا ومدائننا . وكل ما اورده الشرع من الاعظام والاكابر لكبيرة الاكل من الاموال المرصدة للخير العام ، بل ما قذف به من الصواعق على من يستبيح لنفسه الغلول منها ، قد ذهب سدى . فالوقف لا يمضي عليه قرن أو نصف قرن حتى تتأورد الأيدي بالاكل والبلع (١) وكثيراً ما يندرس ولا يبقى إلا ذكره في الكتب او على ألسنة الناس ، يا كلون في بطونهم ناراً ولا يخافون الله ولا يشعرون . وباليت شعري ماذا تنفع صلاة من يفعل ذلك ؟ وماذا يفيد صيامه وتلك النار في بطنه ولهذا تهاجم كثير من المتورعين والمتحققين بالشرع الشريف النظارة على الاوقاف ، وأخذت مقابل عمله من ربهما . قال الامام خير الدين الرملي رحمه الله :

بورك لي في المر والمسحاة فدا هو الموجب للجهات

وهي لمن قام عليها صدقة وللذي فرط نار محرقة

(١) احفظ عن أخي حمدي السيد احمد أبي الرical وكان يعني بالتاريخ : في كل

مائة سنة يتحول وقف طرابلس ملكا ، وملكها وقفاً

أهمية المياه في الحجاز

أعود الى ذكر المياه والعيون بمكة . وقد يقال لي : لماذا هذا الاسهاب كله في قضية الحياض والفني والمواجل والبارانات وفيما علمته زبيدة وفيما عمله عبد الله ابن عامر بن كرز وغيرهما من المهرين والمنظمين الخ والجواب : من لم يعرف الحجاز لم يعرف قيمة المياه في الارض واذا كانت آية (وجعلنا من الماء كل شيء حي) صحيحة في اسوج وتروج ، لا يل في القطب الشمالي حيث الثلوج عامة للاقطار طامة الانظار ، فلا تكون هذه الآية الكريمة صحيحة في قطر مثل الحجاز تصعد درجة الحرارة فيه بالصيف الى ٤٧ و٤٨ بميزان سنتغراد ، وكثيراً ما يعز فيه المطر فتضرب من ذلك عيون كانت جارية ، وآبار كانت دافقة ، ورفسوان كانت دائرة ، وتصوح جنان كانت بهجة للناظرين ، وتموت شجار كانت آية الله بابل ، وتصيح لريض التي كانت اشبه بالمرسد قحلة غرباء مربدة كأنها فيافي بني اسد .

ان شأن الحجازي هذا المعنى هو غير شئ من سائر البلاد ، فالماء فيه يجوز أن يوزن بالمثل والماء فيه هو لذهب ، والماء فيه هو الماس ، ونقط الخيش فيه هي الآلية . وبالجملة فالماء فيه هو الحياة نفسها ، وهي اغلى من كل هذه . ولو ألف حجازي قاموس لغة وعند تعريف الحياة قل انها الماء او عند تعريف الماء قل انه الحياة لسكن جديراً .

ورب قال : ان ذلك لا يخص احجاز دون غيره بل الماء هو الحياة في كل قسمة الكرة . والجواب : انه في سائر البلاد لا تبدو من الماء هذه العزارة والكثرة التي تبدو في احجاز ، وايضا تحولت نجيبه ، بردياء وودية سائلة ،

وأحيانا تجد انهاراً مثل البحار، وبحيرات تسير فيها السفن الكبار . هذا والامطار في بعض البلاد تسح في اشهر الشتاء سحاً لا يخشى معه ظمأ ولا قحط ، وقد تشح آوثة لكن سحاً لا تنضب به العيون ولا تجف الآبار، وإنما تنقص نقصاً قد تنقص منه التمرات وتذبل الاشجار ، وتذوي الزروع ولكن لا يقتلها العطش هذا القتل الوحي الذي يقتلها في الحجاز . ومن بلاد الله ما الامطار فيها لا تكاد تقلع لاصيفاً ولا شتاء فتجدها دائماً زمردة خضراء

وأما الحجاز فالغيث فيه قلما يعمواً أكثر ما ينزل نقضاً (جمع نقضة بضم أوله وهي المطرة تصيب القطعة من الارض وتخطيء القطعة) فإذا اصابته النقضة ارضاً زهت تلك السنة واتمرت وعاش أهلها . وإذا اخطأتها أو جاءت بها رذاذاً يبس كل ما هناك من زرع ، وعطش كل ما هناك من ضرع ، ولم يبق امام أهلها إلا التحول عنها الى ارض أخرى يكون الغيث قد سقاها . ولا يعودون الى الارض الاولى إلا اذا اصابها الرحمة ، وقد تكون الارضات متجاورة ، وانك لتجد هذه زاوية ناضرة ، وهذه على مسافة ربع ساعة منها غامرة باسرة ، وذلك لأن الغيث اصاب هذه واطأ هذه

وصادف انه لما كنا بعرفه جئنا ، نا عارض صحبته رواعد (١) بينا نحن مقيضون من عرفات الى الشعر الحرام وكان المطر على الجبال أشد منه على الاماكن التي كنا فيها . وبعد ذلك بثلاثة اشهر كنا نتنزّه في جبال الطائف فقصدنا قرية « الهدا » الموصوفة التي يفضلها كثيرون على الطائف بحجة انها أعلى مكاناً وأفسح منظراً . وهي أعلى من الطائف بنحو مائتي متر . تملو الهدا عن سطح البحر نحو مائة

(١) العارض السحاب الذي يمرض في الافق قبل أن يطبق السماء وحده بعضهم بما يمرض في قطر من أقطار السماء من العشي ثم يصبح وقد حبا واستوى ، والرواعد السحاب التي فيها رعد . قال في الاساس : سحابة راعدة وسحاب رواعد

١٨٠٠ متر فلما دخلنا القرية لم يبق الا قليل حتى تقول انها خاوية على عروشها :
 وجدنا بعض أهلها نازحين الى حيث يقدر ان يشربوا والبعض الآخر يردون
 المناهل البعيدة . ووجدنا تلك البساتين قد علتها غيرة الموت ، فمنها ما صوح شجره ،
 ومنها ما مات موتا لاحياة بعده . وقصدنا الى ساقية كانت مشهورة بغزارة المياه
 فظننا الى قعرها فوجدنا الذي فيها قد يكفي لشربنا فجلستنا ثقيل تحت شجرات
 هناك وزعنا بالدلو حتى سقينا نحن وربنا ، ولكن الانفس ارضها منظر الاشجار
 المحزن فلم نمكث الا ساعتين حتى فارقنا الهدا مهرولين الى واد قريب منها يقال
 له وادي الكحل (بضم ففتح مع التشديد) وقد علمنا من أهل الهدا ان العارض
 الذي جاء الحاج يوم عرفة لم يكن ممطرم ولقد امطر جيرانهم على درجات متفاوتة ،
 فمنهم من رزقوا ثمرات وغللات وافرة ، ومنهم من اتهم غلة متوسطة ، ولكن الهدا
 كانت محرومة مغمورة تماما هذا الصيف كله وبقيت في هذه الاواء ليس فيها
 نبت أخضر إلا الصير حتى دخل فصل الخريف (وفي الحجاز يقولون له الشتاء ويقولون
 للشتاء الذي عندنا الربيع) فجاءنا الخبر ونحن في الطائف ان الهدا سقيت وأغيثت
 ورجعت إليها روحها .

وليس في الحجاز أوحى من أخبار المطر ، فهي لشدة غزارة القطر تسري
 من واد إلى واد ومن نجح الى نجح بسرعة اللامسكي ، وتراهم من شدة ترقبهم
 للامطار يعرفون من مواقعها بمجرد النظر مالا نعرفه نحن في بلادنا ، فاذا تلبدت
 السحب في افق من الآفاق أو قصف رعد أو أمض برق قالوا لك : هذا في
 ارض عسير أو في بلاد ثمالة أو في الشفا أو في بلاد هذيل وهلم جرا ، وقد تكون
 المسافة ساعات بل أياما وتجدهم يخمنون ويصيرون . وبالجملة سكان البوادي أقرب
 الى الطبيعة الفجة وآف لها ، وأعرف بالسحب ومساقط العيث وبالارض
 وأنواعها والأنراب وخواصه وروائحها ، والنبات وحياته ، والنجوم ومطالعها ومغارها
 وما أشبه ذلك - من سكان الحواضر .

لذة الماء والخضرة في البلاد الحارة

(غيرها في البلاد الباردة)

ترى مما تقدم ان معارة واحدة في الحجاز تحيي وتميت ، وليس الامر كذلك في سائر البلاد التي تهطل فيها الامطار فتعم وان لم يصب هذه القطعة عارض ممطر هذه المرة أصابها مرة أخرى . نعم ان الودق في الحجاز — وفي جميع البلاد الحارة — أشد منه في البلاد الضاربة إلى الشمال ، وان مزنة واحدة في الاحياء لا تستمر أكثر من نصف ساعة فتسيل لها اودية بقدره ، وتجرف وتجحف ، وقد تذهب بالحيطان والبيوت ، وقد تغتال اقوافل والسواويل إذا جاتهم على غرة . ولكن طغيان المياه هذا لا يستمر الا ريثما ترفع القطعة ، فعند ذلك تنظر في الارض فإذا هي قد باءت ماءها ، وعاد ما كنت تراه نهراً هداراً قد نضب ماؤه ، وصحت سبأؤه ، وكأنه لم يمر من هناك ماء ، ولم تطر سماء . وفي مدينة الطائف واد شهر مذكور في الكتب يقال له اوج (إذا سال هذا الوادي شبعنا طائف ، ترسجاوره اخيرات وأفواناً ، ومع هذا لا يسيل في السنة كلها إلا مرة او مرتين ، وكل مرة ساعة أو ساعتين)

فمن أجل هذا كان الماء في الحجاز ثمن وأضامن في سائر الاقطار ، وكان ألد وأبهج وأعلق باقلب وأمرح للصدر ، وكان الماء في الحجاز يساوي الماء خمسين مرة في التمام ومائة مرة في سويسرة مثلاً . وكان الغصن الاخضر في الحجاز أحلى منه مائة مرة في أوربة . وكمن عين لو كنت في سورية ومررت على مشها لم أفد دفينة ولا فخرت ايها إلا كما أنظر إلى التراب ، فأما في الحجاز فقد كنت أقبل إلى جانبها ، وأحديق في قطرات مائها ، ولا ابرح أنحدث إلى الاخوان عن سدالة جربها ، وصفا لونها ، وكمن مرة جلسنا في الحجاز الى ثمد وأوشال ،

لا يمر في غير الحجاز على بال، فكنا نستعملها، ونتلذذ بالمقيل عندها، كالمو كنا على نبع الباروك أو نبع الصفا في جبل لبنان

لا جرم ان الامور في الغالب نسبية تغلو وترخص وتحسن وتسمح بحسب الزمان والمكان، وقد يلذ لك في الصيف ما يجده ثقيلاً في الشتاء، وترتاح في الاقاليم الحارة إلى ما تفر منه في الاقاليم الباردة، والثليج فاكهة الجروم، على حين ان النار فاكهة الصرود، وهلم جرا. ولذلك أراي أن تلذذ بالماء والظل والخضرة في الحجاز وفي الشرق كله اكثر مما أتلاذ بها في اوروبا لاسيما في القسم الشمالي منها. ففي اوروبا مياه تتدفق، وأنهار تهدر، وشلالات تتحدر، ولكن كل ذلك في جو لا ترتفع حرارته عن ١٥ او ٢٠ ميران سنتيفراد إلا أيا ما قلائل من السنة، وكل ذلك في جو مطير متلبد بالسحب اكثر السنة فأني لذة الماء الجداول والانهار الجارية على الارض حينما تكون المياه نازلة من السماء؟ وأية لذة يجدها الانسان في الظل الظليل والخرجات المتلطفة إذا كانت الشمس في الغاب محجوبة بالغمام؟ والماء البارد انما يولع به الخلق في بوارح القبيظ يتبردون به بالعمل والنهل والغسل والمجاورة. فأما إذا كان الهواء بارداً من أصله فمالك وللتبرد والابتراد؟

ان لانساز في مزاجه على التمدبل فتجده لا يعرف الراحة والهناء الا بتسليط العناصر بعضها على بعض حتى تصل الى درجة الاعتدال، فإذا أفرط به الحر لجأ الى الماء والثليج وأهوية الجبال، وإذا أفرط به البرد لجأ الى النار والشمس والصوف وأهوية السواحل. فما دام الانسان لا يشعر بالحرارة، فالهجة التي عنده للماء الزلال والظل والارج الاخضر والشجر المتلف لا تكاد تذكر باقياص الى الهجة التي عنده بها والسموم تهب والجوف يتلمب

فالجنات والعيون والانهار والاشجار انما جعلها الله نعمياً في البلاد الحارة والمعتدلة كجزيرة العرب ومصر والمغرب والشام والعراق وفارس وما في ضربها

ففي هذه الاقاليم تظهر قيمتها ، ويغالي المرء في ثمنها . ويلحق بهذا الضرب من البلدان ايطالية واسبانية والجزائر التي في البحر المتوسط وجميع جنوبي أوربة ولقد وجدت مرة في رومية في فصل القيظ فمررت منها الى بلدة تيفولي على مسافة ساعتين من رومية في سفح الجبل ، ونعمت من انهر العذب الفياض للنحدر من هناك ، وبشلالات ذلك النهر وبحيراته وحياضه بما لا أنساه طول حياتي ، وانما كانت درجة الحرارة البالغة ٣٤ هي التي توحى الي تلك المحاسن التي رأيتها على نهر تيفولي ، وتنطقني بهذه الفقر الشاعرة في وصفها

أثر السيدة زبيدة

من حيث قد تقرر ان الماء هو في البلاد الحارة والمعتدلة أحيا وأعذب وأبرد على الاكباد وأطيب أضعافا مضاعفة منه في البلاد الباردة فقد كان أعظم مايرزق به الانسان من الصواب والثواب، وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب ، هو تفجير الينابيع واسالة الجداول وتقريب الشارع في بلاد نظير الحجاز تقصد اليها الحجاج من الحار والبارد والرطب واليابس، بالالوف وعشرات الالوف ومئات الالوف زائداً إلى من فيها من السكان

فالمشروع الذي شرعته زبيدة بنت جعفر في هذا المشروع العظيم الذي فتحته لجيران البيت الحرام، ولتصاذه من جميع بلاد الاسلام، هو كما تقدم عمل قصر عن مثله الاولون والآخرون . وانظر إلى ماقاله ابو الوليد محمد الازرقى الفسائي في هذا الشأن وقد عاش في عصرها

« ثم كان الناس بعد في شدة من الماء وكان أهل مكة والحاج يلفون من ذلك المشقة حتى ان الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأكثر وأقل فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور، فأمرت في سنة أربع

وتسعين ومائة بعمل بركتها التي بمكة فاجرت لها عينا من الحرم (لا يقصد بالحرم هنا المسجد الحرام وإنما يقال حرم لمنطقة مخصوصة معينة حول مكة (١) كالأبجني) فجرت بناء قليل لم يكن فيه ري لاهل مكة وقد غرمت في ذلك غراما عظيما فبلغها فامرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيوننا من الحبل (أي من الارض الخارجة عن الحرم) وكان الناس يقولون ان ماء الحبل لا يدخل الحرم لانه يمر على عقاب وجبال، فأرسلت بأموال عظام ثم امرت من يزن عينها الاولى فوجدوا فيها فسادا فأنشأت عينا أخرى إلى جانبها وأبطلت تلك العيون فعملت عينها هذه بإحكام ما يكون من العمل، وعظمت في ذلك رغبتها وحسنت نيتها، فلم نزل نعمل فيها حتى بلغت ثنية « خل » فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل فامرت بالجبل فضرب فيه وأنفقت في ذلك من الاموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس حتى أجراها الله عز وجل لها وأجرت فيها عيوننا من الحبل منها عين من المشاش (جاء في معجم البلدان : المشاش بالضم قال عرام : ويتصل بجبال عرفات جبال الطائف وفيها مياه كثيرة اوشال وعظامم قني منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويصل إلى مكة) وأنخذت لها بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ثم اجرت لها عيوننا من حنين، واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السيل فصارت لها مكرمة لم تكن لاحد قبلها وطابت نفسها بالنفقة فيها بما لم تكن تطيب نفس أحد غيرها به فاهل مكة والحاج انما يعيشون بها بعد الله عز وجل.

ثم أمر أمير المؤمنين المأمون صالح بن العباس في سنة عشر ومائتين أن

(١) حرم مكة هو ما حرم الله فيه القتال والصيد وقطع النبات وعضد الشجر وله حدود معروفة من كل جهة بأعلام مبنية كالذي بين جدة ومكة وبين المزدلفة وعرفة، فمرفقات ن الحبل لا يحرم فيها الصيد على غير المحرم

يتخذ له بركا في السوفى خمسا لثلاثا يتعنى أهل اسفل مكة والثنية واجبادين (بالثنية) والوسط إلى بركة ام جعفر فأجرى عيننا من بركة ام جعفر من فضل مائها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب ابن يوسف في وجه دار ابن يوسف ، ثم يمضي إلى بركة عند الصفا ثم يمضي إلى بركة عند الحماطين ، ثم يمضي إلى بركة بقوهة سكة الثنية دون دار أوبس ، ثم يمضي إلى بركة عند سوق الحطب باسفل مكة ثم يمضي في سرب ذلك إلى ماجل ابى صلابة ، ثم إلى الملاجين اللذين في حائط ابن طارق باسفل مكة، وكان صالح بن العباس ما فرغ منها ركب بوجوه الناس اليها فوقف عليها حين جرى فيها الماء ونحو عند كل بركة جزورا وقسم لهما على الناس « انتهى

وقال ابن خلكان : « ام جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم هي أم الامين محمد بن هارون الرشيد، وكان لها معروف كثير وفعل خير ، وقصتها في حجها وما اعتمده في طريقها مشهورة فلا حاجة إلى شرحها . قال الشيخ ابوالفروج ابن الجوزي في كتاب الالقباب انها سقت اهل مكة الماء بمد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وانها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبال وتحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعمات عقبة البستان فقال لها وكيها يلزمك نفقة كثيرة فقالت أعملها ولو كانت ضربة فاس بدينار . وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الاولى ببغداد رحمها الله تعالى » انتهى

وأما ابن جبير الاندلسي وقد كانت حجته في سنة ٥٧٩ فانه ذكر زبيدة

في كلامه الذي يلي :

« فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصي عدده إلا الله عز وجل . ومزدلفة بين منى وعرفات من منى اليها ما من مكة إلى منى وذلك نحو خمسة أميال ومنها

إلى عرفات مثل ذلك أو أشرف قليلا، وتسمى المشعر الحرام وتسمى جمعا (قال الحريري في مقاماته :

وقلت لعاذلي مهلا فني سأختار المقام على المقام
وأنفق ماجمعت بأرض جمع واسلو بالحطيم عن الحطام

فلها ثلاثة أسماء . وقبها بنحو الليل وادي محسر، ومضت السنة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى لانه معترض بينهما ، ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله « أقول هذه الخمسة الاميال من عرفات إلى منى أخذت معنا أكثر من خمس ساعات من بعد المغرب إلى نصف الليل على اننا كنا في سيارة . وهذا مع سعة الطريق الذي هو أحيانا سهل افيح . ولا عجب فان نحو آمن مائتي الف نسمة كانوا مفيضين ذلك المساء في وقت واحد من عرفات الى مزدلفة فتمها قطر الجبال بالالوف بالآلاف، وعليها الهوادج ينحبل لرائها من كثرتها وارتفاعها وحركة الابعار من تحتها ان هناك مدينة سائرة على متون الاياتق . وهناك الركبان والفرسان، والمشاة على الاقدام، وبالاختصار محشر من الخلائق . وقد يبلغ الحاج في بعض الاعوام ثلاثمائة الف وأربعمائة الف وجميعهم لابد لهم من الاقاضة في وقت واحد . وقد يتأخر حجاج الشيعة ليلة أخرى ان لم تثبت عندهم هم رؤية الهلال وبعضهم يرى انه يسعهم ماوسع أهل السنة . وعندني ان الاولى ترك الناس وحرمتهم في أمور كهذه، إذ ليس في ذلك مخافة للشرع وإنما هو مجرد اجتهاد لا غير (١)

(٢) اما زكهم وشأنهم فذلك ما جرت ولا تزال تجري عليه الحكومات من أهل السنة — واما هدي أئمة السلف وهو اللائق بالوحدة الاسلامية فهو عدم الخلاف واجتناب التفرق في الشعار الاسلامية العامة وذلك بأن يترك امر اثبات اول ذي الحجة الى حكومة الحجاز ولا يحاول الشيعة اثبات ذلك فيها بشهادة من يشهد منهم برؤية الهلال في حال مكان الرؤية الخ وإنما كان يعدل كل احد باجتهاده الشخصي في المسائل الشخصية ، وحكم الحاكم برفع الخلاف في المسائل الاجتهادية المتعلقة بمصلحة الامة ، وتفصيل الموضوع ليس هذا عمله

روعة موقف عرفات العام

(ومواكب الحج فيها أيام دول الاسلام)

﴿ ووصف ابن جبير الاندلسي لها في القرن السادس ﴾

ما نس لأنس منظر عرفات ليلا . فهو من أبهج ما ارتسم في خاطري من مناظر هذه الدنيا الفانية مع كثرة ما شاهدت في حياتي وما تقلبت في الامصار والعوام . فقد أقبلنا عليها غلساً آتينا من منى ، فكانت آية به سما في كواكبها وطرائقها ، منها سهول وهضاب في خيام ، وقبابها المضرورة ، ومصاييحها المعلقة . ونيرانها المشبوبة . فكان منظر آقيد النواظر لا يشبع منه الرائي تطلعاً ، ولا يزداد به إلا ابتهاجا . وليست عرفات في النهار باقل حسنا وجلالا في توج جمعها وتراص قبابها ، ولا سما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالالباب ، ومسامع الادعية التي ليس بينها وبين الله حجاب .

واني أترك وصف عرفات في مثل ذلك اليوم لكاتب شهير لا ينفت إلى فقير حقير في بجانب مليء . أماليه ، ولا يؤبه بحقير خرزاتي في معرض بديع لآليه .
الا وهو ابن جبير الكثاني الاندلسي برد الله ثراه قال :

وصف ابن جبير لموقف عرفات

« فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمعا لا شبيه له الا الحشر ، لكنه إن شاء الله حشر للثواب ، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب . زعم المحققون من الاشياخ المجاورين انهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه ، ولا رؤي كان من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام . مثله ، جملة الله جمعا مرحوما مصوما بمنزته ، فلما جمع بين الظاهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين ، وإلى الله عز وجل في الرحمة متضرعين ، والتكبير قدعلا ، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع ، فما رؤي يوم أكثر مدامع ،

هولا قلوبا خواشع ، ولا اعناقاً طيبة لله خوانع خواضع ، من ذلك اليوم ، فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلتفح وجوههم الى أن سقط قرصها ، وتمكن وقت المغرب ، وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ، ووقفوا بمقربة من الصخرات (١) عند المسجد الصغير ، وأخذ السرو واليمانيون مواقعهم بما نزلهم المعلومة لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جـ . نجد من عهد النبي ﷺ ، لاتعدى قبيلة على منزل أخرى ، وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله ، وكذلك وصل الامير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ، ووصل معه من أمراء الاعاجم الخراسانيين ، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين ، ومن السيدات بنات لامراء كثير ، ومن سائر المعجم عدد لا يحصى فوق الجميع وقد جعلوا قدوتهم الامام المالكي «

إلى أن يقول :

« أشار الامام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الارض ، ورجفت الجبال ، فياله موقفاً مأهول مرآه ، وأرجى في النفوس عتباء ، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه ، وتقدمه بنهائه ، انه منعم كريم حنان منان ، « وكانت محلة الامير العراقي جميلة المنظر ، بهية العدة ، رائقة المضارب والابنية ، عجيبة القباب والاروقة ، على هيات لم ير أبدع منها منظراً ، فأعظمها مرأى مضرب الاير ، وذلك انه أحدق بهسرادق كالسور من كتان ، كأنه حديقة بستان ، أو زخرفة بنيان ، وفي داخله القباب المضروبة وهي كلها سواد في بياض ، مرقشة

(١) هذه الصخرات التي يتكرر ذكرها معروفة وهي التي وقف النبي الاعظم ﷺ عندها في حجة الوداع ولكنه قال « وقفت هنا وعرفة كلها موقف » رواه مسلم - يعني ان وقوفه هنا لك اتفاق لا تفضيلة في المكان ، لئلا ينهات الناس بدم عليه ، ولكنهم يفعلون ذلك ما استطاعوا

ملونة كأنها أزاهير الرياض، وقد جلت صفحات ذلك السرادق من جوانبه
 الاربعة كلها أشكال درقية (الدرقة هي الترس) من ذلك السواد المنزل في البياض
 يستشعر الناظر اليها مهابة يتخيلها درقا لمطية (نسبة إلى قبيلة في المغرب الاقصى
 عندهم أحسن التراس) قد جلتها مزخرفات الاغشية. ولهذا السرادق الذي هو
 كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى
 دهايز وتماريج، ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب، وكان هذا الامير
 ساكن في مدينة قد أحرق بها سور تنتقل بانتقاله، وتنزل بنزوله، وهي من
 الامبات الملوكية الممهودة، وداخل تلك الابواب حجاب الامير وغاشيته، وهي
 أبواب مرتفعة بجي الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ، قد
 أحكت ذلك كله احراش (من حرش أى خشن) وثيقة من الكتان يتصل باوتاد
 مضروبة، أدير ذلك كله بتدبير هندي غريب.

ولسائر الامراء الواصلين صحبة هذا الامير مضارب دون ذلك، لكنهن على
 تلك الصفة، وقباب بدعية النظر عجيبة الشكل، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة،
 إلى ما يطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة والعدة،
 وغير ذلك مما يدل على سعة الاحوال وعظيم الانحراف (املها الاحتراف وهو
 الكسب والتصرف وحرف اعياله كسب ومنه الحرفة) في المكسب والاموال.
 ولم أيضاً في مراكبهم على الابل قباب تظلمهم بدعية النظر عجيبة اشكل،
 قد نصبت على محامل من الاعواد يسمونها القشاوات وهي كالتوايت المجوفة، هي
 لركابها من الرجال والنساء كالامهدة للاطفال، تملأ بالفرش الوثيرة، ويقعد الراكب
 فيها مستريحاً كأنه في مهداين فسيح، وبازائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من
 الشقة الاخرى والقبية مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيفما
 أجبأ، فعند ما يصلان إلى المرحلة التي يحيطان بها ضرب سرادقهما للحين إن.

كانا من أهل اترفة والتنعم، فدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان من خلل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء ياحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما ، وناهيك من هذا اترفيه فهؤلاء لا يفتنون لسفرهم وإن بعدت شقته نصباً ، ولا يجدون على طول الخلل والترحال تعباً ،

ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات وهي شبيهة الشقادف لكن الشقادف أبرد وأوسع وهذه أضيق وعليها ظلال تقي حر الشمس ، ومن قصرت حاله عنها في هذه الاسفار فقد حصل على نصب اسفر الذي هو قطعة من العذاب الخ «إه قول : ولم رأيت عرفات من هذه اقباب والسرادقات وهذه المنظر التفتات ، ولم رأيت طريق البيت الحرام من هذه المحارات وهذه الشقادف ، ولم رأيت من راكب وفارس وحف وناعل ، ولا تطهرت نفوس ، وتهذبت أرواح ، وصفت قلوب ، وزكت أعمال ، وخزنت شياطين ، وحتمت دماء ، وكفكت دموع ، وصينت أموال ، كل ذلك بسبب منه الآية كريمة أو يوعى الناس حج البيت من استباح إليه سبيلاً) ولم عاشت بهذه الآية محلوة ودخات على الحجز أموال ، اللهم إن كل ذلك ناهو موق تصور العالمين

أما انعمه ورفاهية نائين تدر ايهم بن جبر من حل - حجج العراق وفارس وخرسن في ذلك لوقت فلم يبق منها نبي تقريباً إلى الاعصر الاخيرة لان تلك الحروب بسبب الحروب المتواصلة ولا سيما غارة المغول التي أتت على الحرث والنسل ، ونسبت عمرن المشرق نسفاً ، فافقرت البلاد ، وتناصت الزلازل ، واتمت العبد ، ونضبت موارد تجارة ، وجاء فتح ترعا اسويس في الزمان لا غير فتحوات به تجارة لهدو عيين عن فارس وراقبوا من نواحيهم بها لاورديون رأساً مع ن ثروة بغداد وبصرة وسيرز و صهمز وديراف الخ كانت أيام عباسيين من حجاز ، وصفه لأفلام ، وتناصر لآرهم وتلك لايم نداولها بين الناس

ولقد أخطر بيالى ذكر المحامل التي ينتقل منها إلى المنازل بدون أن يخرج الراكب من الغال إلا إلى الطل عمل الملك ليوبولد ملك بلجيكا السابق فقد رأيت له في بروكسل قصرآ حوله حديقة فيحاء وكان أنشأ فرعا من سكة الحديد إلى الحديقة فالتصر داخلا في نفق تحت الارض إلى ما تحت القصر فيأتي القطار الخاص بالملك من الخارج فيدخل إلى ما تحت القصر ويخرج الملك من العربة التي هو جالس فيها بخطوة واحدة إلى المصعد الذي هو محاذ لباب العربة فيرقى به المصعد تواء إلى غرفة تومه الخاصة . وهكذا ينتهي من السكة الحديدية إلى غرفة مييته بدون أن يتكلف لامشياً ولا صعوداً ولا نعلماً هل كانت عنده آلة ترفعه من أرض الغرفة إلى السرير ؟!

الوزير الجواد الاصفهانى جمال الدين وزير اتابك زنكي صاحب الموصل

من حيث اننا في ذكر المعمرين (عمر المنزل بالتشديد جملة أهلا) والشمرين (نمر المال بالتشديد أيضاً كثره) والسدين للبرات ، والسابقين الى الخيرات ، والمشيدين للمالك ، والمهدين للمسالك ، وان سيرة مثل هذه الطبقة في الاسلام هي أحسن السير ، وبها يحسن المبتدأ ويعطر الخبر ، فليسمح لنا القراء بنشر شيء من سيرة الجواد الاصفهانى ، وزير صاحب الموصل اتابك زنكي بن آق سنقر . فهو الوزير أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور ، اتصل بخدمة اتابك زنكي في الموصل في الثلث الاول من القرن السادس للهجرة ، وبعد أن قتل الملك المذكور على قلعة جعبر استوزره سيف الدين غازي بن اتابك زنكي ، وقوض الامور وتدير أحوال الدولة اليه . قال ابن خلكان :

« فظهر حينئذ جود الوزير المذكور ، وانبسطت يده ، ولم يزل يعطي

ويبذل الاموال، ويبائع في الانفاق، حتى عرف بالجواد، وصار ذلك كالعالم عليه حتى لا يقال إلا جمال الدين الجواد « إلى ان قال « وأثر آثاراً جميلة وأجرى الماء الى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد وعمل الدرج من أسفل الجبل الى اعلاه (١) ونى سور مدينة الرسول ﷺ وما كان خرب من مسجده، وكان يحمل في كل سنة الى مكة شرفها الله تعالى والمدينة على ساكنها افضل الصلاة والسلام من الاموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة ستة كاملة، وكان له ديون مرتب باسم أرباب الرسوم واقتصاد لا غير، ولقد تنوع في فعل الخير حتى جاء في زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يبق شيئاً. وكان إقطاعه عشر مغل البلاد، على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية « الى ان قال عن وفاته « توفي في العشر الاخير من شهر رمضان المعظم — وقيل من شعبان — سنة تسع وخمسين وخمسة واصلى عليه، وكان يوماً مشهوداً من ضجيج الضعفاء والارامل والايام حول جنازته، ودفن بالموصل الى بعض سنة ستين فنقل الى مكة حرسها الله تعالى، وأطيف به حول الكعبة، وكان بعد أن سعدوا به ليلة الوقفة الى جبل عرفات، وكانوا يطرفون به كل يوم مراراً مدة مقامهم بمكة شرفها الله تعالى، وكان يوم دخوله مكة يوماً مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه، وقيل انه لم يهد عنهم مثل ذلك اليوم، وكان معه شخص مرتب يذكر محاسنه ويعدد مآثره « الى ان قال :-

« ثم حمل الى مدينة الرسول ﷺ ودفن فيها بالبيع بعد ان أدخل المدينة وطيف به حول حجرة الرسول ﷺ مراراً، وأنشد الشخص الذي كان مرتباً معه:

« ١ » يعني جبل عرفات الذي في وسطها المعروف بجبل الرحمة فانه مقسم الى درج بعضه فوق بعض كما يرى من وقوف الناس عليه طبقة فوق طبقة وهذا الجبل هو الذي كان يسمى إلا لا بكسر الهمزة وحكى فتحها

سرى نعمته فوق الرقاب وطائما سرى حوده فوق لركاب ونائله
يمر على الوادي فتثي رماله عليه وبالماضي فتبكي أرامله
انتهى كلام ابن حلكال (١)

وانظر الى مايقوله عن هذا اللزر وماآتوه - الرحلة ابن جبير الاندلسي
وقد هاس في ذلك العهد وهو

« ولهذا المدة لماركة (أي مكة) حمان (أحدهما) ينسب للفقير المياثني
أحد الاشياح المحققين بالحرم المكرم (واتاني) وهو الأكبر ينسب لحال الدين ،
وكان هذا الرجل كصيته جمال ابن له رحمه الله بمكة والمدينة شرفها الله من
لا تارارية، واحد من الحادة، والمصنع المنيرة في ذن لله المشيدة، ما لم يسمعه
اليه آية، مما سلف من زمان ولا أثار ان الماء، فضلا عن الوزراء، وكان رحمه
الله ويرى حب، موصل، تأتي على حده لمقاصد السيدة المستهلة على المنافع العامة
للمسلمين في حرم الله له وحرمه رسول الله ﷺ أكثر من خمس عشرة سنة لم يزل
فيها باذلا أموالا لا تحصى في بناء رباط عتبة مسلمة في طرق الخير والبر، مؤمنة
محبسه، واحتفاظ صهارح الماء، ووضع حجاب في الطريق يستقر فيها ماء المطر،
لتجدد آثار من الماء في الحرمين الكرمين وكل من أسرف أفعاله أن جلب
الماء، عرفه وتبع عليه بوسه تسلك تلك المواحي المجلوب منها الماء بوظيفة
من لم يكد، بل أن لم يلمر الماء عن الحج فلما توفي الرجل رحمة الله عليه
عادوا الى سدتهم الدائمة . . . »

(١) في هذا الخبر - . . . المأثور من أعماله المسك والزيارة
والدب كلها - . . . المأثور من أعماله المسك والزيارة
التي ذكرها مع الحارة - . . . المأثور من أعماله المسك والزيارة
سيما ان الحرمين الشريفين وأعمال الحج وزيارة مقامنا المكرم أن تملأ قلوب
المؤمنين بذكره، شأن صاحبه، حيا وميتا، وانه لي الله، الخدام والسلاطين

« ومن مفاخره ومناقبه أيضا أنه جعل مدينة الرسول ﷺ تحت سورين حقيقيين أنفق فيها أموالا لا تحصى كثيرة . ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه أنه جدد أبواب الحرم كلها، وحدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فصحة مذهبة، وهو الذي فيها الآن حسبما تقدم وصفه ، وجلال العتية المباركة بلوح ذهب ابريز، وقد تقدم ذكره أيضا، فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه. فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك ويحج به مئة ، فسبق الى عرفات ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت فلما أفاض الناس أفيض به وقضيت له الماسك كلها وطيف به طواف الافاضة. وكان الرجل رحمه الله لم يحج في حياته

ثم حمل الى مدينة الرسول ﷺ وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره، وكاد أشرفها يحملونه على رؤوسهم، وبنيت له روضة بأزاء روضة المصطفى ﷺ وفتح عيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأسج لذلك على شدة الضئانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة . ودفن في تلك الروضة وأسماه الله بالجوار الكريم، وخصه بالمواراة في تربة التقديس والتعظيم ، والله لا يبصع أجر المحبتين» اهـ

ثم يعود الى سيرته أيضا فيقول « ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار السنية، والمفاخر العلية التي لم يسبقه اليها أكر الاحواد، وسرارة الاحجاد ، فيما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء ، ويستغرق التناء ، ويستصحب طول الايام على الألسنة بالدعاء ، وحسبك انه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة طرق المسلمين بجهة الشرق من العراق الى الشام الى الحجاز حسبما نذكره . واستنط المياه ونبي الجباب واخط المنازل في المغازات، وأمر مهارتها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين. وابنى بالمدن المتصلة من العراق الى الشام فنادق عيها لتزول الفقراء ابناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الاكرية، وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل

ما يقوم بعيشتهم، وعين لهم ذلك في وجوه تأبدت لهم فبقيت تلك الرسوم الكريمة
ثابتة على حالها الى الآن. فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق ، وملئت ثناء
عليه الآفاق ، وكان مدة حياته بالموصل - على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات
الحجاج التجار من شاهد ذلك - قد أخذ دار كرامة واسعة الفناء ، فسيحة الأرجاء ،
يدعو اليها كل يوم الجفلى (الوليمة العامة) من الغرباء ، فيمهمهم شعباً ورباً ، ويرد
الصادر والوارد من أبناء السبيل في ظلّه عيشاً هنيئاً ، لم يزل على ذلك مدة حياته
رحم الله ، فبقيت آثاره مخلّدة ، وأخباره بألسنة الذكور مجددة ، وقضى حيدراً سعيداً
والذكر الجميل للسعداء حياة باقية ، ومدة من العمر ثانية « اه

قلت : ولو لم تكن آثار هذا الرجل مخلّدة ، وأخباره بألسنة الذكر والشكر
مجددة ، لما جئنا نحن بمد سبعمائة وثمانية وثمانين سنة نجددها ، وننوه بها ،
ونجعلها منارةً للمهتدين ، وقدوة للمقتدين ، ولا شك أن التاريخ انما يتعرف ويكرم
ببرامج رجال كهؤلاء . جعلوا أنفسهم مصداق الحديث الشريف « الخلق كلهم عيال
الله فاحبهم إلى الله أتفهم لعياله » (١)

فتأمل في هذا الرجل وما أجراه من الخيرات العامة ، وما برد من حر ، وما
أغنى من فقر ، وما آوى من فقر ، وما أمن من خوف ، وما قوى من ضعف .
وتبصر فيما ساه من الفنادق في الطرقات ، وما بناه من المنازل في الغلوات ، وما
حبس على هذه المؤسسات الخيرية من الأوقاف الدارة ، الى غير ذلك من المآثر
التي يتحلّى بها تاريخ الاسلام ، وتطيب بقراءتها الانفس ، وترفع الارؤس ،

العبرة بتعمير السلف وتخريب الخلف

وقابل هذا الصبر على الخير ، وهذا الجلدي الانسانية ، وهذا الثبات في الفعل
الجميل بما تعرفه من غيره ، ممن هم وبالأسف أكثر عدداً في ولاية الامور وأعز نفراً ،
وذلك في صرفهم أموال المسلمين الى جيوبهم ، وإنفاقهم ريع اوقافهم وغلة رباعهم على
شهوات أنفسهم ، وفي إعراضهم عن المصالح العامة الى المنافع الخاصة بل المنافع الخاصة

(١) رواه ابو يعلى والبزار من حديث أنس والطبراني من حديث ابن سعد

الخبسية ، والطامع الشخصية الدينية ، وهو يفسد الأمور عن معاليها ، وخيانتهم
 الامة في أماناتها التي حملوها بالاجرة ، وترام لانتهز لهم أريحية الى مبرة ، ولا تسمو لهم
 همة الى عمل شريف ، ولا اذا تداعى جدار جددوا بناءه ، ولا اذا توعرت طريق
 أزالوا حرسها ، ولا اذا جفت عين أسالوا غيرها ، ولا اذا تشعث قناة يادروا
 الى رماها . لا يهتمهم حفظ الماضي على حاله فضلا عن أن يبدؤوا ما تتر ، ويفترعوا مفاخر ،
 بل دأبهم في ولاية أمور المسلمين كاجاء في المثل العامي (يا كلون الخضراء ويقطعون
 اليابسة) وكأنما أورثهم الله خراج المسلمين لينفقوه في السرف والسفه ، ولذات
 الكروم والفروج ، كأنما هورث آباؤهم وأجدادهم ، بل لو كان ثراث آباؤهم وأجدادهم
 ما ساغ لهم ذلك فيه ، ولتعمم القضاة العادلون عن هذا السفه ، ولكن أين القضاة
 العادلون ، وأين العلماء العاملون ، الذين يقولون الحق في وجه الملوك ومخاطرون
 بأنفسهم ومصالحهم لاجل نصح الامة ؟ فوالله ما أفسد أمر الاسلام إلا أمرأوه
 — الا من رحم ربك — وما أفسد هؤلاء الامراء الا العلماء الذين أخذ عليهم
 الموثيق بأز لا يثاروا على معصية ، ولا يواطئوا على معرة فكانوا يقارون على المعاصي
 ويتزفون الى الامراء بالباطيل ، ويفتون لهم بتأويل النصوص الشرعية بقدر
 مناسها الحقيقي ، ويسهلون لهم الموبقات بأجمعها ، والمرديات بمذاخيرها ، طمعا في
 الدنيا الغانية ، والمطاعم الوبيثة الذاهبة ، وهكذا تحول أمر هذه الامة من العظمة
 إلى الصغار ، ومن التمكن في الارض إلى البوار ، ومن المآثر والمباني إلى الدمار ،
 ومن أحاديث المعالي الى أقاصيص العار والستار

ولما كان يستحيل أن تسوء الادارة في الداخل بدون أن يستأسد العدو من
 الخارج ، لان الامم المتجاورة بعضها لبعض بالمرصاد ، يهتبل الغرة ويقنجر العورة ، لم
 يلبت ظلم الامراء بتساهل العلماء ومانشأ عن ذلك من اضطراب الدهماء ان أحدث
 الاثر المنتظر ، وأتى بالنتيجة البديهة من امتداد يد التعريب وطمعه في ممالك المسلمين
 واقتطاعه العالم الاسلامي قطراً بعد قطر ، وضربه على المسلمين الذل والمسكنة ،
 بعد أن كانوا سادة الارض وحلفاء النصر ، وما أحسن قول شوقي في مخاطبة النبي ﷺ
 أقطمتهم غرر البلاد قضيحوا وغدوا وهم في أرضهم غرباء

الإسلام لديه العمران بمرىء من تيمة الانحطاط

الذي عليه المسلمون الآن

وتاريخ سلفهم المعمرين ، حجة على خلفهم المخربين

لم يخسر المسلمون بلدانهم فقط وما تسلط عليها الاجنبي وأخذ كل ما فيها أخذ عزيز مقتدر فحسب، بل خسروا في نظر الناس حقائقهم وفضائلهم ومعاليتهم واحسابهم وآدابهم ، وصار الناس يمارون في مآثرهم السوايق ومعاليتهم السوامق ويجادلون في صحة نظرياتهم الاجتماعية، ويرونهم من ابعدا الخلق عن العمران ، وينسبون ذلك الى الدين الاسلامي وإلى القرآن، وإلى التوحيد وإلى عقيدة القضاء والقدر، وإلى غير ذلك من الاسباب التي يعلمها من له ألفة بكتب الافرنج أو من مجالس الناشئة الحاضرة في الشرق، وسدق هذه الاقاويل كثير من المسلمين أنفسهم واتخذوا تلك السفسطة قضية مسلمة، ونبذوا الاسلام بتاتا، وأوشك آخرون أن ينبدوه بحجة انه مصدر الانحطاط، ونسوا انه ما من أمة على وجه الارض وقد سعدت وشقيت وعات ونزلات، وتداولتها أدوار مختلفة وكانت دياتها واحدة في دوري علوها وهبوطها وان الاسلام هو أجدر من غيره بان لا يكون مسؤولا عن انحطاط أحد وانه طالما نهض باهله الى الدرجات العلى عند ما كانوا يعملون بمقتضاه حق العمل. وإنما كان المسؤول عن هذا الانحطاط، المسلمون لا الاسلام، والقراء لا الكتاب، والحلقة لا المحمول، والخزنة لا المخزون ، وهؤلاء هم الذين فقدوا الممالك وخسروا المجد القديم ، وجنوا هذه الجناية على الشريعة الاسلامية، والمبادئ القرآنية والآداب العربية ، والثقافة الشرقية، وجعلوا كل أولئك مسؤولا عن أمور لا مسؤول فيها غير الاستخاص في الحقيقة ، ولا مجرم غير الخلف الفاسد الذي اضاع الصلاة واتبع الشهوات ولقي النفي. وإنك لتجد كل كلمة من القرآن شاهدة عليهم وكل نص

من الشرع حاكما بسوء سيرتهم، ولو أنفقت ما في الارض جميعا لم تقدر أن تطبق
 اعمال هؤلاء الملوك والخلفاء والوزراء، والقضاة والعلماء من المسلمين الذين وصلوا
 بالامة الى ما وصلت اليه على آية واحدة من القرآن الكريم مفهومة حق الفهم،
 أو حديث مشهور لا يتطرق الى اسناده الشك، بل خالفوا قواعد الاسلام من أولها الى
 آخرها واتخذوا كتاب الله لجراد الترتيل والتجويد ولم يعملوا بعشر معشار ما فيه من
 الاوامر والنواهي، ورجعوا يعاتبون الله على الخذلان الذي هم فيه والله قد اجابهم
 من قبل على اعتراضهم وقال لئن لم يكن لهم: (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)
 مثل هذه الاحوال من رجال الاسلام الموكول اليهم أمر الامة قد أوسع
 للظمن أشد اقا وللنظر بالازدراء أحداقا وصار الاوربيون يقولون لنا: أنتم لا تعرفون
 إلا التخريب وليس لكم حظ من العمران ولا من سداد الادارة، وما الادارة عندهم
 إلا فوضى وبينكم وبين النظام ما بين المشرق والمغرب، الي غير هذا من المثالب .
 وكذلك أهال اكثرهم بالظمن على نفس الاسلام يقولون فيه : لو كان خيرا
 لكان أهله قد أثلوا مدنية ووقفوا الى حضارة حقيقية والشجرة إنما تعرف من ثمارها!
 ولم ينفرد بهذا القول الضابط الافرنسي (سيكار) ولا اليسوعي (لامنس) ممن
 نشرنا كلامهم في مجلة النار مردوداً عليه بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة
 التي اجبرت سيكار نفسه أن يعترف باهميتها . ولكن تشدق بهذا الكلام
 كثير من علماء الافرنج ومؤلفيهم، وزعموا أن الاسلام والمدنية هما على طرفي
 نقيض حتى قالوا ان المدنية التي يقال لها في التاريخ « المدنية الاسلامية » لم يكن
 منها شيء من عمل المسلمين، وكابروا في هذه القضية المحسوس، وانكروا بداته
 الامور، وكل هذا من اجل انهم ادركوا اعمال هؤلاء الظلمة الخاسرين من أولياء
 أمور الاسلام، وساحوا في بلا المسلمين فوجدوا القرابان تنعق في الاماكن التي
 كانت معمورة في القديم بملايين البشر، ووجدوا الآثار الجميلة الباقية من الماضي

أشبهه بواحات في وسط صحاري من القذارة والشناعة والعبث، ووجدوا الطرقات لا يكاد السالك يسلكها من الدعارة وفقد الأمانة، ووجدوا شوارع المدن لا يقدر السائر فيها أن يسير إلا محولاً نظره ساداً أنفه من كثرة ما فيها من الاوصار والارواح، ووجدوا القنى مقطعة، والآبار معطلة، والقصور غير مشيدة والقمة طر مهدامة مبشرة .

ونحن وجدنا هذه الثرة في تسيارنا في جبال الحجاز فضلاً عما نعرف من غيرها من بلداننا من آثار العمران الدراسة والسدود والدائرة، والقنوات المقورة في الصخور، المنقطعة عنها المياه الجارية، مالا يكاد يأخذه الاحصاء، ورأينا منها شيئاً كثيراً ليس ترميمه بالأمر المعجز مع شدة ضرورته، وقضينا المعجب من إهمال الولاة الغابرين إياه، وتهاونهم بعارة البلاد إلى هذا الحد، كأن البلاد بلاد أعدائهم (١)

من أجل ذلك فسحنا مكاناً واسماً في كتابنا هذا لابن كريب وزبيدة العباسية والوزير الموصلية جمال الدين الجواد ومن في ضربهم من رجالات العمران وبناء المدينة ونمثلها لهم بقول المعري:

جمال ذي الارض كانوا في الحياة وهم بعد المات جمال الكتب والسير
وإذا كان قد جرى ذكرى المنازل في القلوات فسأني على أخبار أخرى
لطيفة من هذا الموضوع لاتصيق بها رسالة « الارتسامات اللطاف » بل
تكون بالعكس شيئاً لطرازها

(١) قد حبس المسلمون المتقدمون على الحرميين الشريفين من الاوقاف الكثيرة في كل قطر ما يكفي لجبل الحجاز اعظم بلاد الله عمراً، وقد اكل المسلمون اكثر تلك الاوقاف، ولا يزال المعروف منها يكفي لعمران الحجاز، ولكن يحول دون وصوله حكمهم الظالمون، واعداؤهم الكافرون، الذين استولوا على اكثر بلاد المسلمين

شحف بعض ملوك الروم بالعمارة

(مثال منه)

﴿ آثار عبد الرحمن الناصر الاموي في الأندلس ﴾

أردنا أن نردف أخبار أبطال العارة وصناديد البناء والتشييد ، وكفاة الشيع والري من مسلمي المشرق ، بأخبار بعض أقرانهم من مسلمي المغرب ، ليعلم الناس أن الاسلام أنجب ملوكا وسلاطين كانوا يحتفلون بالمران ، ويعمرون القفار ، ويرتبون من أمور المدنية ما يرتبه الافرنج اليوم وما لم يكونوا يحسنون مثله في تلك القرون التي كان المسلمون فيها هم الاعلون في كل شيء .

فمن هؤلاء في المغرب الخليفة عبد الرحمن الثالث المنقب بالناصر الاموي ولست يتعرض الآن إلى ذكر خلافته التي استمرت خمسين سنة ومغازيه في بلاد الافرنج ، وما آثره الباهرة التي اتفقت عليها تواريخ الشرق والمغرب ولكنني أريد أن أذكر من علو همته في البنيان ما تتحير به العقول

وذلك أنه بنى قصر الزهراء بقرطبة فكان طول هذا القصر من الشرق إلى الغرب ألفين وسبعائة ذراع أي نحو كيلو مترين ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ألفا وخمسمائة ذراع ، أي نحو كيلو متر ، وكان في الزهراء أربعة آلاف وثلثمائة سارية ، وكان فيها ما يزيد على خمسة عشر ألف باب . وكان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الابواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال من له الدرهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة . وكان يصرف كل يوم في الزهراء من الصخر المعدل المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل . قالوا وكان الناصر يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم لتقطعها وحملها ، وجاسه

الناصر الرخام إلى الزهراء من كل البلاد فلا يبيض من « المربة » والمجزع من « ربة » والوردي والأخضر من صفاقس وقرطاجنة بأفريقية . وجلب إليها الحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتمائيل وصور على صور الانسان ، ولما جلسه أحمد الفيلسوف - وقيل غيره - أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً .

قالوا وبنى في الزهراء القصر المسمى بقصر الخلافة ، وكان سمكه (سقفه) من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، وكانت حيطان هذا القصر مثل ذلك ، وجمعت في وسطه اليتيمة التي أمحف الناصر بها (ليون) ملك القسطنطينية ، وكانت قرآمد هذا القصر من الذهب والفضة . وكان في وسط المجلس صهريج مملوء من الزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعدت على حنايه من العاج والابنوس المرصع بالذهب ، وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار .

وكان الناصر اذا أراد أن يفرع أحداً من أهل مجلسه أو ما إلى أحد صقائبه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم . وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناء مثله لافي الاتسلام ولا في غيره ، وانما تهيأ للناصر لكثرة الزئبق في ملكه .

وأجرى الناصر إلى الزهراء المياه وأحرق بها البساتين ، وبنى فيها مسجداً من أبداع الساجد ، وقيل إن العمل في الزهراء استمر أربعين سنة من ملك الناصر ، وقيل انه كان بقصر الزهراء من الوصفاء ثلاثة عشر ألفاً ، وكان الجاري لهم من اللحم فقط كل يوم عدا الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل ، وكان في القصر

من الجوارى والخوادم أكثر من ستة آلاف امرأة . وقيل ان المرتب من الخبز
لحيتان الزهراء السابحة في بركها العظيمة اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ،
قالوا وكان يرد من الجير والجص في كل ثالث من الايام إلى الزهراء ألف
ومائة حمل . وقدر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنه كان ينفق فيها كل عام ثلثمائة
ألف دينار وان ذلك استمر نحساً وعشرين سنة إلى نهاية ملك عبد الرحمن الناصر .
وذكروا أن الحوض المنقوش بالذهب الذي جلبه الفيلسوف أحمد مع ربيع الاستغف
من القسطنطينية لم يكن وحده بل جاؤا اليه أيضاً حوضاً آخر يقال له الحوض
الصغير أخضر منقوشاً بماثيل الانسان ، وأن الناصر نصبه في بيت المتام بالجلس
الشرقي وجعل عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعاً بالدر النقيس العالي
كما عمل بدار الصناعة قرطبة : صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما
يقابله ثعبان وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطوس ودجاجة وديك وحادأة ونسر
وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النقيس ويخرج الماء من أفواهها

قالوا وفي يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثمانمائة كل
الناصر بناء القناة الغربية الصنعة التي أجزاها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر
الناعورة غربي قرطبة في الناهر الهندسة وعلى الحنايا العقود ، يجري ماؤها بتدبير
عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها سد عظيم الصورة بديم الصنعة ، لم
يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب ابريز وعيناه جواهرتان
لها وبيص شديد يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الاسد فيمجه في تلك البركة من
قبة فيبهر الناظرين بروعة منظره ونجاجة صبه ، فتسقى من بحاجه جنان هذا
القصر على سمعتها ، ويستفيض على ساحاته وجناباته ، ويمد النهر الاعظم بما فضل منه .
قالوا واستمر العمل في هذه القناة إلى أن انتهت أربعة عشر شهراً ، ولما
انطلق فيها الماء إلى تلك البركة كان يوماً احتفل فيه الخليفة رحمه الله وعمل دعوة
جفلى ، وأفضل على عامة الخلق ، ووصل المهندسين والقوام بصلات حسنة جزيلة

عمران قرطبة المعجيب في عهد الناصر

وكان عمران قرطبة في أيام الناصر عاما تاما، وليس من المقول أن يتأهى هذا التناهي كله في اتقان البيان وتفخيمه في عاصمة لم يستبحر عمرانها ولم تزخر لجم للاجتماع فيها ، فقد رووا أن عدد دور قرطبة كان لعهد الناصر وابنه الحكم نحو ٢٠٠ ألف دار . وهذه دور الاهالي ، فأما دور الوزراء والعامل والكتاب والاجناد وخاصة الملك فكانت ستين ألف دار هذا عدا الحمامات والخانات والفنادق ، وقلوا انه كان فيها ثمانون ألف حانوت . وكان لقرطبة ٢٨ ريبضاً وقيل ٢٩ ريبضاً كل واحدة منها بلدة فيها منبر تقام فيه الجمعة

وقيل إن الطرق من قرطبة إلى جميع هذه الارباض كانت تنار ليلا بالفتاديل . وهي مسافت من ١٠ الى ١٥ كيلو متراً . فأما مساجد قرطبة لذلك العهد فقد جاءت فيها روايات مختلفة فقبل ثلاثة آلاف وثمانمائة . وقال ابن حيان : بلغت المساجد بقرطبة في مدة ابن أبي عامر (بعد الناصر بمدة غير طويلة) ألفاً وستائة . مسجداً ، والحمامات تسعمائة حمام .

وأما مسجد قرطبة الاعظم فإن القلم ليمجز عن وصفه ، فمن شاء فليقرأ ذلك في نفع الطيب وغيره من تواريخ الاندلس أو فليذهب إلى اسبانية ويشاهده فهو لا يزال أكثره قائماً وإن كان قد تحول إلى كنيسة ، وقد ذهب كثير من النفائس التي كانت تزينه . ولا أعلم هل أبقاه الاسبانيول على مساحته الاولى أم اختصروا منه فالذي في كتب العرب أن تكسیره كان نحو ٣٣ ألف ذراع وانه كان فيه ١٢٠٠ عمود و٩٣ عموداً كلها رخام . وقد كان لعهد الناصر وأهله باب مقصورة هذا الجامع من الذهب ، وقد أجرى الذهب في جدار المحراب وما يليه على الفسيفساء . وكانت الصومعة من بناء الناصر تعلو ثلاثاً وسبعين ذراعاً إلى

أعلى القبة المتفحة التي يستديرها المؤذن ، وفي رأس هذه القبة تفانجح ذهب وفضة
 جودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف ، فائنتان من التفانجح ذهب ابريز وواحدة
 فضة ، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة
 ذهب صغيرة على رأس زج .

وكان في الجامع مائتان وثمانون ثريا وثمانمائة وخمس كؤوس ، وكان يوجد فيه
 في شهر رمضان فقط ثلاثة قناصير من الشمع ، وكان له كل ليلة جمعة رطل عود
 وربع رطل عنبر ، وكان من فيه من الأئمة والمؤذنين والسدنة نحو ١٥٠ رجلا ،
 وروى بعضهم ٣٠٠ ويجوز أن يختلف العدد باختلاف الاوقات ،

وقالوا أن الحكم المستنصر بنى لهذا الجامع أربع مبيضات منها ثنتان للرجال وثنان
 عند مقاصير النساء وأجرى في جميعها الماء من سفح جبل قرطبة وصبها في أحواض
 رخام ، وأجرى فضل هذا الماء المنذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب الجامع
 وهي جوارب ثلاث من حياض الرخام اقتطعها من مقطع المنستير بسفح جبل قرطبة
 واحتمر الرخاميون هناك أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة حتى استوت في صورها
 البديعة ، فخفف ذلك من ثقلها وأمكن من اهباؤها إلى أماكن نصبها باكتاف المسجد
 الجامع ، فتهبأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من صنخام خشب البلوط
 على قفل موثقة بالحديد المنقف محفوفة بوثق الحبال ، قرن لجرها سبعون دابة ،
 ومهدت قدامها الطرق ، وتيسر نقلها في مدة ١٢ يوما ، فنصبته في الأقباء المعقودة
 لها . وابنتى الحكم المستنصر غربي الجامع دار الصدقة واتخذها مهبداً لتفريق
 صدقاته المتوالية ، وابنتى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير

وربما ينسب بعض القراء شيئا من هذه الروايات إلى المبالغة ويجوز أن يكون
 فيها زيادة في الوصف لاجل نقل الحقيقة إلى ذهن السامع ، إلا أن كثيراً من هذه
 الآثار محفوظ إلى اليوم ، فجامع قرطبة لا يزال قائماً وإن كانت الزهراء والزاهرة

وغيرها قد درست . وقصر استيبيلية لا يزال قائماً ، وحمراء غرناطة لا تزال ماثلة .
ومباني العرب في طليطلة أكثرها لم يتردم وكل من رأى الباقي من تلك الآثار
لا ينسب مجمل تلك الروايات إلى المباغة

ثم إن ابن خلدون شيخ فلاسفة التاريخ برصانته وجلالة قدره وزيادة نسيه
على المباغين في الاخبار يقول :

« ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمباني، وكان
جده الامير محمد وأبوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا في ذلك
وبنوا قصورهم على أكل الاتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهور
والكامل والنييف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة ،
وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرقاء المهندسين والبنائين من كل
قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ثم أخذ في بناء المستنزهات فتحخذ
منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة

ثم احتط مدينة الزهراء (صدق ابن خلدون لأن الزهراء في الحقيقة كانت مدينة .
لا قصرأ) واتخذها لنزله، وكرسياً للملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين
ماعفا على مبانيهم الاولى، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج
ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، واتخذ فيها دور الصناعة لآلات السلاح للحرب
والخلي للزينة وغير ذلك من المهن وصم يعمل الغالة على صحن الجامع بقرطبة .
وقاية للناس من حر الشمس « اه .

وأما الزهرة فقد بناها المنصور بن أبي عامر الشهير الذي يعد من أعظم رجال الاسلام ،
جعلها على نهر قرطبة الاعظم واحتفل جداً ببنائها حتى صارت أشبه بمدينة أيضاً
ومن أحلى ما قرأت من غرام عبد الرحمن الناصر الاموي بالعمران والاتقان
والقراة، والرفاة وامتكال أدوات الرفق على نسق العصر الحاضر ماجاء في .

« الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى » ان أبا العيش احمد بن قاسم كنون من ملوك الادارسة بالمغرب كان قطع دعوة العبيديين خلفاء مصر وتونس وبايع الخليفة عبدالرحمن الناصر صاحب الاندلس وخضع المغرب كله لابي العيش بنفوذ الناصر وقوته . ولما كان الخليفة في جهاد دائم مع الافرنج أراد ابو العيش أن يلحق بساحة القتال، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له وأمر بان يبني نه في كل منزل ينزله قصرا وذلك من الجزيرة الخضراء (بقرب جبل طارق) إلى الثغر (حدود بلاد الافرنج وكانوا يقولون لسرقسطة الثغر الاعلى) وأن يجري له فيها الف دينار في كل يوم ضيافة له، ومن الفرش والاثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر ، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الثغر، فكانت منازلها من الجزيرة إلى الثغر ثلاثين منزلا اه

مثال آخر

• من النظام عند المسلمين ، من خبر عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين

ومن هذا النمط وأبلغ منه في ترتيب المنازل والمناهل ما عمله عبد المؤمن بن علي صاحب دولة الموحدين في المغرب . فقد كانت افريقية (بلاد تونس) في يد بني زيري ابن مناد الصنهاجيين ، عمالا للعبيديين خلفاء القاهرة، ولكن كانت دولة بني زيري قد أشرفت على الهرم وزاحتهم اشوار من العرب ، فانتزح الفرنج أصحاب صقلية هذه الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور، مثل صفاقس وسوسة وغيرهما، ثم ملكوا المهديّة وهي دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي، فذهب هذا إلى عبد المؤمن بن علي القائم بدولة الموحدين واستمداه على الافرنج، وبينما هذا بهم بذلك إذ أوقع الافرنج باهل زويلة التي هي على مقربة من المهديّة، وكانت وقعة شنيعة قتلوا فيها النساء والاطفال ففر جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن

علي يستنصرونه وهو بمراكش، وقالوا له لم يبق في ملوك الاسلام من يكشفه هذا الكرب غيرك، قدممت عيناه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: ابشروا، لانصرنكم ولو بعد حين. ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العسكر في السفر، وكتب إلى من بطريقه من نوابه يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات، وأن يترك الزرع في سنبله ويحزق في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها، فصارت كأنها تلال

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبدالمؤمن من مراكش يؤم بلاد افريقية واجتمع عليه من العساكر مائة الف ومن السوقه والاتباع أمثالهم، وكان هذا الجند يمتد أميالاً، وبلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبله، وإذا تزلوا صلوا بامام واحد بتكبيره واحدة لا يتخلف منهم أحد كأننا من كان. ولم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينياً وطريدة وشلندا، ونازل البلدة وأخذها وسار إلى المهديه واسطوله يجاذبه في البحر، وكان بالمهدية يومئذ خواص الفريج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها، وأخلوا مدينة زويلة ودخلها عبدالمؤمن بعساكره والسوقه الذين معهم فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة، ونزل بظاهرها من لم يجد موضعاً فيها. وانضاف إلى جيش عبدالمؤمن من صنهاجة والعرب مالا يدخل تحت احصاء، وأقبلوا يقاتلون المهديه فلا يؤثر فيها لحصانتها وضيق مجال القتال عليها لان البحر دائر باكثرها، فكأها كف في البحر وزندها متصل بالبر. وركب عبدالمؤمن شينياً ومعه الحسن بن علي الصنهاجي وتعطوف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها، وعلم انها لا تفتح بقتال برّاً ولا بحراً وليس لها إلا المطاولة، وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟ فقال له: قلنا من

يوثق به وعدم القوت وحكم اقدر، فقال صدقت وعاد وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يرض غير القليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير . فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول : متى حدثت هذه الجبال؟ فيقال هي حنطة وشعير فيقضي العجب مما يرى ، وتمادى الحصار وفي أثناءه استولي عبد المؤمن على طرابلس وصفاقس، وسوسة وجبال نفوسة وفتح قابس بالسيف، وأطاعه أهل ففصة، وإذا باسطول صقلية آت مدداً للافرنج في المهديّة وكان عدده ١٥٠ شينيا غير الطرائد ، وكان هذا الاسطول غزا جزيرة يابسة (بقرب ماجورقة من جزر اسبانية) وسبى أهلها، فأراد الدخول إلى ميناء المهديّة فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب المعسكر جميعه إلى جانب البحر، فانهزمت شواني الافرنج وتبعهم المسلمون وأخذوا منهم سبع شواني، وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، ويثس افرنج المهديّة من النجاة ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى أن نزل من نرساتهم عشرة وسألوا عبدالمؤمن الامان على أن يخرجوا باموالهم وكان قد فني عندهم القوت حتى أكلوا الخيل فعرض عبدالمؤمن عليهم الاسلام فقالوا : ما جئنا بهذا وإنما جئنا نصاب فضلك ، وترددوا إليه أياماً وقالوا إذا أنعمت علينا كئنا لك أرقاء في أرضنا ، ففنا عنهم، وكان الفضل تيمنه وأعطاهم سفناً ركبوا فيها إلى بلادهم ، وكان الفصل ثناء ففرق أكثرهم قبل الوصول إلى صقلية وكان صاحب صقلية قد قال ، ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهديّة قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم ، فأهلك الله القرنج غرقاً ، وكانت مدة استيلائهم على المهديّة اثنتي عشر سنة ، انتهى كلام صاحب الاستقصا ملخصاً

وذكر ياقوت في معجم البلدان المهديّة ووصف حصانها بأكثر مما وصف صاحب الاستقصاء وقال: أنها من بناء المهدي المبيدي الفاطمي وإن روجار صاحب

صقلية أنفذ اليها جرجي سنة ٥٤٣ واستولى عليها. وبقيت في يد الافرنج اثنتي عشرة سنة حتى قدم عبد المؤمن سنة ٥٥٥ فأخذها ولم تكن حصانتها في جنب وضاء الله شيئاً انتهى

فاما قول صاحب صقلية انه لو قتل عبد المؤمن افرنج المهدي لقتل هو مسني صقلية فقد كان يصدر مثل هذا الفعل من الافرنج... فاما المسلمون فكانوا يأنفوز من ذلك ، وصالح معاوية بن أبي سفيان الروم وارتهن منهم رهنا فوضعهم بعبك ثم غدر الروم وقتلوا المسلمين فلم يشأ معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهاثن الروم وخلصوا سبيلهم، وقالوا : وفاء بغدر، خير من غدر بغدر، وهو قول العلماء والامام الاوزاعي رضي الله عنه . وهو من قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى)

وقد كان شاهد هذا الحديث هو صنيع عبدالمؤمن بن علي السلطان الكبير الذي قيل فيه :

ماهر عطفه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي
 فقد ساق مائة الف مقاتل ومعها مائة الف من سوقه واتباع من سرا كمش
 إلى تونس بدون أن تتأذى بهم سنبلة قمح ، ولما أراد حصار المهدي جعل الحبوب
 جبالا . فمثل هذا بين الملوك يقدر له النجاح ، ويصحب دولته الفلاح
 ولعبد المؤمن بن علي آثار كثيرة منها بمرآ كمش بستان المسرة طوله ثلاثة
 أميال وعرضه قريب منها ، ورووا انه كان مبيع زيتون هذا البستان وفواكه ثلاثين
 الف دينار مؤمنة على رخص الفاكهة بمرآ كمش
 وقد درس هذا البستان كما درس غيره حتى جرده النصور السعدي بعد

ذلك بأربعائة وخمسين سنة

مَثَلُ آخِر

عمر حب العمران

من سيرة المنصور السعدي فاتح تنبكتو والنيجر والسودان

كان المنصور السعدي صاحب المغرب وفاتح تنبكتو والسودان وبلاد النيجر من أشهر الملوك الذين عمروا ونمروا في الاسلام . ولو لم يكن كذلك ما تمكن من ارسال تلك الجيوش الجرارة إلى تلك البلاد القاصية العاصية ، ومن تدوينها و اضافتها إلى مراكش حيث بقيت مدة طويلة نائمة للمغرب . فم له ما يفتخر الافرنج اليوم بمثل ما تقدم وسائل النقل وترقي جميع أسباب العمران أضعا فاما كانت منذ ثلاثة قرون ونصف . وكانت جيوش المنصور السعدي لا تحصى ، وكان به في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره من فنون النظام ما يدهش العقول ، وقد نلم بذلك في فرصة أخرى

والمنصور السعدي هو باني عصره الذي اذيع من حضرة مراكش مكث يبني فيه ست عشرة سنة ، لم يتخل ذلك أدنى ذرة ، وحشد المنصور له الصنائع حتى من بلاد الافرنجة ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، وكان المنصور قد أخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما ، فكان عنده سكر كثير ، فكان حسبما قالوا - ربما اشترى الرخام بالسكر وزنا بوزن

وكان المنصور السعدي الملقب بالذهبي يحتفل بالعمران إلى الغاية القصوى ، ويحسن إلى الاجراء ويجزل صلة الرفق بالبناء ، ويوسع عليهم في المطامير ، ويقوم مؤن أولادهم حتى لا تشوف اليهم نفوسهم ، ولا تشعب أفكارهم ، واما قصره «البيديع»

فلا أجد هنا فسحة لوصف محاسنه الباهرة، فن أرادہ فليقرأ ذلك في الاستقصا
او غيره من تواريخ المغرب

وأندكر آني قرأت لجبروم وجان فارو من أشهر كتاب الفرنسيين
في وصف بلاد مراکش ومن جملة ما ذكرنا بافتتان لايوصف قبة مدافن الملوك
السعديين، وقد قالوا ان فيها من بديع الصنعة مالا يخظر على بال أحد، وان من
لم يشاهد هذه القبة وما هناك من المباني «لا يعرف إلى أية درجة تناهت المدنية الاسلامية»

مثال آخر

سيرة مولاي اسماعيل

(سلطان المغرب في اواخر القرن الحادي عشر الى منتصف القرن الثاني عشر)
ومن أعظم ذوي الآثار بين ملوك المغرب بل بين ملوك الاسلام بل بين
ملوك العالم بأسره السلطان المولى اسماعيل جد العائلة الشريفة المالكة الى اليوم
في المغرب . وكان ملكه بعد الثمانين وألف للهجرة ، وهو الذي قلع الاسبانيول
والبرتغال من سواحل المغرب ، وقلع الانكليز من طنجة ، وألف الجيش الدائم
المسمى بالبخاري ، وكان مركبا من مائة ألف من العبيد السود . واستمر حكمه
أربعا وستين سنة منها سبع سنوات بالنيابة عن أخيه المولى الرشيد وسبع وخمسون
سنة بالاصالة ، حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون انه لا يموت وكان الذين يستبطنون
موته يلقبونه (بالحلي الدائم) فهو والمستنصر العبيدي الفاطمي ولويس الرابع
عشر وفرانسو جوزيف من قبيل واحد في طول مدة الحكم . وكان المغرب في طول
مدة حكمه يتمتع بالأمن الشامل

قال صاحب الاستقصا « لم يبق لأهل الدعارة والفساد محل يأوون اليه

ويعتصمون به ، ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه »
وعندي كتاب تاريخ للسلطان المولى اسماعيل بالفرنسية نقلت عنه بعض
جمل مرة في إحدى مقالاتي إلى (الشورى) وكان المولى اسماعيل مقرماً أيضاً
بالبناء ، متذكراً قول القائل :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
ان البناء إذا تعاضم شأنه أضحى يدل على عظيم الشأن

وكان يحب مكناسة الزيتون لندوبة ماؤها ، وطيب هوائها ، وسلامة مخزنها
من العفونة . فلما فرغ من أمر فس جاء الى مكناسة واشترى دور الاهالي ،
وأمرهم بالبناء في غربتها ، وأدار عليها السور وانفرد بالجانب الشرقي من المدينة ،
وجعله كله براحة ، وشرع يبني فيه ، واستجاد الصناعات من جميع البلدان ، وفرض
على القبائل عدداً معلوماً من الرجال والبهاائم يمشون به كل شهر . وفرض على المدن
والحواضر عدداً معلوماً من البتائين والتجارين والحدادين والنحاسين — إلى
غير ذلك ، وكانت حاضرة ملكه لا تخلو من عشرين ألف أسير من الافرنج
فكان يشغلهم أيضاً في ميانيه

وكان كلما انتهى من قصر بني غيره وكانت الجنان تحيط بقصوره كلها ،
وبني مسجداً عظيماً جداً في داخل القصبه التي أسسها ، فضاقت هذا المسجد بالناس
فيما بعد ، فبنى مسجداً أعظم منه اسمه (الجامع الاخضر) وجعل له بابين : باباً
إلى القصبه وباباً إلى المدينة . وجعل للقصبه ٢٠ باباً كلها في غاية الارتفاع والسعة
مقبوة من أعلاها ، وفوق كل باب منها برج عظيم ، عليه من المدافع النحاسية العظيمة
ما يقضي بالمعجب ، وجعل في هذه القصبه بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق
للترهه والانبساط . وجعل في القصبه هرباً عظيماً جداً لا خزان الحبوب يقال انه
كان يسع حاصلات أهل المغرب ، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية العمق مقبواً

عليها وبنى أعلاها برجاً عظيماً مستدير الشكل فيه مدافع موجهة إلى كل جهة
وأما الاصطبل فلا أظن أنه وجد اصطبل مثله في العالم لأن طوله فرسخ
وعرضه فرسخ (الفرسخ نحو كيلو مترين) مسقف على أساطين وأقواس عظيمة
في كل قوس مربوط فرس، وبين الفرس والفرس عشرون شهراً - كان يربط بهذا
الاصطبل ١٢ ألف فرس مع كل فرس سائس من المغاربة وخادم من اسرى الافرنج
(سقى الله تلك الايام) وفي هذا الاصطبل ساقية للماء مقبوة الظهر يأتي منها الماء
إلى كل مربوط فرس بثقب خاص، وفي وسط الاصطبل قباب معدة لوضع سروج
الخيل، وفيه هري متناه في العظمة مربع الشكل معقود أعلاه على أساطين وأقواس
هائلة لوضع أسلحة الفرسان وينفذ إليه الضوء من شبابيك من حديد من جهاته
الأربع. وفوق هذا الهري قصر اسمه المنصور ارتفاعه مائة ذراع وفيه ٢٠ قبة
في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة
الزيتون، ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله، فيه من شجر الزيتون
وجميع الفواكه ما يدهتس، ويتخلل هذه القصور التي في داخل القنصة شوارع
مستطيلة متسعة، وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وغيرها، وساحات ورحاب
فسيحة، إلى غير ذلك مما يتعذر استقصاؤه

قال صاحب (البستان) «ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال،
لم تخافها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج، ولا آفات الزلازل التي
تخرب المباني العظام، والهياكل الجسام» قال: «ومن يوم مات المولى اسماعيل
والملك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم، وبحسب طاقتهم،
ويبنون بأناقضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرميد ومعدن وغير ذلك إلى
وقتنا هذا، ونبت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من
بلاد المغرب، وما أتوا على نصفها من مائة سنة، وأما الجدارات فلا تزال ماثلة
كالجبال الشوامخ» الخ

قلت وقد مضى على ذلك من عهد هذا الكاتب نحو من مائة وستين سنة ولا تزال آثار اساميل في مكناسة الزيتون تحير العقول، و كان يمكن ان تنقى القرون وبعدها القرون، لو لم تعمل فيها المعاول والفؤس . فاما ان اولاد السلطان المذكور وحفدته كانوا يهدمون منها ويبنون بأقاضيها فهذا لعمرى شأن جميع ملوك الاسلام وأمراته وأتباعه تقريبا ، فكلنا في هذا المعنى من اولاد وحفدة المولى اساميل لا تعرف سوى هدم ما بناه لنا أسلافنا من مادي ومعنوي على السواء وان بنينا شيئا فانما نبني بأقاضي الابنية المتبقية . نحن هكذا في المشرق والمغرب لانه لا يوجد أمة يشبه بعضها بعضا مثل المسلمين

وبرغم كل ما هدمناه وعفيناه من الآثار لا يزال شيء كثير أفلت من تحت معاولنا الهادمة ونجا من بين أيدينا الطولى في التدمير . ولا تزال الافرنج تصور من هذه الآثار وتحف بها العالم المتمددين

وبين يدي مجاميع عدة من الصور الفوتوغرافية منها ما يشتمل على انداني الاسلامية في المشرق ومنها مجموعة خاصة بفلسطين ، ومنها مجموعة خاصة بالاقطار المغربية ، ومنها ما هو خاص بالاندلس . وتضمن المجموعة من هذه جنهتان وثلاثة وأربعة جنهات تسمح النفس بها لتزيين قاعة الاستقبال بمتلبها، لانها أولى بقاعات الاستقبال منها مخزان الكتب

وأما من جهة الكتب الخاصة بموضوع الفن المعاري الاسلامي فعدا ما كتب في هذا الباب في أوربة وما يبرز فيه الدكتور الفيلسوف غستانف لوبون ظهر كتاب حديث لهسيو غروسه المتخصص في تواريخ الامم الاسيوية اسمه (مدنيات الشرق) والمؤلف افرنسي اسمه Kené Groasset سبقت له مؤلفات عن الشرق الاقصى: اليابان والصين ثم عن الهند — معدودة في الطبقة العليا من التحقيق والصحة ، وفي هذه الايام الاخيرة أخرج كتابا عظيما ظهر منه الجزء الاول يبحث عن مدنيات آسية من أقرب وقت من العصر الحجري ثم المدنية المصرية

ثم المدينة الكلدانية الاشورية ثم المدينة الفارسية القديمة ثم المدينة العربية ثم المدينة الفارسية في الاسلام. وكل هذا بالرسم والصور ولا بد من أن نجعل في البحث نصيبا لهذا الكتاب لانه رفع فيه راية بيضاء للعرب وفسح لهم مكانا فسيحا عاليا من تأليفه يفتأ الحصرم في أعين الشعوبية المحدثين الذين نفر بمصر يحاولون ان يغمطوا من فضل العرب وان يفضوا من قدر حضارتهم وأن ينطحوا صخرة مجدهم بقرون عتاد ليس أمامها الا الوهي هذا - وقد يقول بعضهم : إلا ان ماترويه وتقول له انما كان في أعصر ماضية خالية ، واليوم قد تحول هذا كله وحصل الراديو والكهرباء والبخار وأنى لنا أن نباري الافرنج وقد تصرفوا بالطيارات والدبابات ووصلوا الدنيا بمضاهي بعض بالاسلكي والباخرة والسيارة الكهربائية وغير ذلك

هن كان باقيا من ينطق بهذا السخف من الشرقيين قلنا له : انك لفي ضلال مبين ، فان الرقي الاوربي لم يكن مبدؤه البخار وتموجات الهواء وانما كان مبدؤه النهوض والارادة، ومنها وصل بهم اجتهادهم في البحث والتنقيب الى استخدام قوة البخار وقوة الزيت والاستفادة من توج الهواء . فأصل الرقي هو ارادة الرقي ومعدات الصعود حاضرة لمن شاء الصعود ، ولا ينبغي للمرء أن يكون طالما بالفن حتى ينشره ويحمل الناصر عليه ، فمحمد علي كان أميا تقريبا وقد كان رجلا عظيما وسس مدينة مصر الحديثة

وابن سعود «البدوي» علي رأي أعدائه الذين يقصدون غمزه بهذه الكلمة لتمعه بدائوته عن استعمال السيارات الكهربائية والمواصلات اللاسلكية وغيرها من أسباب المدنية المصرية ، وقد وفق لذلك في وقت قصير وقد بدأ به الانقلاب المادي المدني في جزيرة العرب ، ولو كان لمملكة ابن سعود دخل الحكومة المصرية أي ٤٢ مليون جنيه في السنة لأجرى من المشروعات العمرانية في الحجاز وتجد ما لا يحظر على قلب بشر

ونعود الآن الى الحجاز ونذكر ما كان فيه وما ابتداء أن يكون فيه وما نرجو أن يكون فيه في المستقبل

خبر المطوفين في مكة المكرمة والمزورين في المدينة المنورة

نعود الى الموضوع التعلق بالحجاز خاصة ونطوف على مقام مقام منه فنبداً
بالمطوفين والزورين فنقول :

ان المطوف يكون لازماً ومتعدياً ، فاللازم هو بمعنى الطائف لان العرب تقول :
حطاف بالمكان وطوف به . فالمطوف قد يتضمن معنى الطائف وقد يصدق على
الحاج نفسه لانه يطوف (بالتشديد) بالبيت العتيق ، وقد يكون متعدياً وهو من
حطوفه مثل أطافه ، فالمطوف هو الذي يطوف بالحاج حول البيت وفي المقامات
الباركة . ومن الغريب اني لم أجد « المطوف » في كتب اللغة ولكن القياس
يقتضيه فهو اسم فاعل من طوفه او اسم فاعل من طوف به .

وأما « المزور » فهو في اللغة من يكرم الزائر ، يقال : زرتهم فزوروني ، أي
أكرموني وأحسنوا إلي . ولا شك ان هذه اللفظة تشعر عند سماعها شيئاً من الكراهية
لاشترائها في معنى آخر ، وهو الآتي من الزور ، ولكن اللفظة واسعة ، ولم من لفظ
يدل على معاني كثيرة وليس هذا منحصراً في العربية بل هو في كل اللغات .

ولفظه « المزور » بمعنى الذي يقوم بخدمة الزائر لم يوجد مع الأسف سواها
لهذا المعنى فلا بد من قبولها على علائها ، ويجوز أن تقول « المزير » بضم أوله
وهو اسم فاعل من ازاره ، ولكن العامي يستقل لفظه « مزير » وأن يقول : جاء
المزورون رأيت المزيرين ومررت بالمزيرين ، فهو يفضل أن يقول : جاء المزورون
ورأيت المزورين الخ وعدا هذا الاستقلال في اللفظ لا تتضمن لفظه « مزير »
حائضه لفظه « مزور » لأن المزير اسم فاعل من ازاره أي جمعه بزور ، وأما

الزور فهو الذي يتقدم الزائر ويكرمه ، وهو أقرب الى المعنى المراد برغم قبح اشتراكه في معنى آخر

وبالاختصار نقول : ان في الحجاز الشريف حماء الله طائفتين لا بد لتقاصد الحجاز أن يكون له علاقة معهما ولا يكاد يستغنى أحد عنهما ، وهما المطوفون بمكة والمزورون بالمدينة

فالْحَاج يَأْتِي غَرِيْبًا لَا يَعْرِفُ أَحَدًا وَالْغَرِيْبُ أَعْمَى وَلَوْ كَانَ بَصِيْرًا ، فَلَا بَدَّ لَهُ مِنْ دَلِيْلٍ يَدُلُّهُ وَيَسْمَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقْضَى حَوَائِجَهُ وَيُرْتَبِّبُ لَهُ قَضِيَّةَ سَفَرِهِ وَمَبِيْتَهُ وَيَعْلَمُهُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ الَّتِي أَكْثَرَ الْحَاجِّ يَجْهَلُهَا ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُهَا جَمَلَةً فَلَيْسَ يَعْلَمُهَا تَفْصِيْلًا . وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُهَا جَمَلَةً وَتَفْصِيْلًا فَهُوَ النَّادِرُ الَّذِي لَا يَبْنِي عَلَيْهِ حُكْمًا . وَزِدْ عَلَى هَذَا أَنَّ الْحَاجَّ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِ فَيُمْكِنُهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنِ الطَّرِيقِ وَالْمَنَاسِكِ وَالْمَنَاهِلِ وَيَزِيلُوا عَمَى الْغَرَبَةِ بِطَوْلِ السُّؤَالِ لَا مَكَانَ تَفَاهُهُمْ مَعَ الْحَاجِّزِينَ ، بَلْ حَاجَّ الْعَرَبُ لَا يَزِيدُونَ عَلَى خَمْسِ حَاجِّ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَخْمَاسِ الْآرْبَعَةَ الْبَاقِيَّةُ هِيَ مِنْ أُمَّةٍ تَجْهَلُ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ ، فَكَيْفَ يَصْنَعُ حَاجَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطُوفُونَ ؟ وَكَيْفَ تَصْنَعُ الْمَزْدَارَةَ (زَوَارِ الْمَدِيْنَةَ الْمُنُوْرَةَ) إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَزُوْرُونَ ؟

واني لا أعلم ان كثيراً من الناس يطعنون في المطوفين والمزورين بل يبالغون في ذمهم أو في ذم العدد الكثير منهم، ويقولون انهم ينهون الحاج ويجورون عليهم ويتقاضونهم من الأجرة أضماف حقوقهم ، وقد يخذعونهم ويغشونهم ويرتكبون في أمورهم كل محرم . ولقد كنت أسمع هذه القصص قبل أن حججت وقبل أن عرفت مكة والمطوفين ، وقبل أن زرت المدينة وعرفت المزورين . والمثل السائر عندنا يقول: الله يساعد من يتكلم فيه الناس بالمليح فكيف بالقييح؟ فالمطوفون والمزورون ولا سيما الفريق الاول منهم قد وتعدوا في السنة الناس من

قديم الزمان، ويجوز أن يكون بعضهم غير بريء بالمرّة من هذه التهم أو من بعضها، ويجوز أن تكون حصلت وقائع في وقت من الاوقات . وغير معقول ان طائفة كهذه تمد بالمشات وتتجاوز المئات تكون بأجمعها من الفرقة الناجية، ومن ذوي الاخلاق الفاضلة، وانه لايجوز أن يصدر عنها عمل سيء ولا تلوث بطاعة أو خديعة، فالذين يطلبون الكمال عند المطوفين والمزورين ينسون انهم بشر، وينسون انهم مرتزقون، وينسون ان أكثرهم عوام، وينسون ان رزقهم انه هو على حجاج البيت الحرام . ولو دقق الانسان النظر في المطاعن التي توجه على هؤلاء لوجد ان أكثرها مبني على كون المطوف أو المزور يتقاضى الحجاج حقه أو يضم في أن يأخذ منه بدلا من الجنيه الواحد جنبها ونصفا مثلا . والحجاج أغنياءهم عدد قليل لأن الغني في أكثر الاحيان يميل الى الرفه والترف، وهذا لاينتظمان مع الحج ومشاقه ولا سيما اذا كان الفصل صيفا، وأكثر فصول الحجاز صيف، والقسم الاعظم من الحجاج هم من طئمة المساكين الذين ليسوا من ذوي الفضلة، والذين لايقدرّون أن يعيشوا إلا ببودجة مالية متوازن واردها مع نافعها والنقعات غير الملحوظة فيها زهيدة جداً، هؤلاء لايقدرّون أن يمفقوا كما تارة هؤلاء أكثرهم يبقى سنين من حياته وهو يوفر شيئاً من رزقه ويقطع عن نفسه حتى يجتمع في يده خمسون جنبها يدخرها للحج فهو يحسب مصروفه منها بالقرش الواحد . وبديهي ان مثل هذا المستور لا يمكنه أن يفدق نعباً على المطوف أو المزور وان حالة هذا أتبه بمثل قد سمعته من عامي ظريف في أيام الدولة العثمانية : مثل طاقم العسكري لا ينشق من محل إلا ظهر جلده

ومما يؤسف ان ثلاثين في المائة من الحجاج - وربما أزيد - فقراء معدومون لا يستطيعون في الحقيقة الى البيت سبيلا وايست عليهم فريضة حج، وكنهم يحملون أنفسهم إصراراً لا قبل لهم به، فيعيشون من أكياس رفقهم ومن أكياس

أهل الحجاز وقد يصيرون عالة على المطوفين أنفسهم
 فإذا صح من هذه القالة بحق المطوفين قيراط أو قيراطان فالاثنان والعشرون
 قيراطا الباقية أقاويل تزريف على المطوفين وتزوير على المزورين
 المطوف يكاد يكون كالجمل في الحج لا يستطيع الحج بدونه . يأتي الى
 السفينة بمجرد أن تلتفت أنجرها في بحر جدة فيأخذ حاجه بيده ويضع له حوائجه
 في الزورق ، ويأتي به الى الميناء ويخرجه الى البر ، ويخلص له معاملة تذكرة المرور
 ومعاملة المكس ، ويستأ بالثي الهين نظراً للزحام ولما يجب على إدارة التذاكر
 وإدارة الجمرك من التدقيق . ثم إذا أراد الحاج أن يستريح في جدة بيته المطوف
 فيها وأركبه ثاني يوم جملا في شقذ وسار به وبنيره من أمثاله وقد حمل لهم
 زادهم وماءهم وكل شيء يلزم لهم وأوصلهم الى مكة وافرين آمتين . وأنزلهم في
 منزله مكرمين ، وقبل أن صارت الأمانة ماهي عليه الآن بحول الله ثم بابن سعود
 (إخواننا النجديون لا يجيزون في مقام كذا الا استعمال ثم وينكرن استعمال الواو (١)
 فنحن لا نقول لهم إلا « ثم ») كان المطوف يشاطر الحاج أخطار الطريق
 وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام يأخذ المطوف بيده إلى الحرم فيطوف
 به سبعا حول البيت العتيق ثم يسمى به سبعا بين الصفا والمروة يهرول فيه بين
 الميادين الاخضرين وفاقا لسنة . ويعلمه جميع أصول الحج ويلقنه جميع الكلمات
 والالفاظ التي ينبغي أن تقال في ذلك المطاف الكريم ، ويتلو أمامه الادعية التي
 يتهلل بها عند مقام ابراهيم ، وبين زمزم والحطيم

ولما كان أربعة اخماس الحاج هم من الهند والجاوي والترك والارناؤط والبشناق

(١) هذا الأدب مأثور والمراد منه الفرق في المرتبة بين ما يسند الى الرب
 وما يسند الى عباده ، وهو ما يدل عليه العصف بهم من التراخي ، واما العطف بالواو
 فهو مجرد الجمع فكان ما يسند الى الرب وما يسند الى العبد في مرتبة واحدة

والطاغستان والفرس والصين والزيج كان على المطوف في تلقين هؤلاء من أصناف الامم الاعجمية صنوف الادعية والابتهالات والجميل العربية الفصيحة التي تشقق حلوقهم بقافاتها وحآتها، وتتلبك السنتهم بضاداتها وناآتها، ما لا يقل عن تعب المعلمين للصبيان ، وما لا ينبغي أن يستخف بشأنه ولا يستهان ، ولم مرة يضطر أن يعيد له الكلمة أو الجملة وهو يقولها بعكسها ، ويافظها بنكسها ، ويقلبها عن معناها ، ويجعلها عن المراد أبعد من الارض عن سماها ، وربما اعدها له المطوف ثلاثين مرة وهو لا يقيمها ولا يفتأ يغلط فيها (١)

ولولا ان الاعمال بالنيات لكان كثير من ادعية هؤلاء غير مقبول ولكن الله سميع الدعاء ، ناظر إلى الضمائر عالم بالمقاصد ، لا يحبل اصراً على الضعيف ، وليس بصحيح قول بعضهم ان الدعاء يجب ان يكون معرباً ليكون عند الله مقبولاً . اذاً لكان سيئويه أمجج الناس دعاء

ولا يجب أن يظن ان المطوف ينحصر تلقينه هذه الادعية وهذه الجمل بالهندي والسندي والجاوي والتركي الخ ، بل هو مضطر ان يلقنها أكثر الحجاج حتى من العرب لاسيا العوام والنساء والاحداث . ولا فرق بينهم وبين الحجاج الاعاجم إلا في كون العربي يعيد الكلمة من أول مرة على وجهها ولا يذيق المطوف عرق القرية في تعليمه اياها كما هو شأن الاعجمي

وقد صارت للمطوفين وطوافيهم عادة انهم بمجرد ما يرون طائفاً يتطوف

«١» اكثر هذه الأذعية والاذكار التي يلقنونها للحجاج غير واجب ولا مسنون ، والذي ينبغي لهم هو ان يعلموا الحاج الاذكار المأثورة كالتلبية وبعض الادعية وهي قلبية وأن يدعوا الله فيما عداها بقلبه ، سائلاً اياه ما يشعر بحاجته اليه من خير دنياه وآخرته وقد اقترحت على الملك أن يأمر بتعليم المرشدين هذه المهنة تعليماً خاصاً بحيث يكونون من المتفهمين في الدين وقادريين على اتقان خدمتهم للحجاج من كل وجه ولا بد أن يفعل ان شاء الله تعالى

بالبيت العتيق جاءوا الى جانبه وجعلوا يلقنونه ما يحسن أن يقوله حتى لو كان الامام
الغزالي، أو السيد محمد رشيد رضا من أئمة زماننا، وذلك ناشئاً عن أنهم لا يعرفون
الناس ولا يفرقون بين العالم والجاهل

وقد جاءني واحد من هؤلاء وأنا أطوف وجعل يقول لي : قل اللهم كذا
اللهم كذا حتى أعيدها من بعده فقلت له : أنا غير محتاج إلى من يعلمي العربية
ولا كيف يجب ان أخاطب بها ربي

هذا والمطوف هو الذي يكفل جميع حاج الحاج وأغراضه منذ يظاً رصيف جدة
إلى ان يظاً سلم الباخرة قافلاً، فيحمله إلى مكة ثم إلى عرفة، ثم إلى المزدلفة، ثم إلى منى،
ثم يعود به إلى مكة، وإذا أراد الزيارة هيأ له جمع أسباب السفر إلى المدينة وهناك
سله إلى المزور الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة لا يتجاوز عليه غيره فيها
وإذا سأل الحاج عن أي شيء من الفلك إلى الذرة فلا بد من أن يجيبه
المطوف عليه، وإذا احتاج إلى أي شيء من الجمل إلى البرغوث فلا بد من أن
يأتيه به . وإذا وقعت له واقعة مع انسان تقضي مراجعة الحكومة فعلى المطوف
أن يرافقه الحاج إلى صاحب الشرطة ويترجم له عنده

ومما يدهش العقل أن المطوفين والمزورين يعرفون جميع لغات العالم وأكثرهم
يعرفون التركي، ومطوفو العجم يعرفون الفارسي، ومطوفو الهند يجيدون لسان
الاوردو، ومطوفو الجوى يعرفون لغة الملايو، وإن كان أكثر مطوفي الجاوى
من الجاويين المقيمين بمكة، ومطوفو البشناق يعرفون لغة الصرب، ومطوفو
الارناؤوط يعرفون لغة هؤلاء.

وقد بلغتني ان بعض المطوفين يعرفون لغة الصين ومنهم من يعرف لغة
الفيليين، والاسان التكروري شائع بمكة كأنه العربي والسودانيون ليسوا فيها بقرباء،
زد على هذا اللغات الاوربية التي يعرفها المطوفون من روسي وانكلنزي
وافرنسي وغيرها . فالمطوفون في هذا أشبه بمستخدمي الفنادق في أوربة يضطرون.

إلى معرفة لغات كثيرة لتنوع أجناس السياح الذين ينزلون بفنادقهم - لكن دائرة علم المطوفين أوسع من جهة الكمية . فالعمال في فنادق أوربة يتعلمون بخاصة الانكليزي مثلا لكثرة سياح الانكليز والامريكيين، وقد يتعلمون الاسبانيولي لكثرة سياح امريكا الجنوبية ، ولا نجدهم يعرفون التركي والفارسي والاوردو والجاوي، فما ظنك بالصيني والفلبيني، فكة أعظم معرض الاجناس واللغات ولو كان العرب على نمط الاوربيين في اتقان كل شيء ، والاستفادة من كل شيء ، والتفنن في الاستثمار والاستغلال، لو سعوا دائرة تعلم هذه اللغات على وجه الاتقان، وزادوا بها تسهيلات فريضة الحج . وكانت لهم من وراء ذلك أرباح مدهشة، وكانت العربية أيضا تستفيد لان القادمين الى مكة من تلك الامم اذا اطالوا بها المكث تعلموا العربية واستعربوا ، ولكنتنا نحن معاصر العرب برغمذ كاننا الفطري الذي لاجدال فيه نحب البقاء على الفطرة ، ولا نرغب الا فيما هو اقرب الى الطيبة . وهذا جيد في الشرقيات لافي الرياضيات ولا في الاقتصاديات

واذا مرض الحاج فالمطوف هو الذي يعمله ويأتي له بالطيب والدواء ويسهر عليه ، واذا مات فهو الذي يخبر بذلك الحكومة ويأتي ناس من قبلها ويضرب في حضورهم حوائجهم ، ولو سمي المطوف « كفلا » للحج لما كان في هذه التسمية أدنى مبالغة ، ومع هذه الكرامة الشاملة الكاملة التي فيها من الرخص والعناوت صب الفكر والمسؤولية ما فيها يكون آخر الامر جميع النحلان جنينا واحداً عن كل رقبة ، هذا هو النحلان المقرر، فمن طابت نفسه بان يزيد فذلك طائد الى سماحة نفسه ، ولا شك في أن الحاج الذي يجشم المطوف جميع تكاليفه ويريد أن يتخذ منه دايلا وحارسا ومحاميا ومفتيا وطيبيا وصيدليا وممرضاً ودلالا وغير ذلك في وقت واحد يكون ظالما إذا استكثر أن ينقده هذا المطوف في آخر السفره جنينا واحداً ولا شبهة في أن من الحجاج من يؤدي بدلا من الجنه الواحدة الجنهات الكثيرة ، والمسلمون يغلب عليهم الخير ، وقد يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ولكن لا ينكر أيضا أن كثيرا من الحجاج قد يتعذر عليه دفع الجنه الواحد أو لا يبقى في يده شيء عند الاوبة إلا ما يكفيه لاجل الوصول الى وطنه أو يقع المعجز في

«بودجته» الضئيلة من أصلها ، فتجد المطوف قد حرم مع حاج كهذا نتيجة تبعه ورضي بنصف جنيه بدلا من جنيه وقد يضطر الى أن لا يأخذ من حاجه شيئا وقد وقع لمطوفين أن أدوا الى حجاج مدممين من صلب مالهم ، وكثير من أهل مكة من يضطرون الى سد عوز بعض الحجاج ويؤدون الى هذا ما كانوا استفادوه من ذلك . وكان ينبغي للحكومات أن تمنع الفقراء من الحج وتأخذ من كل الحجاج رهائن كما تفعل بعضهم ، وذلك لان غير المستطيع لبس عليه حج ، ولان غير المستطيع بصير وقرأ على غيره في الحج فيعجز الآخرون الذين رتبوا زادهم على قدر احتياجهم ، ولم يحصلوا بينهما فسحة لتطواري وغير المنتظرة ، وكذلك لان أهل مكة والمدينة أنفسهم يضطرون الى غوث هؤلاء الفقراء ولا يقدرين أن يشاهدوهم يتضورون جوعا (١)

ولا حاجة الى بيان أن وجود مثل هؤلاء في محشر كحشر الحج هو خطر على الصحة العمومية لانهم لا يقدرين أن يعتوا بنظافة أبدانهم ولا أن يفسلوا بالصابون ولا يملكون أسباب النظافة

وقد فقد الحجاز بعد الحرب الكبرى موارد رزق عظيمة كانت تنصب اليه منها الصرة العثمانية ومنها الحج التركي الذي منعه أنقرة ومنها الصرة المصرية وصدقات الخيول التي كانت ترسل من مصر ، فهذه كلن يرتفق بها أهل الحجاز ويعيش بها فقراء الحجاج ، وأين هي الآن ؟ فلا جرم ان الحجاز أصبح لا يتحمل من الفقراء ما كان يتحملة في الاول

(١) حيا الله الأمير وجزاه خيرا بما انقرد به من بيان حال المطوفين وجيل خدمتهم للحجاج وقلة ما يأخذون من الاجرة على هذه الخدمة واستغرا به ذم بعض الناس لهم ونزهم بالطمع ، ومن بيان حال أهل الحرمين طامة في معاشهم وقد ذكر الفقهاء أن من آداب الحاج وعلامة قبول حجته أن لا يمد ما ينفقه في الحجاز مفر ما كواصم الله المنافقين وأن لا يتبجح به ، والابوذي جبر ان الله ورسوله بقول ولا فعل ولا يشكوا ، يقاسي في الحرمين من تعب ومشقة وليعتبر المنافقون الذين لا يكتفون ببسط ألسنتهم البذينة بهذه الشكاوي والمذام بل ينشرونها في الجرائد فيكون لها اسوأ الأثر في تسيط الناس عن أداء هذه الفريضة فيا ليهم لم يحجوا

اقتسام الطوفين والزورين لحجاج القطر

لقد قسم الطوفون والزورون العالم الاسلامي فيما بينهم مقاطعات أشبه بما كانت عليه الممالك في الماضي . فبلاد العرب لها مطوفون، وبلاد الترك لها مطوفون وبلاد الفرس لها مطوفون، وبلاد الافغان لها مطوفون، وبلاد الهند لها مطوفون وبلاد الجاوى لها مطوفون . وهلم جراً . وكذلك لكل من هذه مزورون . وكل من هذه البلدان الكبار تنقسم أيضا بين الطوفين والزورين إلى دوائر أشبه بالولايات التي تنقسم إلى متصرفيات . وهذه تنقسم إلى أقضية لعهد الدولة العمانية . فصر مثلاً يتقاسمها مطوفون متعددون : أناس لهم القاهرة وأناس لهم الاسكندرية ، وأناس لهم دمياط والشرقية، وأناس لهم المنيا وبني سويف والفيوم وهلم جراً . والغرب أيضا دوائر، فصراطة لها مطوفون، وبنغازي لها مطوفون ، والقيروان لها مطوفون . ووادي ميزاب له مطوفون . ولكل من الريف وفاس مطوفون . ولكل من مراكش والسوس الاقصى وتبكتو مطوفون وهلم جراً ودمشق وحمص وحماه وحلب وطرابلس وبيروت وصفد ونابلس والقدس والخليل الخ لكل الامة أو بلدين أو ثلاث منها مطوفون معلومون . ولا يتجاوز مطوف على مطوف ، ولا مزور على مزور إلا برضى الحاج نفسه . فاذا اختار حاج أزمير أن ينزل عند مطوف حاج (أماسيه) أو مطوف (كوتاهيه) مثلاً فله ذلك . وإذا راجع حاج (شيراز) مطوف (تبريز) بدلا من مطوف شيراز فلاحرج عليه في ذلك . وإذا وقع بين الطوفين في مكة أو بين الزورين في المدينة خلاف فالمرجع هو شيخ الطوفين وشيخ الزورين ، والحكومة تراقب كلا منهم ولها بين أيضاً مطوفون ولكن فائدة هؤلاء منهم لا تذكر . وليس للحجازيين ولا للنجديين مطوفون ، لانهم يعرفون المناسك كلها ولا يحتاجون إلى ادلاء .

ولا يلزم لهم من يستأجر لهم الجمال ، لان الجمال كلها لهم . ولما يستفيد منهم الحرمان الشريفان إلا بأكلهم وشربهم من السوق ومن مزايا المطوفين انهم يجوبون الاقطار ولا يستبعدون منها بعيداً ، ويجدهم حتى في الصين وكاشغر وسيام وسومطرة وجزائر الفيليين وكل بلد فيه مسلمون يرغبونهم في الحج ويسهلونه عليهم ، ويصفون لهم اللذات الروحية التي يشعر بها المتطوفون بالبيت الحرام ، والقاصدون إلى عرفات والمشاعر العظام ، والزائرون لروضة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا يزالون بهم حثاً وترغيباً واستحاثاً للنفوس واستحلاباً للعبرات إلى أن يأتوا بنفوسهم إلى الحج .
والمطوفون أينما ذهبوا يكرمهم المسلمون ويقومون بضياقتهم تبركاً بالبقاع التي صدروا عنها والبيت الذي يخدمون فيه . وهم يستفيدون بهذه الاسفار الطويلة معرفة واطلافاً ويتعلمون اللغات الاجنبية

ولو كانت أمورنا على النسق الاوربي الذي قاعدته استغلال كل شيء . لكننا أسسنا مدرسة خاصة بالمطوفين والمزورين ، يتعلمون فيها إتقان التطواف وكيفية ترفيه الحجاج والمزدارة ، وتوفير اسباب راحتهم ، وتلقينهم الادعية والاذكار الماثورة بأيسر الطرق ، وبحث الدعاية اللازمة بالاوصاف والصور ، حتى يزداد عدد الحجاج القادمين كل سنة . وهكذا تزداد مكة وطيبة وعمرانا ويزداد اهلها يساراً والحقيقة ان الحج لا يزداد ولا تزداد أرزاقه وخيراته إلا بأمرين (أحدهما) أمان الطرق (والثاني) أسباب الراحة

أما الامان فقد توافر في أيام ابن سعود الى حد لا يتطلع فيه متطلع الى مزيد وانما يرجو دوام هذه النعمة .

وأما أسباب الراحة فقد كانت تعد أسباب راحة بالنسبة الى الماضي ولا تعد كذلك بالنسبة الى الحاضر بعد أن انتشرت الاساليب المصرية في النزول والركوب

والميت وتوسيع الشوارع وتنظيفها وترصيفها وانارتها بالمصابيح الكهربائية ليلاً، ونسق الحدائق في أوساط المدائن وحواشيها، وبناء المقاهي الرائعة المزخرفة، وسائر ما يلذ العين وبشرح الصدور ولا يقدر أن يعيش بدونه المترفون ولا يتعباً لهم سرور، فلحجاج في الغابر كانوا يأتون من بلدان لا تفوق مكة والمدينة في درجة الرفاهية والانتظام او تفوق قليلاً فكان الحاج لا يشعر بين بالفرق المكاين ولا تغير عليه البيئة

وأما اليوم فقد صار أكثر العالم الاسلامي تحت حكم الافرنج، فشاهد الحجاج مدينة الانكاز في الهند وزنجبار ومدينة هولاندة في الجاوى ومدينة فرنسة في شمالي افريقية ومدينة الروس في موسكو وبروغراد وهلم جرأ، فتعود المترفون منهم رفاهة ورفاعة لا يطعمون أن يحصلوا على مثلها في الحجاز الا في قضية الطعام، فان طهارة مكة والمدينة لا يفوقهم طهارة تلك البلدان، وربما لا يساؤونهم في تطيب الطعام وتأنيقه، ولكن ليس المأكل هو كل شيء، فلا بد للمسلم المترف من أهل تلك البلدان - حتى من أهل مصر والشام والمراق - أن يأمن جهة راحته بمخاطيرها حتى يقوم بفريضة الحج

ومن المعلوم ان حج مترف واحد يعود على الحجاز بفائدة مادية أكثر من حج خمسين شخصاً من المساكين أو المتوسطين .

أما الفوائد الروحية فلسنا في هذه الجملة بصدددها . وقد نتكلم عنها في موضع آخر ونشرح ما يكفل الحج من جلائها، ولكن مع الاسف قد غلبت النزعة المادية الاوربية على الناس وصار البدن هو معبود الانسان العصري، فأصبحت لا تقدر أن تقتصر في العناية الى الحج على ذكر ما فيه من اللذة الوجدانية والراحة الروحية، وأنى لعمدة الابدان أن يشعروا بمواجيد النفوس ولذائد نعيم العرفان . وكل المدنية العصرية مبنية على مدينة أوربة وكل مدينة أوربة تقريباً هي مستغرقة

في خدمة الحواس ولسان حالها ينادي : المادة المادة
 ولا ينكر أن السيارة الكهربائية والتليفون واللاسلكي قد كفلت في
 الحجاز في السنوات الاخيرة راحات واختصارات لم يكن يعرفها من قبل، وان
 مكانها من الاهمية لا يخفى . ولكن على الدولة السعودية أن تطرد مشروعاتها
 العمرانية في الحرمين الشريفين وجدة وينبع والطائف الذي هو مصيف الحجاز
 حتى يعرف أغنياء العالم الإسلامي انهم اذا قصدوا الحجاز ، لا يرهقون عسراً، ولا
 يصادفون في شيء من اللذات التي يبيحها الشرع حرماناً، فأما اللذائذ التي لا يبيحها
 الشرع فان من فضائل الدولة العربية السعودية حظرها وسد الابواب عليها
 والتصلب في هذا الشأن

واقدم حرم الحجاز منذ سنتين او ثلاث حاج الا ناضول لان مصطفى كمال يأنى
 ان يتفق التركي شيئاً من ماله في بلاد عربية ، فهو قد أراد هذا لاجل التوفير على
 الاتراك بزعمه . وباليته احتاط للتوفير على أمته في الطرق التي ذهبت فيها الملايين
 من أموالهم إلى جيوب الافرنج كالتخمر والميسر والالبسة الافرنجية وما أشبه ذلك
 مما كان السبب في هوي تركيا الاقتصادية إلى ماهوت اليه، ومما لم يعد سرّاً مخفياً.
 فمسئلة نفقات الحج كانت نقطة من غدبر بالنسبة إلى هذه

وكذلك كان من أسباب الثورة النجدية التي استأصل الملك ابن سعود
 جرثومتها ان موقدي تلك الثورة زعموا ان الحجاج الذين يأتون من طريق البحر
 مشركون - هكذا سمعنا عنهم والعهد على الرواة - وطلبوا من ابن سعود
 أن يسد طريق الحج عليهم ، فجادلهم كثيراً في هذه المسألة فأصرروا على غيبتهم ، فقال
 لهم أخيراً : وكيف يعيش أهل الحجاز اذا سدنا هذه الطريق عليهم ؟ فقالوا له :
 يرزقنا الله وإياهم - وقد غاب عنهم ان الرزق له أسباب وان الله جعل لكل شيء
 سبباً ، وان أعظم أسباب ارتزاق الحرمين هو الحج ، وان الله تعالى أنزل في هذه
 الحقيقة قرآناً غير ذي عوج

وجوب اعتناء حكومات الدنيا بأمرها بالحج

ينبغي لحكومة الحجاز ولسائر الحكومات الاسلامية والحكومات غير الاسلامية التي غلبت على ديار المسلمين أن تعتني بقضية الحج إلى بيت مكة أشد الاعتناء . أما الحكومات الاسلامية فتعتني به من جهة انه فرض ديني مهذود من أركان الاسلام يقوم به كل سنة مئات ألوف من المؤمنين

وأما الحكومات الاخرى فتعتني به من جهة ارتباط العالم بعضه ببعض وكونه لاسيا في العصر الحاضر - أصبح جسا واحداً لا يشمر منه عضو بالتياث إلا التاثر به سائر الاعضاء . فزود ما تقي ألف شخص أو ثلاثمائة ألف شخص من أقطار الكرة الارضية كل سنة برآ وبحراً مشاة وركباناً إلى بقعة من جزيرة العرب لزيارة بيت عتيق أسس على التقوى ليس بمحدث بسيط لا يستوجب الاعتناء ، وسيأتي يوم ينتقل فيه أكثر هذا الحاج إلى بيت مكة بالطائرات ، فتزداد السهولة وتتضاعف السرعة ، وقد يزداد بذلك شدد الحجيج زيادة هائلة لاسيا إذا جد في مكة من تسهيلات الحج ما هو غير متيسر إلى حد اليوم .

ولا يزداد عدد الحجاج بالكمية فقط ، بل يزداد شأنهم من جهة الكيفية ، فيقصد مكة ذوو الترف واليسار وأناس كانوا يتوقفون عن أداء هذه الفريضة بسبب ما كانوا يخشونه من الامراض او من فقد أسباب الراحة التي ألفوها

ولا ينبغي أن يظن ان تقدم المسلمين في المعارف ورفقيهم في سلم المدينة في المستقبل قد ينتهيان بتناقص عدد حجاج البيت الحرام ، فقد آرتقت الامم الاوربية كثيراً في المدنية ، وغلبت على قسم كبير منها الفلسفة واللا دينية . ولا يزال زوار القدس من المسيحيين كل سنة عدداً كبيراً ، ولا يزال قصاد رومة كل سنة من الكاثوليك عدداً أكبر . وما يقدر العلم أن يصنع شيئاً مع الدين مادام سر

الكون النهائي لا يبرح منلقا ، وما دام الانسان عاجزاً عن مكافئة الموت ، لا بد للخلق من الدين ، وثورات الالحاد إلا غمرات ثم ينجلين
فالتزعات اللادينية والنزعات الالحادية التي تعرض على المجتمع الانساني في
الاحايين إن هي إلا عوارض مؤقتة لا يمكن ان تكسب شكلا عاما ولا ان تقوم
مقام العقائد الدينية الضرورية للبشر ، وقد سبقت لها أمثيل متعددة في تاريخ
أكثر الامم ، وعصفت ربح الالحاد في بعض الحقب ، ثم لم تلبث ان هدت
واستقرت وعاد الامر كما بدا

وفي اثورة افرنسوية الكبرى أقتلوا الكنائس ، وقلوا القسيسين، وشردوا
جميع خدمة الدين ، واغتصبوا الاوة فوآزالوا عنها صفة الوتف ، وجعلوا العبادة
للعقل ، وظن الناس ان الكنيسة الكاثوليكية في فرنسة دخلت في ذمة التاريخ
وصارت أثراً بعد عين . ولكن لم تمض بضع سنوات على هذا العمل حتى ركدت
تلك الزوبعة، وعادت العقيدة الدينية إلى نصابها ، ورأى نابليون ان عقلية الفرنسيين
قد تراجعت إلى أصلها، ففتح الكنائس وأعاد على العبادة كرامتها، ورفع منار الدين
الكاثوليكي وتزوج امبراطوراً في كنيسة نوتردام في باريز ودعا البابا إلى حضور
حفلة التتويج، فجاء البابا بنفسه، وكان يطوف بعربته في شوارع باريز والناس تخر
أمامه جثيا . وهم هم الساجدون له الآز، كانوا قبل ذلك بسنوات معدودات انقوم
الذين اتخذوا هواهم إلههم ، وأقتلوا الكنائس، وأتوا بفتاة حسناء رعبوبة فجلوها
على منصة رفيعة وخرروا لها ساجدين

فأنت ترى ان زرع الالحاد مصيرها غالباً إلى الركود ، وان الدين لن
يبرح صاحب الكلمة العليا في الارض مادامت المادة لا تقدر أن تبين عن ذات
نفسها ، ولا أن تحدث الانسان بتاريخها ، وما دام الانسان متشوقاً إلى جواب
عن هذا الوجود لا يجده إلا في الايمان بالقيس

ولذلك أقول: إنه مما ترقى الناس في العلوم والفنون لا يدرحون محتاجين إلى الديانة فزعين إلى القيب ، وانه لن ترح أماكن العبادة وخصوصاً مراكز البعث الانبياء والرسل مناباً لا يتابعهم يقصدونها من كل فج سحيق ومكة والمدينة وبيت المقدس ستبقى مقصداً للمؤمنين بمؤسسي الشرائع التي تأسست فيها ، ولو فرضنا انه اختلفت فيها مفاهيم السلائل البشرية الآتية عن السلائل الحاضرة .

وأقول: ان اختلاف هذه المفاهيم منها تنامي فلا يتجاوز جوهر العقيدة الاصيلي ، لان جوهر العقيدة مبني على العقل البشري ، ولانه ليس للره مذهب وراء العقل البشري ، فهو أول الشرائع وآخرها ، وأقدمها وأحدثها فتأويل الشرع - بعيداً ما بعد عن المفهوم الحالي - لا بد أن يبقى مربوطاً بالعقل البشري وآتلاً اليه وذلك بسبب بسيط هو ان الشرع والعقل متحدان ، وان أحدهما يصح ان يكون مرادفاً للآخر ، وانه لا يمكن الشرائع ان تأتي بما يستحيل في المقول ، إذ لو كان ذلك لهدمت نفسها بنفسها ، واعطلت الاداة الوحيدة التي يمكن فهمها بها .

وقد روي عن سيدنا علي رضي الله عنه وسمعت روايته من أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله مامناه: ان الشرائع السماوية لم تأت بشيء جديد وإنما جاءت اثاراً لدقائق القلوب . فالعقل مضمون في صلب الشرع ، كما أن الشرع مضمون في صلب العقل . وبناء على هذا المبدأ أقرر الاسلام انه هو خاتمة الشرائع ، وانه لا بد من أن يظهر على الدين كله ، كأنه يقول إن آخر ما يصل اليه الانسان من الهدى هو دليل العقل ، وهذا الدليل هو الشرع بعينه ، لان كل ما ناقض العقل هو مردود فيه ، فلا عجب أن يكون الشرع المقول هو الشرع الاخير (١)

(١) هذه العبارة فيها إجمال وغموض وهي مروية بالمعنى ، وموضوعها أن الاسلام دين الفطرة المبني على دلائل العقل ، والمسألة مفصلة مبينة في رسالة التوحيد للأستاذ الامام ، بما لا غموض فيه ولا ابهام

فما دام العقل الانساني هو هذا الذي نعرفه فالشرع قائم مؤيد ثابت في العقول سائغ في الاذهان، لا يتجافى عنه إلا من حرم سلامة الحسن الباطني وسلب أداة الإدراك . وما دام الشرع قائماً مؤيداً لا تزعه عواصف الالهواء ، ولا تميد به زعازع الشبهات، حتى يعود آمن مما كان ويعتصم به الجمهور ، فمناسك الدين وشماثره لا تبرح قائمة ، وأحكام الشرع لا تبرح جارية، ومكة تبقى مكة ، وطيبة تبقى طيبة، والمسجد الأقصى يبقى المسجد الأقصى

اعتداء الحكومات الاسلامية على أوقاف الحرمين الشريفين

من حيث قد قررنا ان الاماكن المقدسة في الحجاز لن تبرح مقصداً للمؤمنين من جميع الفجاج ، ومركزاً يجذبهم اليه بجاذبيته المعنوية من بين مطالع الشمس ومغربها، فقد تحتم على الحكومات والجماعات الاسلامية - أحرها وأسودها - أن توجه العناية إلى اصلاح أحوال هذه البقاع المباركة واجراء المقاصد التي تتحقق بها الناسبة بين طهارتها المادية وقديسيتها المعنوية

وبديهى ان هذه الامكنة وإن كان جيرانها وأصحاب الحل والعقد فيها هم من العرب وحدهم من جهة انها جزء من البلاد العربية فليس عمارها وقصاها وزوارها من العرب وحدهم ، بل هم من أمم لا يقل عددها عن ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة ، فليس من العدل أن تنحصر مهمة تنظيمها وتنظيفها وتوفير وسائل الرفاهة والفراحة فيها باهاليها الاصليين الذين لا يزيد عددهم على مليون نسمة والذين لا يتكون منهم إلا جزء من ثلاثمائة وخمسين جزءاً

بل هذه المهمة يجب أن تتوزع على المسلمين جميعاً حتى يقوموا بها متضافرين

ولا يتقصم شيء من شروط الكمال الصوري والمعنوي في هذا الوطن العام الذي يخصهم جميعاً من وجهة العقيدة .

ولا يقدر أحد أن يحتج على ارتفاع هذا الواجب عنهم بأن الحجاج يؤدون ما عليهم للمطوفين، ويؤدون رسوماً أخرى لإدارة الصحا وغيرها، وأن هذا جائز لاجل اصلاح أحوال الحجاز، كف لشقاء النفس من هذه الامنية، فإن الاجور التي يؤديها الحجاج للمطوفين لانكاد تقوم بأود هؤلاء، وأن الرسوم الاخرى التي يذكرونها إن هي إلا سداد من عوز، وأن على الحكومة الحجازية من الواجبات الضرورية ما لا يتيسر معه التوفر على الامور الكالية . ولا بد لمن ضقت ذات يده من تقديم الالم على المهم، وماذا يتطلب المسلمون من حكومة الحجاز ودخل هذه الحكومة لا يزيد على جزء واحد من أربعين من دخل الحكومة المصرية مثلاً

فالمسلمون يقدرون أن يقوموا بهذا الواجب بدون أن يضطروا إلى جمع اعانات واء تدرار أكف مما لو كانوا فملوه لكان بهم قيناً، وذلك بان يسلموا ما في ديارهم من مال الحرمين للمحرمين . فكل أحد يعلم انه لا يكاد يوجد بلدة من بلاد المسلمين كبيرة او صغيرة إلا وفيها أوقاف للمحرمين الشريفين

ولا نبالغ اذا قلنا إنه لو اجتمع ربع انعقارات الموقوفة على الحرمين الشريفين بعد رد جميع هذه المقارات إلى أصلها واستغلالها على حقها لكانت تضاهي دخل مملكة عصرية من الدرجة الثالثة، وكانت تكفي لازاحة جميع علال الحجاز واصارته من الجهة العمرانية إلى درجة لا يقل فيها عن أي قطر من الاقطار المجهزة بجميع أسباب المدنية

فبدلاً من أن يوفر المسلمون هذه الحقوق لاهلها، وأن يجنوا حاصلات هذه الاوقاف الدارة ويقدموها إلى محلها بحسب شروط واقفيها ومرصديها، لانجدهم

عنوا في شيء من الأشياء عنايتهم في نحو هذه الجبوس التي منذ ثلاثة عشر قرنا
يجود بها الآباء ويخيس بها الأبناء ، إن شرط الواقف كنص الشارع هي جملة
كادت تذهب من اذهان المسلمين قاطبة إلا من رحم ربك

فبعض هذه الاوقاف درست تماما بأيدي النظائر الخائنين ، وبأغضاء انقضاة
المواطنين على مشهد من العلماء المدلسين . وبعضها تحول عن أصله وأجري في غير
مصالح الحرمين وخولف به شرط الواقف بدون عذر ولا مسوغ شرعي ، ووجه
هؤلاء ما كتون وبعضها بقي باسم الحرمين الشريفين ولكنه برفع منه إلى الحرمين
من الجمل أذنه كما يقال

ويا ليت شعري من يفعل هذا أو من يقر على هذا فلا أدري كيف يصلي !
وكيف يصوم ! وكيف يحج ! وكيف يظن انه قام بفرائض الاسلام ؟ ولا أقول :
كيف يزكي ؟ فقد قل اليوم من يفكر بفرض الزكاة ؟ فالزكاة وتأدية حقوق
الاقواف هما من الامور التي كادت ألا توجد إلا في الكتب الفقهية يتعلمها الناس
من قبيل العلم بالشيء . لامن أجل العمل بهذا العلم .

وإذا جرى شيء من العمل بشروط الخابسين فلا يكون إلا في نفس البلاد
التي فيها الجبوس ، وهذا من خوف النظار والقضاة أن تنتقض عليهم العامة
ويستطوهم ، فأما اذا أمنوا خوف ثورة العامة فالوقف إلى الدثور ، أسرع من الماء
إلى الحدور . وعلى كل حال شرط الواقف كاد يفقد كل حرمة

وأغرب من هذا أنه لم يكف تلاعب النظار بالاقواف - ولا سببا باوقاف
الحرمين - وأغضاء القضاة والعلماء على هذه العظيمة حتى جعلت الحكومات الاسلامية
هي بانفسها تستبد باوقاف الحرمين ، وتتم إبطال ريعها إلى الحرمين غير مراقبة
شرط واقف ، ولا نص شارع ، ولا رضى خالق ، ولا لسان مخلوق

هذه هي الحكومات الاسلامية التي هي أجيرات المسلمين في مهامهم العامة

وليس في أيديها شيء إلا من فضلهم، وليست هي بإجمعها شيئاً لولاها، وإنما كان وجودها لاجل صيانة مصالحهم الدينية والدينية معاً، لا لمصالحهم الدنيوية فحسب فهذه الحكومات بلعت جانباً من هذه الأوقاف ومحت رسومه وجعلت شروط واقفيه كامس الدابر وأكلت ربيع الجانب الآخر وحولته إلى مهالك معلومة ليس لها تعلق بالحرمين الشريفين ولم تبال ما عملت، وكانت إذا رفعت إلى الحرمين حمرة دراهم، أو شحنت سفينة حبوب ظنت أنها تصدق على أهل الحجاز من مال أبيها !

وقد فشت هذه المادة الذميمة في الحكومات الإسلامية بفشو الاستخفاف بالدين، وبجعل الواجبات الدينية على المبادئ القومية، والحال أن الدين لا علاقة له بالقومية وكل منها له حدود غير موقوفة على حدود الآخر. ونحن نجد أن الفاتيكان حرجع ديني لأربعمائة مليون كاثوليكي، وهم من أجناس لا يحصى عديدها، ونجد أن خزانة البابا كخزانة دولة من الدول، ولم يمنع كاثوليك الدنيا أن يرفعوا إليه اعاناتهم وصدقاتهم - كونه طليانيا وكون الفاتيكان في ايطالية

طمس الدول المستعمرة لأوقاف المسلمين

إقتداء بحكوماتهم في الاعتداء عليها

ولما غلبت الدول المستعمرة على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، ووجدت من صنيع الحكومات الإسلامية التي ورثتها ما وجدتته في الأوقاف عموماً وأوقاف الحرمين خصوصاً حملت غب هذه المفسدة، وانخذلت منها حجة تستظهر بها في طمس الأوقاف الإسلامية وإخفاء معالمها فانها تقول المسلمين: أي لم أفعل شيئاً إلا ما كانت حكوماتكم تفعله... وأجدر بما كان يفعله المسلم بوقفه أن يفعله للمسيحي وهو لا يعتقد من حرمة مس هذا الوقف ما يعتقد المسلم

٩٠ تصرف فرنسه في أوقاف المسلمين في المغرب وسيطرتها عليها في سورية

إذا فالتلاعب بالأوقاف والحبوس كان مبدؤه من المسلمين أنفسهم، فلما غلب على بلادهم الأفرنج قلدهم فيه ولم يكن فرق بين الفريقين إلا في أن المسلمين كانوا يملكون الأوقاف بمرور الزمن أو يحولونها عما حبست عليه أو يقونها على اسم الحرمين أو أسماء الجهات الخيرية الأخرى وياكلون أكثر ارتفاقاتها ، وإن الأفرنج عند ما غلبوا على بلاد الإسلام استولوا على كثير من هذه الأوقاف ووهبوا إلى الكنائس ، وإلى جمعيات المبشرين ، وإلى الرهبان ، ورأوا بذلك الجمع بين غرضين مهمين :

أما الغرض الأول فهو طمس هذه الأوقاف من أصلها ، لأن الأفرنج لا يكرهون في الدنيا شيئاً كرههم للأوقاف الإسلامية ، ولا يخافون في مستعمراتهم من شيء كخافتهم منها ، لأنهم يعتقدون أن المسلمين إذا أحسنوا إدارتها وضبط حاصلاتها كان لهم منها منبع إمداد عظيم في أمورهم السياسية ، فلذلك تراهم يسعون بقدر طاقتهم في محو رسومها

وأما الغرض الثاني فهو إمداد المبشرين والرهبان وتوطيد أقدامهم في بلاد الإسلام ليتمكنوا من بث دعايتهم بين المسلمين مما لم يبق خافياً على أحد ومما لم يبق أدنى سبيل للكفارة فيه . فبدلاً من أن هذه الحكومات المستعمرة تشتري لهؤلاء المبشرين والدعاة عقارات وأراضي من مالها تجدد الاقصد والوقوف أن تصرفهم في أوقاف المسلمين ، فتكون أغنتهم من كيس غيرها ، وتكون جمعت بين دفع ما تعتقده ضرراً وجر ما تعتقده منفعة

والهجلية في هذه الخلية والحق يقال من بين جميع الحكومات المستعمرة هي الحكومة الأفرنسية ، فلم نعهد حكومة استطابت ظم أوقاف المسلمين مثلها ، ولا استحللت طمعتها للرهبان والمبشرين بدرجة استحلالاتها ، ولقد تمكنت منها إعادة القسطنطينية على أوقاف المسلمين في المغرب إلى حد أنها حاولت مثل ذلك في المشرق

فهي تأتي إلا أن تسيطر على أوقاف المسلمين في سورية برغم ان النصارى واليهود خبها متصرفون في أوقافهم بتمام حريتهم

وقد راجعنا في هذا الامر جمعية الامم وأوضحنا لها كيف أن الدولة «المنتدبة» في سورية ترك النصارى واليهود أحراراً في أوقافهم وتعرض لأوقاف المسلمين خاصة؟ وكيف اتهاوهبت الرهبان وقناعظما من أوقاف المسلمين في اللاذقية وغير ذلك ووجدنا لجنة الانتدابات الدائمة تؤيد رأينا في هذه المسألة وتقرح على فرنسة ترك مسلمي سورية أحراراً في أوقافهم كما هم مسلمو فلسطين التي هي تحت انتداب انكلترة، ولكن الحكومة الافرنسية لا تبرح تماطل وتتعطل في هذا الامر برغم ميل لجنة الانتدابات الى انصاف المسلمين فيه

وإذا رجعنا الى أصل البلية وجدناها من المسلمين أنفسهم، لان حكوماتهم لما كانت مستقلة ولان حكوماتهم المستقلة الباقية الى اليوم تصرفت بالاوقاف تصرفاً سيئاً مخالفاً للشريعة، منافياً للامانة، فهبت للدول المستعمرة العذر في طمسها لهذه الاوقاف أصلاً وفي هبتها منها للرهبان وسيطرتها التامة على ما أرادت ابقاءه منها للانفاق من ريعه على المساجد

ولا يزال حتى اليوم في بلاد الاسلام أوقاف لا يحصى محبوسة على الحرمين الشريفين كان يجب على حكومات هذه البلدان من اسلامية أو أجنبية أن تحسن ادارتها ولا تحتجن شيئاً من حاصلاتها لانفاقها في حاجات أخر بل ترقمها كلها الى الحرمين بحسب شروط الواقفين

وإذا قدرنا انها لا تثق بحكومة الحجاز أو بأعيان أهالي الحجاز في قضية توزيع هذه الصدقات أو انفاق هذه الاموال في وجوه الخير فليس عليها أكثر من الاشراف أو الاشتراك مع حكومة الحجاز في التوزيع أو الانفاق على المشروعات الخيرية التي باحياؤها يعمر الحجاز

ولعمري ان الاولى بهذه الحاصلات الواردة من الآفاق الى الحجاز اذا وردت أن ينفق جلها - ان لم ينفق كلها - على تأسيس ملاجئ للفقراء وللإيتام حتى لا يقوا عالة على الناس ووقراً على الحكومة وفي بناء مستشفيات ومصاح للمرضى والضعفاء الذين يكثر عددهم في الحجاز بكثرة الغرباء ولو كان هواء الحجاز يحد ذاته نقياً - وكذلك في تشييد مدارس صناعية ومشاكل يحشد اليها العاطلون من العمل والعائشون من التسول ، وعلى مشروعات أخرى خيرية عامة لا ينحرف فيها البر عن أصله ، ولا يخرج الوقف عما ربط عليه، مع التباعد فيه عما يفري الاهالي بالكل ويعودهم البطالة ويوجد عندهم عقيدة معناها ان أهل الحجاز أو أهل الحرمين الشريفين لا يجب عليهم الكسب من عرق جبينهم ولا الاشتغال بصناعة أو تجارة أو زراعة، وانما وجدوا ليعيشوا من مجرد الصدقات والمبرات وهدايا العالم لاسلامي، مما لا يليق بهم ولا ينفعهم ولا يكفيهم مهما كثر لان الانسان الذي لا يعيش من كسب يده يحد نفسه دائماً في ضيق. وقد شاهدنا ذوي الثروة والحاصلين على الكفاية من أهل مكة والمدينة انما هم من أصحاب الاشغال والمتاجر، لا من أصحاب الرواتب والمعاشات التي لا يبرح عائلاً من اعتمدها عليها

مرضي في مكة المكرمة وأسبابه

وتأثيره في أثناء أداء فريضة الحج

إذا كان الاجر على قدر المشقة فقد كتب الله لهذا العبد أجراً عظيماً. فإنه لم تمض على مقامي بقرب المقام أكثر من تسعة أيام حتى انحلت قواي واثاث مزاجي وأصبحت مريضاً تتصاعد بي الحمى إلى أن بلغت درجة الاربعين . وذلك أني من أبناء جبل لبنان ولم تألف أجسامنا الحر الشديد الذي ألفتة أجسام اخواننا أهالي جزيرة العرب لاسبابها سكان التهاثم منهم . وكنت من أصل قطري أكره الحر وأفر منه ، ولم أكن أيام التقيظ أفارق الصرود وهذا كان سبب اصطياي في عين صوفر مدة تزيد على عشرين سنة ، وقد نشأ عن شدة رغبتي في ذلك المكان أني اقتنيت فيه الكروم والعقارات وتأثلت مايقارب ثلثمائة الف ذراع مربع من الارض ، ولم تكن درجة الحرارة في صوفر تزيد بميزان ستيفراد على ٢٣ إلا نادراً ، وكذلك كنت أقوم أحيانا بعالية وحرارتها لا تعلق فوق ٢٦ أو ٢٧ إلا نادراً ، ومنذ اثنتي عشرة سنة أنا في اوربة وليست هذه القارة بالتي يشكو فيها الانسان شدة الحر ، وما أذكر أني لقيت في اوربة شيئاً يستحق اسم الحر إلا في رومة إذ صادف وجودي فيها إحدى المرار في شهر يوليو . ومن العلوم أني أقت سنوات بألمانية وهي لا تعرف الحر إلا عابر سبيل ، وأنى منذ سنوات في سويسرة وهي لا تدري شيئاً من حمارة التقيظ . وعدا ذلك ترأني في سويسرة نفسها أقضي الصيف من قنة جبل إلى قنة جبل . فتارة في القنة السماء «روشه دونيه» فوق « مونترو » وهي تعلو عن سطح البحر الفين وخمسين متراً ، وطوراً في « شتانسر هورن » فوق بحيرة «لوسرن» وهي قنة بيضية الشكل تعلو عن سطح

البحر ١٩٥٠ متراً، وأحياناً في القمم الشاهجة التي تقابلها مثل « بيلاتوس » المشرفة على لوسرن اشراق المنارة على الجامع ، ومثل « ريني » التي يطل منها الرائي على ثماني بحيرات في لحة واحدة من تنفير شاهق ، ومن شدة غرامي بهذه القنن التي قد كنت أصادف فيها اشلاج أحياناً في شهر أغسطس أتذ كراني تركت قنة « غورتن كولم » في برن وذهبت فالتجعت قنة « شتانسر هورن » في لوسرن لانها أعلى من الاولى ، وأقت هناك شهراً إلى أن جاءني كتاب من سعادة الاخ الشهم الهمام عبد الحميد بك سعيد - رئيس جمعية الشبان المسلمين الآن في مصر - امتع الله الاسلام بطول حياته ، وكان يسكن في « غورتن كولم » في الفندق الذي أنا فيه فكان يؤنبي في هذا الكتاب على تلك العزلة برأس جبل « شتانسر هورن » ويقول : لايجل لك هذا

والخلاصة ان برودة جو سويسرة كلها لم تكن تقنعني وكنت أذجع منها الشناخيب التي أستيقظ فيها صامحا فأرى الارض التي حولنا بيضاء من الثلج وذلك في ابان فصل القيظ . وقبل ذلك لما كنت في جبلنا لبنان لم تكن عين صوفرا (وهي في ارتفاع ١٣٥٠ متراً) تقنعني وتكفيني فطلما قصدت ايهل الباروك (١) وتوامات نيحا وهي تملو ١٨٠٠ متر (٢) وغير ذلك . فكيف بي الآن وقد صرت في اقليم حرارته تقابل من ٤٠ درجة بميزان سنتيفراد إلى ٥٠ وذلك لأول مرة في حياتي . لاجرم اني لم أحمل هذا الفرق الشاسع ورأيت نفسي هبطت هبطة واحدة كما يقع الزق عن الظهر لامتدرجا ولا متدحرجا

وكان قد سبق اني لما مررت بمدينة السويس منتظراً باخرة البوسطة المصرية

(١) الابهل بفتح فسكون شجر الارز وفي جنوبي لبنان بلون ايهل، وفي شماليه

يقولون ارز وكلاهما صحيح - وهو على ارتفاع اني متراه من الاصل

(٢) سميت توامات لانها عبارة عن قنين متناوحتين متجاورتين اه من الاصل

للكوب بها إلى جدة لم بشاؤا أن يمهلوني يومين ربما يأتي ميعاد سفر للباخرة بل صدر الامر بتسفيري على باخرة هندية سيئة الحال مسلوية جميع أسباب الراحة في المنام والغذاء والجلوس وكل شيء وناهيك انه كان فيها نحو ١٥٠٠ حاج وانها كانت من الواخر الصغيرة . فبعد هذا لا ينبغي لي أن أطيل الشرح وأن أقول كيف مرضت وانما أقول اني وطئت أرض جدة ملتاثا .

ثم اني لما وصلت إلى مكة نزلت في منزل سعادة ولدنا فؤاد بك حمزة وكيل الشؤون الخارجية فيبالي سريراً على السطح كما هي عادة أهل البلد الحرام في أيام الصيف . ولكن هذا السطح لم يكن مفتوحاً من جوانبه الاربعه كما هي بعض السطوح لان الباني الاصيل لذلك البيت (١) كان قد حوطه بجدران عالية فوق حامة الانسان غيرة على الحرم أن ينظر أحد هن شبحاً ولو من بعيد ، فأصبح السطح مسدوداً من كل جهاته إلا من الاعلى فلم يكن الانسان ينظر منه إلا القبة الزرقاء ، ومن عادة الناس أن يفتحوا في الحيطان نوافذ لاجل الهواء او للنظر عند اللزوم فأما هذا السطح فلم تكن في جدرانه العالية الا قرمتان أو ثلاث مشبكات بحجارة مستديرة بينها ثقب ضيقة لانكاد المسلة تدخل في الواحد منها فكانت في حكم كان لم يكن من جهة نفوذ الهواء هذا على فرض وجوده (٢)

ولما جئت لاضطجع في السرير الوثير قيل لي انه لا بد من الدخول تحت الكلة بلباقة عظيمة حتى لا يتسنى للبعوض أن يدخل ورائي فان البعوض هناك تجيب الوقاية منه، فكننت أدخلت تحت الكلة وأنا أسترق السمع حتى إذا سمعت

«١» ليس هدامن عمل باني ذلك البيت وحده بل عامة البيوت هناك منه يترك فيها حجرة بغير سقف ولا نوافذ لاجل السهر والنوم فيها مع عدم كشف الجيران ونظرم «٢» كذا في الاصل المطبوع في جريدة الشورى وهو كما ترى ولعله قد سقط منه شيء وذهل الابهير عنه عند قراءته

طنين بعوضة اجتهدت في محوها او طردها و كنت طول الليل كأني تحت الحصار
أحاذر أن تقع مني حركة يرتفع بها شيء من سجوف الكلبة فيهجم من خلال.
ذلك البعوض وتسوء العاقبة . على ان قولي « طول الليل » صورة من صور التعبير
فأني ما قدرت ولا ليلة أن أبقى تحت ذلك الحصار أكثر من ساعة لان السرير
كان مسدوداً بالسجوف السابغة والسطح كان مسدوداً بالجدران الاسكندرية
العالية ، فلم يبق من سطحه إلا الاسم والحل كان شديداً ، وبالاختصار كدت
أختنق ، وصبرت إلى أن غرق مضيبي الشاب في لجة الكرى ونزلت إلى سطح
آخر مفتوح من كل الجوانب يرقد عليه الخدم بدون أغطية ولا سجوف مسدولة
ولا خشية بعوض ولا اتقاء جرائم ، وقلت في نفسي ليفعل البعوض ما شاء فأني
تحت تلك الكلبة لأستطيع الغمض ولا دققة والنوم سلطان لا يقالب فلا بد من
طاعته ورحم الله القاتل :

إذا لم يكن إلا الاسنة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

فوجدت على ذلك السطح خشبة عارية عن الفرش اضطجعت عليها و كنت
أمشي على رؤوس أصابعي حتى لا يستيقظ أحد لا فتواد حزمة ولا خدمه فأني لأحب
أن أزعج أحداً ولا ان أسلب راحة الناس لاجل راحة نفسي . على اني لو أيقظتهم
وأزعجتهم وسلبت راحتهم فلا أعلم ماذا كانوا يقدرون أن يصنعوا لي وجميع تلك
العلل التي وقفت في حريق رقادي لم يكن مصدرها اعواز أسباب الرذة وانما
كان مصدرها الجو .. وما حياتي وما حيلتهم هم في الفلك ؟

فارتيمت على تلك الخشبة بدون وطاء سواها ولا غطاء سوى التميمص .
وهكذا أمكنني قبيل الفجر ان اهوم تهوياً أشبه باليقظة منه بالنام . ولكن لم
يصبح الصباح حتى قامت القيامة اذ استيقظ الجميع فرأوني على تلك الحالة فأخذوا
يدوكون في الطريقة التي تلزم لاجل تمكيني من الرقاد ، وبهذه المداكرات
أطاروا ما كان بدأ من تهومي ، ولاجل توفير راحتي سلبوا تلك البقية الباقية من

راحتي . وفي هذه الاثناء طامت الشمس ليس من دونها حجاب لاني كنت على
السطح كما قلنا ، وانا لم أكن أقدر أن أنام في الظل ولا في العتمة فما ظنك في
الشمس فتهدت برغم أنقي وانا اقول : يا من يأتيني بنخب عن الكرى

وأخذ فؤاد بك يفكر في الاستعدادات لمركبة الليلة الآتية ، وصاروا
ينظرون في وجوه الوسائل وقنون الذرائع حتى تمكن من الرقاد ثاني ليلية، ولكن
لم يكن في الحقيقة من وسيلة تنفع ، ولا من ذريعة تنجح، لان العلة هي شدة الحر
وعدم اعتيادي مثل هذا الجو ، وقد يقال إن فؤاد بك حزمة هو لبناي مثلي وبلدته
مصيف شهير وهي عيبة، ولم يتعود جسمه الحرارة ، ولكن بيني وبين فؤاد بك
حزمة فرق ثلاثين سنة . فقوة المقاومة التي عنده ليست عندي ، ولذلك لم يتمكنوا
في الليلة التالية برغم جميع الوسائل من أن يجعلوني أنام ، وخسر فؤاد بك المعركة
والحقيقة ان الدائرة انما كانت تدور علي وحدى لاني أنا الذي لم يكن ينام

ولما وصل الخبر عما أعانيه إلى جلالة الملك ، يمكن ذلك الاسد من الجمع بين
الاضداد من الصلابة والشمم والخنو والتواضع ، أشار بان انتقل إلى محلة الشهداء
بظاهر مكة رعيًا خلفه حرارتها عن حرارة مكة، فان لجلالته هناك مقصفاً بديعاً
أنيقاً في وسطه صهرج ماء عظيم ، وأمه بستان حديث الغرامس ، فسيح الرقعة
سيكون يوماً من الجنان المشهورة ، فكان يدري أيده الله ان بين الشهداء والبلدة
فرقا كبيراً في الجو ، والتي لو بت في ذلك المتصف الآي لجلالته لما كنت أحرم
طيب الرقاد . إلا أن مضيبي فؤاد بك لم يكن يرغب في ان التحول إلى الشهداء
خشية أن ينقصني شيء من أسباب الراحة التي لا يأمن على استكمالها إلا اذا كان
هو قريباً ، والحال أن الشهداء هي ربض من أرباض مكة ومن هذه اليها مسافة
وأنا لم أكن أريد أن آتي ملا يروق فؤاد بك، وكنت أقول في نفسي : هن ليل
قلائل أقضي مناسك الحج ثم أصعد إلى الطائف . فعلى فرض اني لم أتم هذه
المديدة ، فلن تنفذ بها قوة مقاومتي للطبيعة . ولذلك عصيت أمر الملك في هذه
وندمت ولا ندامة العصاة الذين شاقوه في السنة الماضية

الكلام على الزاهر

الشهداء هو المكان الذي يقال له في التواريخ « الزاهر » وهو اسم طابق مسماه : بسيط افصح تلعب فيه الرياح بدون مارض إلا من بعض آكام على جوانبه تزيده بهجة ، وأهاضيب وتلمات اذا أقبل الربيع تكلمت بالازاهر ، فسمي من أجلها الزاهر . وهو في ابان القيط أخف حرارة من البلدة لاسبابه غروب الشمس ، وأنى هواء وأنشط صقما . وفيه مياة تجري في تقي تحت الارض من قديم الدهر ، وبقايا قصور لاشراف الابد وسراته ، وفيه مقاه على الطريق للسابلين ، ومقاه على نجوة من الطريق يتأهبها الناس من مكة عند الغرب فيبيتون فيها وينفدون عند الصباح إلى أشغالهم بمكة ، ويكون مبيتهم على مقاعد مستطيلة في الخلاء فلا يضع الواحد منهم رأسه على عنقه إلا ثقلت أجنانه من لطف الهواء فينام إلى الغجر مستريحاً ويقوم إلى صلاة الصبح أتد من الحديد . وفي الزاهر مكان صغير اصديقنا الشيخ الشيبى الكبير سادن البيت المعظم الذي بسلامة ذوقه له في كل واد من الحجاز متجمع ، وفي كل جبل مصيف أو مرتب

ولما ودعت الحجاز بعد ايامي من الطائف تلصفت الشهم الكريم الشيخ عبد الله سليمان ناظر المدلية قأدب لي في الزاهر مأدبة ودعا الجم الصغير من كل ما في البلد الامين من سيادة تبحر أذياها ، ومجادة تضرب بعروضها أطوالها ، وبلاغة تضرب أمثالها ، وفصاحة اذا نطقت يقل من ذا قالها ، فكانت ليلة ندر أن يعرف الناس أمثالها ، وقال فيها أحد الاخوان انها ليلة من قبيل قصص ألف ليلة وليلة لكثرة ما كان فيها من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، ومصاييح منورة ، وأعلام منشرة ، ومقاعد مجللة ، وحفان من الشيزى مكللة . وناهيك بالعربي القح ، الذي

لا يعرف إلا من القاموس متى الشح ، وبين جمع بين الحجاز ونجد ، اذا ما ارتفعت راية المجد

ومن بعد ذلك بقيت في أواخر مقامي مكة أتورد إلى الزاهر عصر النهار وأتندم على فتوتي إياه قبل الحج . وكان ينشرح صدري في كل مرة أفيض فيها من وراء تلك الآكام إلى بسط الزاهر

واذا وصلت إلى المقصف الملوكي جلست طويلا على حرف ذلك الصهريج الذي ينجر مزاربه، ويكاد يتلاطم عبا به ، وقد يشتد الحر فلا تأنف من النزول إلى الصهريج والخوض فيه لاجل التبريد ، ويكون معنا من الاخوان في هذا النزول من جل قدره وعلت منزلته . وقد أمسكنا باديء ذي بدء عن النزول إلى الماء تقاديا من أن ينسب اليانا اطراح الحشمة، وتغلب الحرارة على الهمة، إلا اني تذكرت أن قاضي الجماعة بقرطبة المنذر بن سعيد البلوطي بمكانه من العلم والورع وجلالة القدر ، ومشيخة الاسلام في ذلك القطر ، قد اشتد به الحر في أحد الايام إلى حد ان أمره الخليفة الحكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر أن ينزل إلى صهريج كانا جالسين بجانبه في زهراء قرطبة — التي زرت اطلاقا هذه المرة (١) ففعل مولانا الاستاذ ولم يبال ، والحشمة والحرارة قلما يجتمعان على الشروط المرعية في البلاد الباردة

فلما كنت بقرطبة في شهر يوليو الفائت ولقيت قريبا ماقيته من سدة الحر عذرت قاضي الجماعة في خوضه صهريج الزهراء ، ولكن حر مكة المكرمة يزيد بعشر درجات على حر قرطبة ، فخوض صهريج الزاهر أقرب إلى العذر من خوض صهريج الزهراء ، وأنا أبعد عن المشيخة من القاضي منذر بن سعيد

«١» كانت كتابة هذه السطور بعد ساحة الملك الاندلسي الامام الامير

الصعود إلى عرفة في شدة المرض

ثم نعود إلى قضية التياثنا فنقول : اننا بعد قضاء بضع ليال على هذا المنوال بلغ منا النهك مبلغه ، ثم كان لا بد من أن نصعد إلى عرفة قبل لوقفة ، فأغنى علينا في الطريق وسار بنا اللذان كان معنا في العربة فؤاد بك حمزة والسيد حسين العويبي إلى منى ، فاسترحنا هناك إلى الصباح ، ولكنه لم يكن بد من الذهاب تلك الساعة إلى عرفة فذهبنا إليها وأنا على ما أنا عليه من الاعياء ، ثم أفضنا مع الحجاج الكرام عائدين إلى منى حيث بقنا ليلتين لقضاء المناسك ، فما رجعت إلى مكة وقضيت المناسك إلا وكنت مريضاً جداً مريض . ولم يتقل علي ذلك لان الحج الشريف تطهير وتمحيص ، فرجوت ان يكون المولى سبحانه قد غفر لي ذنوبي الكثيرة التي يستحق تمحيصها أكثر من هذه الاوصاب . والله غفور رحيم (يا عبادي الذين أمرتوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)

الاتهام إلى الطائف

ولما اشتد بي الضعف قلت لآخواتي : لا ينقذني مما أنا فيه إلا الطائف ، فأنا أدري بنفسي ، ومتى نشقت هواء الجبال لم يبق علي خوف ، فتردد فؤاد بك قليلاً خشية ان لا يكون قريباً مني وأنا على هذه الحال ، فقلت له : إن كنت تمجبي فدعني أصعد إلى الطائف بدون تأخير .

وقد كان هذا رأي سليمان شفيق باشا ناظر الحربية في تركيا سابقاً المقيم الآن بخدمة الملك ابن سعود ، فانه نهى عن ان أتريث ساعة واحدة ولو لاجل اعطاء التواصي اللازمة لأمير الطائف بترفيه مقامي وتوثير مسكني . وما جيء بالسيارات لاصعد بها إلى الطائف شعرت من الفرح بنشاط غريب ممن هو على تلك الحالة ، ونهضت مسرعة أستقبل الحياة من بعد ان كنت على تنية الهلاك . فسرنا إلى محطة سماء « الشرائع » على مسافة ساعتين بالسيارة من مكة ، ومن هناك رجع إلى

حكمة الاخوان السراة الافضل الذين تطفوا بوداعنا: الدكتور محمود بك حمدي مدير الصحية وفؤاد بك حمزة وكيل الخارجية، والسيد عبد الوهاب نائب الحرم عضو مجلس الشورى، وبقي معي الاخ البطل المجاهد الشهير فوزي بك القاوقجي، والاخ الفاضل الدكتور خيرى القباني الذي صدرت الارادة الملكية بان يلازمني إلى ان أنال الشفاء ونعم الاخ هو ونعم الطيب الفاضل.

وليس فيه من عيب سوى قلة الترتة والجسمة وعدم ايهام العلم الاوسع والشفاء الاسرع، فاذا استطب العليل لديه ورأى صمت وقلقلة شفتيه قال: يظهر ان المسئلة مقضية وزاده الخوف مرضاً، وقد ذات الاخ القباني ان الجسمة هي نصف الطب، وان المريض كلما سمع ألقاظا لا يفهمها وكلمات فنية لم يسمها ازدادت ثقته بالطيب، وقد يحصل على الشفاء بدون دواء. لاسيما اذا كان الطيب يعرف أن يرصف تلك الالفاظ ويسير بها بسرعة كلية، فلا يبقى تنبها عند عييله جانه أحذق الاطباء

مم اننا بعد ان رقدنا هزيعاً من الليل قلنا للسائق تقدم بنا نحو « الزيمة » فسرنا اليها ولم يمض نصف ساعة حتى بلغناها. واذا بالزيمة عين ماء ثرة لها خربير يسمع من بعيد، فلما سمعت خربير الماء أخذ مني الطرب أن نفضت الضعف عني وتزلت من السيارة وذهبت إلى العين أتمتع برؤية المساء بعد ان سمعت صوته الطرب. ثم جاءنا شيخ قرية الزيمة يدعونا إلى فك الريق — لقمة الصباح — في بيته فذهب الاخوان ولم أستطع المشي لما كان التهاك قد بلغ مني، فجاهوا إلي بالشافى إلى السيارة. ولم أنشط الى الطعام كما نشطت الى منظر الماء

ومن ثمة صعدنا بالسيارة في واد فيه كثير من شجر الطلح وممرنا ساعة من الزمن فبلغنا أعلى الوادي وهو المسمى بالسيل وعنده مقهى بسيط جداً يقوم عليه يدوي من عتيبه، إلا إنه ذو قبعة في تلك البرية. والوادي هناك قريب الماء لا يهتر

فيه الانسان ثلاثة أشبار الا أنبط . ولذلك تجد فيه عدة مناقع عذبة
وهذا هو الحبل الذي كان في الجاهلية يسمى بذات عرق وفيه يقول الشاعر:
ألا يا نخله من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
وأحسست في ذات عرق بنشاط سريع ، ومنها الى الطائف مسافة ساعتين
يمر فيها الانسان على المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ بالجاهلية ، وكنت كلما
تقدمت صوب الطائف أتمتع كاني آكل العافية أكلا . فلم يخطيء ظني اني لما
كنت من أبناء الجبال لم يكن يشفيني إلا هواء الجبال . ولم تنزل أهوية الصرود ،
ترمم ما هدمته أهوية الجروم

الكلام على ذات عرق

جاء في تاج العروس عن ذات عرق ما يأتي .
« وذات عرق موضع بالبادية كان يقال له قبل الاسلام عرق ، وهو ميقات
العراقيين ، وهو الحد بين نجد وتهامة ، ومنه الحديث « انه وقت لاهل العراق ذات
عرق » وهو منزل من منازل الحاج يحرم اهل العراق بالحج منه ، سمي به لان فيه عرقا
وهو الجبل الصغير ، وعلم النبي ﷺ انهم يسلمون ويحجون فيين ميقاتهم » انتهى
وجاء في معجم البلدان :
« وذات عرق مهيل (بتشديد اللام) أهل العراق وهو الحد بين نجد وتهامة
وقيل عرق جبل نظريق مكة ومنه ذات عرق . وقال الاصمعي ما ارتفع من
يهطن الرمة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ، وعرق هو الجبل المشرف على ذات عرق »
إلى أن يقول :

« وقال ابن عينية : اني سألت اهل ذات عرق أمتهمون أنتم أم منجدون ؟ »

فقالوا ما نحن بمتهمين ولا منجدين . وقال ابن شبيب : ذات عرق من العور
والعور من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق، ونجد من أوطاس
إلى القريتين . وقل قوم أول تهامة من قبل نجد مدارج ذات عرق «
وبالفعل نجد نفسك إذا بلغت ذات عرق وأنت ذاهب من مكة إلى الطائف
قد ارتفعت ونشقت هواء نجد . ثم إن الطريق من « السيل » الذي هو من ذات
عرق كله صعود إلى السكان الذي يقال له اليوم « القماوي » والذي يقولون أنه
كانت عنده سوق عكاظ حسبما سمعت من أهل مكة ومن أعرقهم وأعتقهم الشيخ
عبد القادر الشبي كبير نبي تيممة وصادن البيت الحرام ، ومن ذات عرق إلى
الطائف بالسيارة مسيرة ساعتين ، وبعد أن تغت ذات عرق بنحو نصف ساعة
بالسيارة نجد على يسارك مفرقا للطريق المؤدية إلى بلاد العارض من نجد ، ومن
هذه الطريق يسير الملك عبدالعزيز بن سعود عند ما يقصد الرياض وعليها تدرج
سياراته التي تبلغ أحيانا مائة وسبعين سيارة فتصل إلى الرياض من مكة في أربعة
أيام ، وهي على الجبل مسافة عشرين يوما ، ولو كانت الطريق معبدة كما يجب من
مكة إلى ذات عرق ومن ذات عرق إلى الرياض لكان من الممكن الوصول في
أقل من يومين . إلا أن تسيير طريق كهذه على مقتضى أصول هندسة الطرق ينبغي
له أموال لا تطيقها حكومة الحجاز ونجد في الزمن الحاضر ، وهي التي لا يساعد
واردها على مثل هذه الانشاءات كلها ، فإن الداخل قليل ، والحمل ثقيل ، والآمال
متوجهة إلى تمهيد هذه الطرق تدريجاً . وأما الآن فإن درجة اصلاح هذه الطرق
هي الدرجة التي يقال لها « على قدر الامكان » وتميرها السيارات بدو اليبها والخيل .
بحوافرها والابعر باخفافها وهلم جرا

الكلام على سوق عكاظ

وأما سوق عكاظ التي لم يسمع أحد بشيء اسمه اللغة العربية إلا سمع بها
فليس لها من أثر سوى الخبر وهو أنها في هاتيك المظنة . واصل لفظة «عكاظ»
هو من فعل «عكظ الشيء» يعكظه «أي عركه» . وقال ابن دريد :عكظه قهره
ورد عليه فخره ، وبه - كغراب- سوق بصحراء . بين نخلة والطائف ، يريد ان
عكاظ على وزن غراب . وقال الاصمعي :عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة
وبينه وبين مكة ثلاث ليال وبه كانت تقام سوق العرب . وقال الزمخشري : عكاظ
ماء بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفنق كانت موسماً من مواسم الجاهلية تقوم
هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوماً . قال ابن دريد : وكانت تجتمع فيها
قبائل العرب فيتما كظون أي يتفاخرون ويتناشدون . قال في تاج العروس : زاد
الزمخشري كانت فيها وقائع وحروب ، وفي الصحاح فيقيمون شهراً يتبايعون
ويتفاخرون ويتناشدون شعراً ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك

وأنشد الجوهري لابي ذؤيب

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الالوف

وقال أمية بن خلف الخزاعي :هجو حسان بن ثابت الانصاري

الامن مبلغ حسان عني مغلفة تدب إلى عكاظ

أنيس ابوك فينا كان قينا لدى القينات فسلا في الحفاظ

بني يظل بشد كبيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ

فأجابه حسان رضي الله عنه ، ولو لم يكن بالذي إذا سوجل لايملاً الدلو

إلى عقد الكرب- :

تأني عن أمية زور قول وما هو في الغيب بذي حفاظ

سأنشر ان بقيت لكم كلاما ينشر في المجنة مع عكاظ
قواف كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجزة الغلاظ
تزورك ان شتوت بكل أرض وترضح في محلك بالمقاظ
بنيت عليك ابياتا صلابا كامرالوسق قعّض بالشظاظ
بجملّة تممه شناراً مضرمة تأجج كالشواظ
كهزة ضيغم يحمي عربنا شديد مغارز الاضلاع خاظ
تفض الطرف ان القاك دوني وترمي حين أدبر بالاعاظ

كامرالوسق أي كامر حمل البعير، وقمض مبنياً للجهول معناه عطف، والشظاظ خشب عققاء محدة الطرف تجعل في عروني الجواليق إذا عكّا على البعير، والاسد الخافض المكتنز اللحم. وقال طريف بن تميم:

او كما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريفهم يتوسم

وجاء في معجم البلدان: «عكاظ بضم أوله وآخره ظاء معجمة. قال الليث: سمي عكاظ عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار أي يدعك، وعكظ دلان خصمه بالدد والحجج عكظا. وقل غيره: عكظ الرجل دابته يعكظها عكظاً إذا جسها، وتعكظ القوم تعكظاً إذا تجسوا ينظرون في أمورهم وبه سميت عكاظ، وحكى السهيلي كانوا يتفخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا، ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة. وقال الاصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثداء وبه كانت أيام الفخار وكان هناك صخور يطوفون بها ويمججون اليها. قال الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف. وذو الحجاز خلف عرفة، وبجدة بئر الظهران. وهذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيه أعظم من

عكاظ ، قالوا كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق
بجدة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي الحجاز فتقيم
فيه إلى أيام الحج انتهى

وقال في الصباح المنير : عكاظ وزان غراب سوق من أعظم أسواق الجاهلية
وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن . وقال ابو عبيد : هي
صحراء مستوية لاجل بها ولا علم ، وهي بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق
في ذي القعدة نحو من نصف شهر ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة يقال له سوق .
بجدة فيقام فيه السوق إلى آخر الشهر ، ثم يأتون موضعاً قريباً منه يقال له ذو الحجاز
فيقام فيه السوق إلى يوم التروية ثم يصدرون إلى منى . والتأنيت لغة الحجاز
والتذكير لغة تميم انتهى

قلت وقوله : ورا قرن المنازل بمرحلة أي وراء الوادي الذي يقال له اليوم
وادي محرم (بفتح فسكون) وسيأتي الكلام عليه وهو من أنزه أودية الحجاز
وهو يمتد إلى ذات عرق

واما ان عكاظ صحراء مستوية لاجل بها ولا علم فهو صحيح ، وانما رأيت .
في ذلك الموضع صخوراً كباراً ورأيت أيضاً مسابيل ماء شتوية ، وكثيراً من شجر
السدر والطرفاء هذا إذا كانت عكاظ في المكان المسمى بالقهاوي

ذكر أسواق العرب

لا ينبغي أن يظن أن أسواق العرب هي عكاظ ومجنة وذو الحجاز فحسب . بل كانت لهم أسواق عديدة غيرها . وقد جاءت في « صحح الاعشى » خلاصة هذه الاسواق ، قال :

كانوا ينزلون دومة الجندل (هذه في الشمال على حدود الشام وتسمى الآن الجوف وهي من مملكة ابن سعود) أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء ، والاخذ والعطاء ، وكان يعشوم فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - ورءا غلب على السوق كلب فيعشوم بعض رؤساء كلب . فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر (يقال ان كلبا هم الذين يقال لهم اليوم الشرارات - وقوله يعشوم معناه يقصدهم (١) أصله مخصوص بالقصد ليلا تم عم) ثم ينتقلون الى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر فتكون أسواقهم بها . وكان يعشوم في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين - ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين فتقوم سوقهم بها . ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياها . ثم يرتحلون فينزلون عدت من اليمن ايضاً فيشتررون منه اللطائم وأنواع الطيب . ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن . ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والادم والبرود . وكانت تجلب اليها من معافر (مخلاف من مخاليف اليمن تنسب اليه الثياب العافرية) ثم يرتحلون إلى عكاظ في الاشهر الحرم فتقوم أسواقهم بويتناشدون الاتعار ويشحجون ، ومن له أسير سعى في فدائه ، ومن له حكومة

(١) قال في المصباح: وعشيت به بالثقل وعشوته اطعمته العشاء (يعني طعام العشاء بالفتح) وهو الذي يتعنى به وقت العشاء (بالكسر)

ارتفع إلى من له الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم -
وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التميمي، ثم يتفون بعرفة
ويتفون مناسك الحج . اهـ

فيظهر لتقاريء من هنا أن العرب كانوا يقصدون جعل نصيب من هذه
الاسواق لكل الجزيرة العربية مما يدل على الوحدة والاتصال ، فتم بدأوا
بالشمال وهو دومة ، ثم اتشوا نحو الشرق وهو البحرين وعمان ، ثم انصرفوا إلى
الجنوب وهو اليمن ، ثم جاءوا إلى الغرب وهو الحجاز . والمسافر لم تكن تطول
عليهم مها تراخت وتناوت ، ولو لم تكن يومئذ سيارات كهربائية ، فانه لا يوجد في
البشر أقدر على طي المراحل وإنشاء المراحل من العربي ، وهو طبيعته يحترق طول
المسافات ولا يراها بالنسبة إلى همته شيئاً

على أني أرى صاحب «صبح الاعشى» أهمل « المرید » من أسواق العرب
وهو سوق عظيم في البصرة - أو عظيمة ، لان السوق تذكر وتؤنث مثل الطريق (١)
ولعل إهماله ذكرها هنا هو من أجل أنها سوق محدثة في صدر الاسلام ولم تكن
في الجاهلية ، وأصله سوق للابل ، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس . قال ياقوت
«وبه كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء ، وهو الآن بائن عن البصرة
بينها نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب» وعلى كل
حال أشهر أسواق العرب عكاظ ، ومن محفوظي هذا الشعر للفرزدق

«١» في انصحة التي قل هذه التذكير والتأنيث في عبارة صبح الاعشى
ولعلها محرفة وتذكير السوق لغة ضعيفة وقيل خطأ واما الطريق فتذكيره لغة
احل نجد والتأنيث لغة الحجاز وكلاهما تصحيح وقوله تعالى (قاضرب لهم طريقاً
في البحر يسا) يوافق اللغتين لانه وصف بالمصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث
وذهل عن هذا من قال انه جاء بلغة نجد

نبثت زرعة والسقاها كاسمها يهدي الي غرائب الاشعار
 فخلقت يازرع بن عمرو اني رجل يشق على العدو خباري
 أرايت يوم عكاظ حين لقيتني تحت الحجاج فاشققت غباري
 انا اقسما خصيتنا بيننا فحملت رة واحتملت فجار

وللاخ الفاضل المؤرخ، والشاعر المبدع السيد خير الدين الزركلي رأي آخر في مكان عكاظ، واليك ما قاله في كتيبه «مارأيت وما سمعت» الذي ألفه على رحلته الى الحجاز: «وعلى ذكر طريق السيل أو البانية لا أرى أن تفوتني الاشارة الى أشهر سوق من أسواق العرب أعني سوق عكاظ لوقوعها في تلك الضريق على مرحلتين من مكة المذاهب الى الطائف في طريق السيل يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها «القانس» بالكاف المعقودة — وهي موضع سوق عكاظ الذي لا تكاد تقرأ كتابا من كتب الادب أو التاريخ العربي الا وجدت له ذكراً فيه

وهذه الباحة التي يسمونها «القانس» هي مجتمع الطرق الى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة نشرف على جبال اليمن وبنها وبين الطائف مرحلة واحدة كل ذلك يدل على مادعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجتمهم الاكبر، ومعرضهم الاشهر، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تمليلا لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما عرفته الآن والواقف في القانس أو «عكاظ» يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة — بكسر ففتح — والآخر البهيتة — بصيغة التصغير — وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل الى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل «البانية» ثم نقل قول ياقوت عن عكاظ وختم بقوله:

«وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون ان عكاظا كان في مكان يعرف

اليوم باسم « القهاوي » في وادي لية من الطائف ، غير أن الشيوخ يؤيد ما قلناه
 آ نفا من انه هو القانس نفسه وعليه أ كثر العارفين من أهل هذه الديار اه
 أهلا يحتمل أن يكونوا أقاموا السوق مرة في القانس ومرة في السكان المسمى
 اليوم بالقهاوي ؟ على أن قول الاخ الزركلي ان القهاوي هي في وادي لية فيه نظر
 لان القهاوي ليست في وادلية ولا وادي لية هو قريب من هالك ، فقد عرفت
 وادي لية ، وسأتكلم عليه وهو الذي فيه الروض النضير ، والماء الغزير ، والدوح
 الكبير ، والكروم التي ليس لها نظير ، والرمان الذي حبه كحب اليواقيت والذي
 ذكره في البلاد يسير ، فأما مكان القهاوي الذي نعرفه جميعاً فهو صحراء مستوية
 يابسة ليس فيها الا سدر وطلح وما أشبه ذلك ، فلا امكان للتأليف بين هذا
 القول الذي سمعته وهذا الذي أذكره أة الا على شرط واحد وهو أن يكون اسم
 وادي لية يطلق على كل هاتيك الاراضي

ولقد رحم الله الحجاز بعدم دخول الافرنج اليه ، وعدم جوسهم خلاله ،
 وبعدم استطاعتهم الكتابة في جغرافيته وتاريخه ، اذ لو كان ذلك لرأينا المعجائب
 والغرائب ، ولشهدنا الهجوم طالعة في النهار ، والشمس طالعة في الليل ، ولكانت
 التعليلات على مظلة سوق عكاظ ، مما تضيق عن وصفه الالفاظ ، ولذهبوا فيها
 من المذاهب وأوردوا من المكر . مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
 قلب بشر . فواحد يقول متلا ان اختلاف هذه الروايات بين القانس والقهاوي
 قد يجعل رية في صحة كل منها . ولو قدر أن بين المكانين مسافة نصف ساعة -
 وآخر يقول : ان مكان سوق عكاظ الحقيقي محاط بالعموض بحيث لا يقدر أن
 يجزم أحد بشيء . وآخر يذكر انه توجد اسباب تدعو الى الظن بأن قصة
 سوق عكاظ مخترعة لاجل أن تتخذ دليلا على فصاحة العرب ، وآخر يقدم زناد
 الكرك فيقول : ان كون الاقرع من حس التميمي حكما في السوق دليل على انها

لم تكن في الحجاز بل في نجد لان بني تميم يسكنون في الباطن لا في الطائف .
واقربنجي أعرق في مذهب الشك من غيره يقول: من المعلوم ان محمداً كلن دعا
أصحابه الى إلغاء عادات الجاهلية كلها ، فأئمة الاسلام لاجل أن يؤكدوا صحة
باطال هذه العادات اخترعوا من عقولهم قصة معناها انه كانت تقام بقرب الطائف
في الجاهلية سوق يقال لها سوق عكاظ تجرى فيها المنافرات والمفاخرات والمساجلات
بالشعر وان محمداً ألغاهها ! وانه يوجد أمارات كثيرة تدل على أن تلفيق قصة عكاظ
هذه قد تقرر بين الخليفة والأئمة في زمن المستنصر العباسي أبي جعفر مثلاً أو في
سنة ٦٢٢ للهجرة في أواخر خلافة أبيه الظاهر أبي نصر مثلاً لانه كان قد ظهر
في ذلك العهد فقهاء متموا الحرية الفكرية، وكانوا بإمكان من التعصب الديني ! فلا
يبعد أن يكون هذا الوضع وقع في ذلك العصر !

وأخيراً تنتهي مسألة عكاظ هذه بأنه لا وجود لمكاظ أصلاً، وانها موضوعة
بعد الاسلام بكثير، وان روايات مؤرخي العرب عنها هي خيالية، وان التواطؤ
بين فقهاء الاسلام على اختراع قصص لاجل تأييد محمد قد كان أكثر مما يظن،
وأن أئمة أسباب تدعونا أن نشك في كوز الاستنباه الذي يتظاهر به مؤلفو
الاسلام أحياناً هو من الاستنباه الذي يدعو إلى التهمة . وما مائل ذلك من
(التحقيقات أو التحليلات) التي قراءتها نفي من صاحبها نسم في المعدة عن أمخاض مقبي .
ولفائل أن يقول : أهكذا تحقيقات الافرنج ، وهم الذين بلغوا من العلم
والعرفان ما بلغوا ؟

فأقول : حاشا ان يؤخذ كلامي هذا على إطلاقه . ومن الافرنج العلماء
المحققون الذين ينزهون عن مثل هذه الاقاويل المقيته ، ومن يعرفون أن شعر
الجاهلية هو الشعر المعروف بالنسب إلى الجاهلية ، وان سوق عكاظ هي التي كانت
تقام في أرض الطائف المذكورة وان الاستنباه في مثل هذه الامور خطة جائرة ،
وصفقة خاسرة ، ليست من العلم في قبيل ولا دبير .

ولكن من الافرنج أيضاً فئة متحدثقة متفاسفة في كل شيء ، مواهة بالنقض
وهدم النظريات المقررة بدون داع إلى ذلك سوى الميل الى الاطراف والاتيان

بشيء جديد. وفي الشرق أيضا تنتظون لا يسجهم إلا تقليد هذه الفنتة من الافرنج (١) وإذا جاز أن يكون شعر الجاهلية غير صحيح لزم أن تلحق به سوق عكاظ في عدم الصحة، لأنها السوق التي كان العرب يتماشدون فيها ذلك الشعر الذي زعم بعضهم انه مخترع بعد الاسلام! وعلى هذا تكون سوق المخترع مخترعة أيضا، لانه إن لم يكن الظروف صحيحا لم يكن الظرف صحيحا

الكلام على صخور تلك البلاد

بما اقتضى عجي في الطائف شكل الصخور - (عامة الطائف تجمع صخوراً على اصغار ، والحال أن فعلا بفتح أوله لا يجمع على أفعال إلا في الفاظ معلومة) فإنه غريب جداً من وجود (أولها) إن الصخور والجنادل هي بكثرة زائدة في كل هاتيك الجبال وفي السهوب التي تتخلها (ثانياً) إنها قد توجد بمجموعة في أمكنة معلومة مترا صفة بعضها إلى بعض كأنما هي مجتمعة على ميعاد (ثالثاً) إنه تغلب عليها الملائسة بخلاف صخور جبالنا الشامية التي تغلب عليها الحرسة إلا ما كان منها في الاودية السائلة (رابعاً) إن أشكال بعضها غريبة جداً، منها ما يشبه الشجر، ومنها ما يشبه البشر، ومنها ما نخل انه ينظر بعيون ، ومنها ما تحاله مطرقاً برأس ، ومنها ما هو مجوف تجويفاً يظنه الرائي من صنع البشر، او مثقوب من مكان إلى آخر . وإن كثيراً من هذه الجنادل تراه متضوداً بعضه فوق بعض ، وفي أعلى الجميع صخرة هي الرئيسية تشبه رأس المارة . والبدر يرون في هذا جمعيه يد الباري تعالى التي جملت هذه الاشكال لأجا العبدة في قدرته تعالى . ولا شك في يد الله تعالى في هذا وفي كل شيء . وأن الفرق بين العالم والجاهل هو في معرفة الاسباب للتوسطه . فالعالم يرى في الاسباب وكما ازداد علماً طالت معه السلسلة فلا يزال يرتقي من سبب إلى سبب ومن معلول إلى علة حتى يقف حماره في العقبة فيقول :

« ١٥ » ذهل الاميراء نس
 فلسفتهم على انك وان شكيد « لوز عذا احبر وا . جهيل اقوى وسائل السلم
 والتعليم وآ
 من اره في مقدمته التي وضعها لكتاب (التمد التحليلي
 في الادب) تأليف ، صديقه وصديقنا الاساذ محمد احمد اخراوى

كيفية تشكل الصخور -

لا أدري . أو يقول: هكذا خلق الله . ولما الجاهل لما يصل إلى الله يمشق
السلسلة المتوسطة (١) على أن العالم والجاهل مستويان في العجز عن معرفة الله .
فهذه الصخور التي في الحجاز لا بد من أن تكون لاوضاعها وأشكالها
هذه أسباب طبيعية متولدة عن أسباب سابقة . والذي يراها أول وهلة يحكم أن
هذه التجاويف والتقاير وهذه اللبسة وهذا التدور وهذا الرأس وغير ذلك إنما
هي من عمل الريح والماء في ملايين من السنين . وإن هذه الصخور العالية المشرفة
للتصبة على ربوس أكوام أشبه بالانصاب كأنها التماثيل التي ينحتها البشر بأيديهم
وينصونها فوق مكان مرتفع إن هي إلا بقايا صخور كانت كثيرة متلاصقة فلم تنزل
سحب الامطار الغزيرة تجرف من حولها الاثرنة اللازقة بها وتخل بموازنة بعضها
فتهوي به من محله وتجره إلى الوادي ، وتعري القائم الباقي منها وتجرده من التراب
فيصير أملس مع شدة صلابته . ولقد وجب الآن أن نذكر شيئاً عن نظريات
العلماء في شأن الصخور فنقول :

كيفية تشكل الصخور

﴿ أو سنة الله في تكوين الارض وطبقاتها ﴾

كانت الارض من قبل اليوم بمئات ملايين من السنين عرضة لهز اهزير كانية
عنيفة ، وكانت يومئذ غير مولدة ولا منبثة . وكانت سيول الامطار تغسل الارض
بدون انقطاع ، والانهار تجري فياضة إلى البحار ، وكانت تجرف كتلا عظيمة
من الطين فتصير فيما بعد صلصالا ، ويصير الرمل منها من نوع حجر المسن
ولقد عرف علماء الجيولوجيا هذه الكتل المتجمدة وما فيها من مواد وحكموا
عليها بحسب طبقاتها لانها ذات طبقات . وعندهم ان أقدم الصخور هي التي
تكونت قبل تكون الابحر المعروفة اليوم . فان الارض يومئذ كانت أسخن من
أن تتحمل بجرأ منفصلا عن بر ، وانما كانت الكرة في أول الامر كلها مائعة ،

﴿ ١ ﴾ اجدر من يعلم سلاسل الاسباب وانظام فيها ان يكون اعلم بكال خالفها

في علمه وحكمته ومشيئته وقدرته

ومياه البحار الموجودة اليوم كانت بخاراً مختلطاً بالهواء . وكانت الطبقات العليا من الهواء ملامى بالسحب المتكاثفة التي تَطُر مياها حارة فوق الصخور ثم تعود فتتبخر ثانية . وبهذه الكيفية أخذت الارض تجمد تدريجاً وظهرت الكتل التي يقال لها صخور ، وكانت هذه ذات قشرة تحتوي مادة سائلة شبيهة بمقذوفات الاطبات النارية عند ما تأخذ بالبرودة . وهذه القشرة كانت على شكل رغوة وصارت

تذوب ثم تجمد ثم تذوب ثم تجمد بدون ان يتسنى لها صلابة مستمرة

ثم مضت ألوف من القرون كان من عملها ان بخار الفضا ازداد تكاثفاً وصار يتساقط سؤه على الارض سيولا حارة فيصيب الصخور ويملاً المنخفضات والاعواط فتكونت من متلاء هذه تيمطان الابحر والبحيرات والمستنقعات، وكانت المياه تأتي إلى هذه الصخور بالرواسب التي تكونت منها الاراضي . ومن هذه الرواسب ما كان يتر كفي منخفض من الارض واماكن الهزاهز البركانية كانت لا تدع شيئاً منها يطمئن، وكانت المياه تخرج ولا تزال تكس القشرة الارضية ، فهذه الصخور مضى عليها من صنوف الاضطراب ما لا يعلمه إلا صانع الجميع من العدم وبعضها جاء طبقاتاً فوق طبق ، وبعضها قد قشرته الاضطرابات وقد برز لا يحجبه حاجب . ومنها ما انفلق ، ومنها ما انحضم بعوامل جديدة من حرارة صاهرة أو برودة مؤدية إلى الجود

ولما تكن هذه الصخور طبقات منتظمة ، لشدة ما عرت به من ادوار الاضطراب المختلفة . فتعذر على العلماء فهم تاريخها بسبب التبخر وعدم الاطراد وقد النسق ، وغاية ما عرفوا عنها وجود المواد المستحجرة مما كان نباتاً أو حيواناً . فهذا قد كان يد اليونانيون يعرفونه قبل المسيح بأربعة قرون ، وقد جرى البحث فيه بين فلاسفة لاسكندرية . ويقول الكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » ان العرب عرفوا أيضاً هذه البحوث في القرن العاشر بعد المسيح (١) إلا انه لم يبدأ العلم الحقيقي

(١) قال الامم رازي: الاشبه ان هذه المعورة كانت في سالف الزمان مغمورة في بحار فحصل فيها طين لزج كثير فتحجر بعد الانكشاف وحصل الشقوق بحفر . سيوب والرياح ولذالك كثرت فيها الجبال . وما يؤكد هذا الظن انما نجد في كثير من البحار اذ كسرناها اجزاء الحيوانات المائية كالاصدف والحيتان اهن شرح يورد

لهذه المواد المستحجرة إلا من مائة وخمسين سنة فقط، فصار الانسان يحل شيئاً فشيئاً من سطورها التي كانت مستعجمة . ولما يتفق الجيولوجيون على عمر هذه الصخور ، فان أقدمها يقدر له مليار وستائة مليون سنة ، وأحدثها عشرات ملايين من السنين

وقد كانت الارض في آمامد - لا يمكن أن يتصور العقل عددها ولا مددها - كثافة مشتملة بدون حياة ، ثم مضى عليها آمامد بقدر الاولى وهي جامدة غاية ما فيها من الحياة جراثيم في غاية الصغر تحتوي عليها أصغر نقطة من الماء . ولكن بعد ذلك دبت الحياة في الارض ووجدت مخلوقات الدابة، بدليل انهم عثروا في هذه الصخور الاصلية لسوية على مواد رصاصية وعلى اكسيد الحديد الاحمر والاسود مما استنتجوا منه سبق خلاق حية إذ لا يمكن ان تكون هذه المواد إلا بقايا خلاق كمنه .

و نقول بالاحتصار ان تاريخ ديب الحياة على الارض مةترن بتاريخ تجمد الصخور . فالكرة كانت سديماً فصارت ماء إلى ان صارت جراداً إلى ان خرج من الجراد النبات والحوان ، وقد كن هذا التحول فيها ميلها من الحرارة إلى البرودة بتولي الدهور . والجيولوجيون يرون ن هذه البرودة سنزداد إلى حد انه - بعد ملايين وملايين من السنين - موت كل م على وجه الارض من اتلاق لحية (١)

«١» هذا التقدير الذي يقدرونه لحياة الأحياء على هذه الارض هو من قبيل تقدير العمر الطبيعي لكل حي بحسب استمداده للحياة بمقتضى انظام الذي عرف بالاختبار في استكمال نمو جسده واطوار طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته ولكن العمر الطبيعي التقدر في ذلك غير العمر الحقيقي الذي يحول دون وصوله الى العمر الطبيعي بهض الاقدار الالهية من قتل او وباء او مرض لا يوفق للمعالجة بما يكون سبب الشفاء كما ونقن الاير أطول الله حياته بالصحة والسانية . كذلك الارض يظهر من نصوص كتاب الله خالقها ان لها عمرا تتهي بقيام الساعة التي قال انها « لا تأنيكم الا بنته » ووردت آيات متعددة ناطقة بأن ذلك يكون بفارعة تفرعها وصاحبة تصحها فتكون هباء سديماً كما كانت قبل تكوينها « اذا رجبت الارض رجاً » وبثت الحيات بنا * فكانت هباء منبثا » وقد فصلنا ذلك في المنار وتفسيره

فلما كانت الحرارة زائدة على الأرض لم تحمل الأرض الحياة لأن الحياة لا تتحمل الحرارة الزائدة، وعندما تنقص الحرارة تقصاً تازائداً لا تحمل الأرض الحياة، لأن الحياة لا تتحمل البرودة الزائدة، كل ذلك يدل على ضرورة التوازن لاجل الحياة ولعل بعض القراء يشتمزون من هذه المباحث « الكفرية » ويرون هذه التعميمات مما لا يأتلف مع العقيدة . وهذا خطأ محض لأن هذه الأدوار التي لا تحصى إلا بالملايين والمليارات من السنين هي أدل على قدرة الخلاق الحكيم تعالى وهي ولو طالت أضعاف ما هي لما أمكن أن يعطل لها وجود إلا بواجب الوجود وإنما إن الأرض وغيرها من الاجرام الفلكية كانت كلها كتلة واحدة من البخار ، ثم تفصلت كرات شتى وأخذت كل منها تتجمد شيئاً فشيئاً ، وإن مبدأ الحياة كان في الماء فليس إلا وفقاً للوحي النازل على محمد ﷺ وهو (أولو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي) ولكن قصور مفسرينا في العلوم الطبيعية وقف بهم عن فهم المراد من قوله تعالى في أكثر الآي الكريمة التي من هذا الضرب . وكانوا إذا قرأوا (يوم تأتي السماء بدخان) أشكل عليهم فهم الدخان هنا فقالوا أن مراده تعالى يوم تأتي السماء بجذب أو قحط، لأن الجامع يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع أو إن الجوع يقال له الدخان لما في الأرض من اليبس في الجذب بحيث يرتفع منها الغبار الذي هو كالدخان وما أشبه ذلك من التفسير التي هي أبعد من السماء عن الأرض (١) والكتاب في محكم آياته قد تأيد بظهور النظريات العلمية العصرية التي

« ١ » لقد كان للأمر مندوحة عن تخطئة هذا التفسير للإية بالاستدلال على الرأي السديمي في التكوين بقوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها . قالتا أئينا طائين) فهي نص في التكوين من الدخان الذي يطلق على بخار الماء وفسر به في الآية وعلى ما يشبهه . والآية التي ذكرها موضوع الدخان أمر برقيب حصوله في المستقبل وفيه قولان مشهوران مرويان لا رأيان للمفسرين . الأول ما ذكره الكاتب مجمل وهو مروى على أنه يجب لنزول الآية في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه والثاني أنه دخان يكون من أشراط الساعة وفيه عدة احاديث

أجمعت على الرأي السديبي في مبدأ التكوين ، وأثبتت ان هناك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وانه أشار بكلمات موجزات تلخص فيها الرأي السديبي الذي أجمعوا عليه في هذا المصمر على حين انه في زمن نزول القرآن لم يكن رأي سديبي ولا شيء من هذه النظريات وكان الذي أنزلت عليه هذه الآيات أميا لا يقرأ ولا يكتب ومن أراد أن يعلم معجزات القرآن من جهة سبقه إلى ذكر النوااميس الطبيعية التي عول عليها العلماء اليوم في أمر التكوين فليقرأ كتاب « سرائر القرآن » للفازي الفلكي الرياضي احمد مختار باشا رحمة الله (١)

قرية لقيم وكرومها ومياها

ان المسافة من المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ إلى مدينة الطائف هي نحو من ساعة جسر الكهرباء، وجميع المسافة من البلد الحرام إلى الطائف بالكهرباء نحو من خمس ساعات واول ما يستقبل الانسان في مسيره إلى الطائف هي قرية لقيم « بضم فتح فسكون » وهي قرية لطيفة فسيحة الارعاء لا يظنها من رآها قرية واحدة وذلك لتفرق بيوتها وتراخي ما بين حاراتها . والسبب في هذا التفرق أن أكثرها خاص بالاشراف وأكثرم يسكنون في بيوت منفردة مسورة تحيط بها بساتينهم ومزارعهم، فكل واحد منهم يريد أن يعيش مستقلا بنفسه في منزله وزرعه وضرعه وجميع حراقة ، ومعظم هؤلاء الاشراف هناك من ذوي ناصر واشهرهم لهذا العهد الشريف (فطن) فهو أطولهم يدا ، وأوسعهم كرما ، وأكثرم كروم عنب ، ومما لا ينبغي أن ينسى ان عنب « لقيم » هو رأس عنب الطائف في اللذة والحلاوة وان عنب وادي محرم اي قرن النازل هو رأس عنب الطائف في كبر الحجم مع الحلاوة، وتحسبه جوزا إذا رأيت ، وقد كنا نضع منه الحبة في دورق الماء فتقف في عنقه وتسدده وفي لقيم عدد غير قليل من السواني تحركها البقر لا بالدورق ان حول البير كما هو الشأن في سورية مثلا، بل بالآزول في منحدر من الارض إلى جانب البير ثم الصعود (١) قد سبقنا احمد مختار باشا الى بيان كثير من هذه المسائل في المنار وفي تفسيره

ثانية فإذا نزلت الدابة في ذلك المنحدر صعدت الظروف المعلقة بالاشيطان من قعر
 البير وقد امتلأت ماء ولم تنزل تصعد إلى أن تصبح على فم القناة التي ينصب فيها
 الماء جارياً إلى البركة ففرغت الظروف ماءها ورجعت الدابة من آخر المنحدر
 صاعدة نحو البير ، فنزلت بتلك الظروف ثانية إلى قعرها لتمتلئ ماءً وعلماً جراً ،
 وإلى اليوم لم يعتمد أهل الطائف والقرى التي حولها على الآلات البخارية
 الرافعة ولا يزالون على عاداتهم القديمة في رفع المياه ، وقد رغبتهم كثيراً في استعمال
 المحركات البخارية لما فيها من التوفير ومن زيادة الري وذكوت لهم كيف أن أهل
 المدينة النورة قد عولوا عليها في السنين الأخيرة فوجدوا فرقا عظيماً في كمية الماء
 الذي يستفيضونه واستخلصوا دوابهم التي كانت تمهلك في هذا الصعود وهذا
 النزول ، فاعتدروا بأن مياه المدينة أغزر من مياه الطائف وانهمها رفعت الآلات
 منها فلا تنزحها ، بخلاف مياه الطائف وجوارها فإن الآلة البخارية إذا اشتغلت
 بضع ساعات فوق فم قليب نزحت كل ما فيه واضطر صاحب البئر أن يعطل
 الآلة مدة ساعات أخرى حتى يجتمع فيها كمية من الماء . والحقيقة أن البداية
 كما يقال صعبة في كل عمل والا فإن آبار الطائف وقراها - وقد تسمى بالالوف -
 ليست جميعها سواء في النزارة ، ومنها آبار فائضة لا تنزحها الدلاء ولو تحركت آلاتها
 الرافعة ابلاً ونهاراً ، وقد اقتنع بهذه الحقيقة في أثناء وجودي في الطائف صيف
 سنة ١٣٤٨ صاحب السمو الأمير فيصل بنجل ذي الجلالة الملك عبد العزيز بن
 سعود - ونائبه في الحجاز عند ما يكون الملك في نجد - فأراد أن يشرع هو
 بالعمل ليقتدي به أصحاب السواني ، وبمث إلى جدة فاستحضر آلة تدار بزيت
 الغاز وأمر بتركيبها على إحدى آبار « شبرا » في أول الطائف ، وما أظن أصحاب
 البساتين إلا مقتدين بعمله لانه انما عمله لاجل أن يكون قدوة لاغير
 هذا وفي لقيم سدود كثيرة للمياه إذا شاهدها الغريب ولم يكن يعلم طبيعة
 الاقليم ظن انها اسوار للحصار ، وحقيقة الحال ان الماء في هذه البلاد عزيز فاذا

جاءت سحابة ملأت السهول والوعر وامسالت الاودية وقد تكون السحابة لم تستمر أكثر من ساعة . ثم تعود الارض فتتشف كأن لم يصبها نقطة مطر . فأهالي جزيرة العرب من قديم الدهر احتاطوا للامطار بالسدود والحواجز لتحويل المياه إلى أشجارهم وزروعهم ولعدم ذهاب اناء سدى ، ومن هذه السدود ما كان يضرب به المثل وما كانت نحيها به بلدان وقبائل مثل سد مارب مثلاً ، وكيفما تقلب السائح في جزيرة العرب وجد السدود والحواجز والقنى بين كبير وصغير ناطقة بلسان حالها انه يجب احراز المياه بقدر الامكان لانه لا يتيسر هنا في كل وقت ، ولقد صادفنا في جوار الطائف كثيراً من السدود القديمة الخربة، ولحظنا آثار عمران دراسة، كانت في أصولها جناناً ناضرة ، ومما لامرية فيه ان جزيرة العرب ملأى بهذه الآثار ولكن ليس لها كتب تقي بالتعريف عنها إلا ما كان من كتب الهمداني

و « لقيم » موصوفة بجودة الخنعة والحبوب وتلك جاء في تاج العروس «الخنطة اللقيمة الكبار السروية التي تؤتى من السراة او نسبة إلى لقيم كزبير بلدة بالطائف موصوفة بجودة العر والشعير»

وفي لسان العرب: لقيم اسم رجل ولا أدري اسميت هذه القرية باسم رجل اسمه لقيم ام هي تصغير لقم بمعنى ملريق ؟
وقد جاء ذكر « لقيم » في تواريخ الطائف

نقل ابن فهد الهاشمي المكي المتوفى سنة ٩٢٢ في كتابه (تحفة اللطائف، في فضائل الخبرين عباس ووج والطائف) عن كتاب (زيارة الطائف) لابن ابي الصيف مفتي الحرمين ان النبي ﷺ كان قد كتب إلى ثقيف كتاباً يحرم فيه صيد ووج وكانت ثقيف تتوارث هذا الكتاب وتبكر به . قال الشيخ ابو العباس الميورقي الاندلسي في كتابه « بهجة المهج » مايلي : « قال لي تميم بن حمران التميمي العوفي: قتل ابي رحمه الله تعالى في نوبة قتل الشريف قتادة الحسني لمشايخ ثقيف أهل

بني يسار من قرى الطائف وانتهاج الجيش البلاد، ففقد الكتاب في جملة ما فقدناه وهو كان عند أبي لكونه شيخ قبيلته . تم قال الميورقي بعد ذلك، قال قاضي الطائف يحيى بن عيسى رحمه الله : قتل عيسى أبي في هذه النوبة في قرية لقيم ثلاث عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وستائة ، وكان موت الميورقي رحمه الله تعالى بعد موت ابن أبي الصيف رحمه الله تعالى بتليل .

قال ابن فهد المذكور : وقد زرت هذه الآثار المباركة مع والذي رحمه الله وذلك في سنة خمس عشرة وتسعمائة خلا البئر والموقف اللذين بناحية « لية » فلم يتيسر لي زيارتهما ، ورأيت المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما خرب بل سقط بعض أروقته وجدرانه وعمر بعضها عمارة ضعيفة، وكذلك بناء الآثار النبوية التي في وسطه، وأحدث به آخور لجماعة صاحب مكة السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسيني رحمه الله تعالى ، منهم أم ولده الفارس الشجاع السيد هزاع ، وقاصده إلى الديار المصرية الشريف عنقا ووير الحسيني ، وأيس بالمسجد جمعة ولإجماعة والظاهر أنهما كانا فيه قديماً لوجود المنبر به ، وكذلك جميع القرى المتصلة بالطائف فأني لما زرتها في المرة الأولى لم أربها جمعة . ثم أن الجنب العالي القاضي نور الدين علي بن خالص المغربي المالكي النائب بجمعة بعد المقر الحسامي الأمير حسين الكردي الأشرفي لما توجه إلى جهات الهند لقتال الأفرنج المخذولين أمر أهل الحائف بصلاة الجمعة وذلك بإشارة سيدنا العلامة المفيد رئيس الحكماء نور الدين حمد بن محمد بن خضر القرشي الكازروني الشافعي فجمعوها في سنة خمس عشرة وتسعمائة واستمرت إلى أن زرت الزيارة الثانية في السنة التي بعدها وهي موجودة بعد ذلك في غير المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فإنه منفرد عن القرى وسط التربة يصعب على أهل البلاد التوجه إليه لبعده عن بعضهم وكونهم لا يسمعون النداء منه والله الأمر من قبل ومن بعد اه

(قلت) هذا قد كان يوماً من الأيام فأما الآن فالجماعة تقام في مسجد ابن عباس المعمور ويصلي فيه أهل الطائف وقراها وفي أيام الصيف عندما يكون أهل

حكة في الطائف مجتمع فيه نهار الجمعة الوف مؤلفة ثم جاء في كتاب (اهداء للطائف من اخبار الطائف) للمعجمي المكي أن في لقيم قبور بعض الصحابة والله أعلم
ومن ذكر « لقيم » الاخ الفاضل المؤرخ السيد خير الدين الزركلي الشاعر
الشهير ، فقد أتى على ذكر قرى الطائف باجمها مما لم يرد مجموعاً ولا في كتاب .
ويكفيه أن أبا محمد الحسن بن احمد الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب »
الذي لم يؤلف أحد في بابه مثله وصاحب كتاب الاكامل الشهير قد ذكر طرفاً
عن قرى الطائف لكنه لم يوفق إلى الاستقصاء الذي استقصاه الخبر الزركلي فهو
يقول عن لقيم ما يلي :

« لقيم واد «أويل خصيب يجتاز في أقل من ساعتين أوله مزارع الشدايين بعد
المليساء ، وآخره قرية الصناة على مايزعمون ، وعندى أن آخره جبل رغاف . وهو
كثير الترى والمزارع . وقد اتيت على اسمائها في مواضعها . وفي كتاب المعجمي
ان لقيما قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار . ثم قال وهي مسكن جماعة
من ثقيف يقال لهم الحمدة ، وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن في حدود
سنة ١٠٤٠ لخروجهم عن طاعته اه . والذي صح عندي أن جماعة ثقيف يسكنون
قرية المليساء وقد تدعى باسم الحمدة الذين ذكرهم المعجمي لسكنام بها إلى الآن
أما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون في مزارع
هذا الوادي وقراه . وأما اطلاق اسم الترية عليه فلا أعلم له وجهاً إلا ان كانت فيه
قرية تدعى لقيما تغير اسمها بعد زمن المعجمي وأطلق الاسم على الوادي كله « اه
قلت : المعروف الآن أن لقيما هي هذه الببوت التي تمر بها تارة تراها
عن يمينك وتارة عن شمالك قبل دخولك إلى الطائف . فأما الحدود الاصلية
للقيم فلم استعلم عنها ولماها كما قال الفاضل الزركلي

وقرأت مرة في أحد كتب الادب ابياتاً لرجل اسمه اللقيمي نظمها لتعش
حلي قبره وضمنها بحساب الجمل تاريخاً يوافق سنة ١١٧٨ وآخر هذه الابيات هو هذا

ماذا ثوى قبر اللقيمي ارخوا مستمنح العفو أسعد مصطفى

هذا ما حضرني من أمر لقيم ولا بد لي من أن أردفه بهذه النادرة لوقوعها فيها

الامم الشامل في بلاد الملك العادل

الإمام عبد العزيز السجستاني

كنت صاعداً مرة من مكة الى الطائف وكانت معي عبادة احسائية سوداء جعلتها وراء ظهري في السيارة فيظهر انها سقطت من السيارة في ارض لقيم، ولم ننتبه لها، فأخذ الناس يرون فيرون هذه العبادة ملقاة على قارعة الطريق فلا يجراً أحد أن يمسه، بل شرحت اموافل تنكب عن الطريق الاعم عمداً حتى لا تمر على العبادة خشية انه اذا اصاب هذه حادث يكون من سر من هالك مسؤولاً، فكانت هذه العبادة على الطريق أشبه بأفعى يفر الناس منها، بل لو كانت ثمة أفعى ما نجنبوها هذا لتجنب كله؟ وأخيراً وصل خبرها الى أمير الطائف محمد بن عبد العزيز من سلالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأرسل سيارة كهربائية من الطائف أتت بهاء وأخذ بالتحقيق عن صاحبها فقيل له اننا نحن سررنا من هناك وان الارجح كونها سقطت من سيارتنا، فجاء الامير ثاني يوم يزورنا وسأنا: هل فقدت لكم شيء من حوائجكم في أثناء مجيئكم من مكة؟ فأهبت برفاقي ليفتقدوا الحوائج فافتقدوها فاذا بالعبادة السوداء مفقودة وكنا لم ننتبه لفقدانها، فقلنا له: عبادة سوداء احسائية قال: هي عندنا وقص علينا خبرها

وقد آيت على هذه النادرة هنا مثلاً من أمثال لا تمد ولا تمحى من الأمن الشامل للقبيل والكثير في أيام ابن سعود مما لم تحدث عن مثله التواريخ حتى اليوم. فالمكان الذي سقطت فيه العبادة كان في الماضي كثيراً ما تقع فيه وقائع السلب والقتل ولا يمر الناس فيه إلا مسلحين. فأصبح اذا وجدت اقطعة هناك على قارعة الطريق تجنب الناس الطريق لثلاثتهم اياها اذا فقدت، وكل يوم يأتي الشرطة والخبراء والعسس بلقط وحاجات ضائعة مما فقدت السفار أو سقط بدون انتباه عن الاكوار وذلك الى دائرة الامن العام فتبحث عن أصحاب هذه اللقطات وتردها لهم بتامها بما يقضي بالمعجب. وإليك لتجد هذا الأمن ممدود الرواق على جميع البلدان التي ارتفعت فيها

رواية ابن سعود من منجد ومنتهم ومعرق ومشتم بدون استثناء ، وقد علل بعضهم هذا التأمين البليغ للسوابل بأنه من أركان عقيدة الوهابيين الذين يقولون :
وما الدين إلا أن تقام شعائر وتأمين سبل بيننا وشعاب
قلت أياً كان السبب في هذا الأمان فإنه نعم العمل ولا يوجد معنى للحكومة إن لم تكن أول نمراتها الأمن والعدل ، ولو لم يكن من مآثر الحكم السعودي سوى هذه الأمانة الشاملة الوارفة الظلال، على الأرواح والأموال، التي جعلت صحاري الحجاز وقيافي نجد آمن من شوارع الحواضر الأوربية. لكان ذلك كافياً في استجلاب القلوب اليه، واستنطاق الألسن في اثناء عليه ، فأيوم نجد التاجر والغلاج، والحادي والملاح، والحاج القاصد على الضواصر أو على الجوارى المنشآت بالدمر والألواح ، يتحدثون بنعمة هذا الامن الذي أنام الانام بلاء الاجفان ، وجعل الخلق يذهبون ويميشون في هاتيك الصحاري ، وقد يكون معهم الذهب الرنان، وهم بلا سلاح ولا سنان، فلا تريد من هذه الجهة مزيداً وإنما ترجو لهذه النعمة الدوام، فلا عمران للبلاد إلا بالامان والاعتماد

ذكر أمير الطائف الملقب بالصحابي

ليس أمير الطائف المشار اليه هو المنفرد بمزية الضبط والربط في الامارة التي عهد بها اليه ، بل هذه الحلية عامة للامارات والولايات التي يظلمها لواء ابن سعود كلها ، إلا أن أمير الطائف محمد بن عبدالعزيز... بن عبد الوهاب وهم يقولون ابن الشيخ - هو نسيج وحده في أخلاقه وتقواه وورعه، ونقاء سريرته وزكاه سيرته، فقد ندر أن ينمقد الاجماع على حب وال انعقاده على حب أمير الطائف الذي لم أسمع من أحد من أهالي هذه البلاد حضرها ووبرها - إلا نعمة واحدة بحته، وهي الثناء الجميل ، ولحسن أخلاقه واستقامة طباعه يتقبونه « بالصحابي » وقد أقمت بالطائف زهاء أربعة أشهر وهي مدينة صغيرة لا يخفى فيها شيء ، فما عرفت عن هذا الملقب بالصحابي إلا ما ثبت لهذا الرجل مثل أخلاق الصحابة، أكثر الله من أمثاله

الكلام على الطائف

اول ما يدخل الانسان إلى الطائف، بل أول ما يعطل على تقيم يشعر بالسروور وينشرح صدره انشراحاً لا يهدده إلا في النادر من البلدان .

نقل عن الاصمعي انه قال: « دخلنا الطائف فكأنني كنت أبشر وكأن قلمي ينضح بالسروور ولا أجد لذلك سبباً إلا انفساح حدها وطيب نسمتها »

قلت أما انفساح حدها فإنها في بسيط من الارض أفيح، يسرح فيه النظر ماشاء أن يسرح، وحولها بعض جبال طالية ترى من بعيد، وأهاضيب ترى من

قريب، وجميعها لانهم الطائف في شيء، وهي مع هذا الانفساح والانفراج ولاستواء في الارض تعانق نحو ألف وستائة متر عن سطح البحر، وأما طيب النسمة فذلك تحس فيها من لا تشش وسعة التنفس سلا تشعر به في مكان،

وقد كان أصابني في سويسرة زكام في شعب الرثة لعل أصله من البرد، فكان

يضيق به نفسي كثيراً لاسيما اذا استطل الشغل، فما مضى علي في الطائف إلا قليل حتى ذهب هذا الزكام بتمامه وصار الهواء يجري في رئتي كأنه في صحراء،

ولما رجعت الى أوربة قل لي الاطباء بمد العناية انه لم يبق هناك أثر لشيء . يقال

له زكام في شعب الرثة، ولم يكن هذا بأول فضل للطائف علي، بل هواء الطائف

هو الذي شفاني باذن الله - بل الله هو الذي شفاني به - من الضعف الذي كنته

منه على شفا، فلا عجب فيما رواه ابن عراق من أنهم تروا يقبضون من يصيف

بالطائف . وفيما يروى عن معاوية بن أبي سفيان من قوله: أنهم الناس عيشاً من

يقبض بالطائف ويشتوي بمكة ويرجع بمكة .

وقال الفاكهي في تاريخ مكة: كان لله - عز وجل - فضل على الطائف فما مضى

وكان الخليفة يوليها رجلاً من عنده واليها يجوز

ووجد بخط الشيخ أحمد العبدري وقع الكلام

في ترجيح سكني الحجاز على سائر الاقاليم بين نواحي الحجاز

ومكة والمدينة فوق الاتفاق على ان الطائف أقرب للسلامة والسنة، لعدم مصاحبة أهل الاهواء ورؤية من يقسي القلب من ذوي الاطماع . ولم تزل الطائف مصيفا لمكة جاهلية وإسلاما الى يومنا هذا ، وهي في نظري حارة من مكة خاصة بأيام الصيف ولا غنى لمكة عنها

أول ما يستقبل الانسان من الطائف هو قصر شجرة الذي يخص الاشراف ذوي عون ، وهو قصر شاهق حوله بستان طويل عريض هو أكبر بستان في للطائف . وجميع الاراضي التي هناك على مسافة بعيدة هي من مضم القصر . وقد بنى إلى جانبه الشريف علي باشا أمير مكة سابقا - وهو مقبم الآن بمصر وعهدي به يمكن بجوار قصر القبة بضاحية الزيتون من ضواحي القاهرة - قصرأ بدأ بها ملوكيا أنفق عليه عشرات الألوف من الجنيهات فجاء أنخم بنية في الطائف بل في جميع الحجاز وفي هذا القصر نزل السلطان وحيد الدين محمد السادس آخر سلاطين بني عثمان عند ما جاء إلى الحجاز بعد خلمه وذلك بدعوة الملك حسين ابن علي الذي كان صاحب الحجاز وقتئذ .

وعند ما يصف في الطائف الملك عبدالعزيز بن سعود صاحب الحجاز ومجد وملحقاتهما يكون نزول جلالته بهذا القصر ولقد سمي الاشراف ذوو عون هذا القصر بشجرة على اسم شجرة الشهيرة بمصر (١) وذلك والله اعلم لان أمراء مكة المشار اليهم أصدقاء من قديم الزمان لاسرة محمد علي الجالسين على سرير الكنانة .

وسبب هذه العلاقة القديمة هي انه لما هاجم الوهابيون الحجاز في القرن الماضي واستولوا عليه كان يلي الامر فيه الاشراف ذوو زيد وجميع هؤلاء الاشراف سواء من ذي زيد أو من ذي عون أو من ذي ناصر أو من فروع آخر

«١» شبرا مصر تكتب بالالف قال في القساموس : وشبرا ككسوري ثلاثة وخمسون موضعا كلها في مصر وقد بن شارحه الزبيدي مواضعها ولكنه كتبها بالالف العمودية « شبرا » كما يكتبونها في مصر الى اليوم

عديدة يجتمعون في الحسن بن أبي نهي من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما (١) وقيل في ن عددهم في الحجاز يزيد على عشرة آلاف ، إلا ان فرعا منهم نفرد بالامارة في خبر لو اردنا شرحه يطول جداً هو فرع ذي زيد نسبة للشريف زيد بن محسن أمير مكة في حدود سنة ١٠٤٠ وهؤلاء الذين منهم الامير عبد المطلب الذي ولي إمارة مكة ثلاث مرات والذي حفيده الامير علي حيدر باتا وقد ولته الدولة الامارة في أيام الحرب بعد ان ثار عليها الشريف حسين بن علي وتآقت ملكا ، فصار هذا الفرع الذي يقال له ذوو زيد أشبه بالبوربون ملوك فرنسا بجمعهم وآل اورليان نسب آل « كاييت » الا ان الملك منحصر في آل بوربون وبني الامر كذلك في فرنسا الى ان سقط شارلس العاشر سنة ١٨٣٠ فنولى الملك بعد لويس فيليب من آل اورليان .

وهكذا كانت امارة الحجاز منحصرة في ذوي زيد الى ان استولى الوهابيون على الحجاز ، وعجزت الدولة عن اخراجهم منه فرمتهم بمحمد علي والي مصر الذي جرد عليهم الجيوش واثبت قاتلهم نحو عشر سنوات إلى أن أخرجهم من الحجاز ، فكان اقتراحه على الدولة اخراج امارة الحجاز من ذوي زيد وتولية أمير من غيرهم من الاشراف . فتلكأت الدولة بأدى ذي بدء عن اجابة طلبه الا انه مازال يلح بذلك ويبرم إلى ان تمكن من تولية الشريف محمد بن عون أميراً على مكة ، ومن ذلك الوقت صارت الامارة مداولة بين الفرعين ذوي زيد وذوي عون بعد ان كانت منحصرة في الفرع الاول

« ١ » هو الحسن بن ابي نهي محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن ابي نهي محمد بن ابي سعيد الحسن بن علي بن قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (رض) وكانت وفاة الحسن بن ابي نهي سنة عشر بعد الالف اء من الاصل

وقد كان يحدثني في الاستاثة بهذه الامور التاريخية الشريف عبد الاله باشا
 أخو الشريف عون الرفيق باشا الذي كان تولى اماره مكة أكثر من ٢٠ سنة
 في أيام السلطان عبد الحميد، وهو عم الملك حسين . وقد تولاهما الشريف عبد الاله
 نفسه أيضا عند وفاة أخيه لكنه توفى إلى رحمة ربه قبل ان يبرح الاستاثة. وكان
 الشريف عبد الاله رحمه الله ذامقام سام في عاصمة آل عثمان ، وكان عى خلق
 عظيم لا يعرفه أحد إلا بالبع في اجلاله ، وقد كنت كثيرا أسمر عنده وكان له
 إلى ميل أكيد وبى ثقة شديدة ، فقلما كان يسترسل في الكلام لسياسي في مجالسه
 الا سامي . وكان يحدثني اذا خلا المجلس بقصص كثيرة من جملتها هذه القصة
 وهو ان محمد علي باشا جد الاسرة المالكة بمصر هو الذي نصب والده محمد بن
 عون أميراً على الحجاز وهو الذي وهبته الاراضي التي لهم في مصر وهو الذي
 أولاهم تلك النعم الجسام

ومنذ أصبحت اماره الحجاز بين هذين الفرعين اشتد الخلاف بينهم وهو
 بديهي . وقد اختلفا في كل شيء لا في شيء واحد . هو أنهم جميعا اتفقوا على
 الاستثمار بحسن الاراضي وأجل نوبه في ذلك التضر، ولا سيما الطائف ونواحيها
 وقد يكون ذلك خيرا للبلاد لانهم يمكنهم من الامارة أقدر على الامارة
 والتأيل من غيرهم

ففي الطائف المياه كلها ترفع بالسواني وليس في البساتين إلا آبار مركبة على
 قواها الدواليب . والباء الجاري من نفضه هناك إنما هو عينان غزيرتان لاغير
 احدهما عين سلامة والاخرى عين المشاة

فاما عين سلامة فهي تخرج في قرية بهذا الاسم هي الآن حرة من حررات
 الطائف واقعة على جانب الوادي الذي يقل له وج . قل الحمداني في صفة جزيرة

العرب « وفي قبلة الطائف حائط أم القنندر الذي يدعى سلامة » فيظهر انه كان لام الخليفة القنندر هناك بستان يسقى بهذه العين
وقال ياقوت في معجمه « السلامة بلفظ السلامة ضد المطب قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي ﷺ ، وفي جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابه رضي الله عنهم »

وقال الشيخ حسن المجيمي السكي في كتابه اهداء الطائف « ومنها قرية السلامة وهي كثيرة البيوت والبساتين وبها عين ولا أعلم متى كان ابتداء عمارتها إلا انها كانت معمورة في أوائل القرن التاسع . وبها كان ينزل أعيان مكة وفضلاؤها بل غالب أهلها ثم خربت في حدود الثمانين ونحوها أهلها عنها ولم يبق منهم إلا القليل الخ »

وقال الخبير الزركلي حفظه الله في « ما رأيت وما سمعت » : سلامة قرية محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس كثيرة البيوت بعضها عامر وبعضها خرب ، سكانها قليلون من قريش وغيرها . ثم قال : هي الآن في ظاهر البلدة يفصل السور بينها وبين قبة ابن عباس . ثم قال : ان الشريف سروراً نزل بها سنة ١١٩٣ وهذا دليل على انها كانت عامرة لعهد . انتهى . والشريف سرور هو جد الشريف عبد المطلب جد ذي السمو الامير علي حيدر نزيل بيروت اليوم

فعين سلامة هذه جرها الامراء ذوو عون الى شجرة على مسافة نصف ساعة وتركوا منها مشارع لورود الاهالي وأحدثوا عليها هذا البستان البديع الذي حول ذلك القصر

وأما المثناة فهي على مسافة ثلاثة رماح الساعة من لطائف نحو القرب وتعد أجمل مزرعة في الطائف : وادي وج الشهير على جانبه البساتين والجنان الغناء مشبكة اشباك الغاب الاشب وعين ماء مجرورة بقنى تحت الارض من مسافة

ساعة ونصف من ناحية جبل برد (بالتحريك) أعلى جبل في أرض الطائف .
وهذه العين هي أغزر عيون تلك البلاد تصب في الثانية ٤٤ ليبرة ويسقى منها نحو
٤٠ بستانا في الشناة ثم تنحدر فضلة المياه صوب الطائف ، وجميع هذه البساتين
وما فيها من قصور وأبراج تخص الاشراف ذوي زيد ومنها شيء لاشراف
آخرين يقال لهم الشنابرة ، وفي هذه الشناة من الفواكه من العنب والسفرجل
والخوخ الذي يقال له في الشام الادرافن ويقال له في اليمن والحجاز الفرسيق ماهو
من الطبقة العليا في نوعه

ويلفظون « الشناة » بإثاء الثلثة وكنت ظننتها من غلط العوام وان أصلها
السناة بالسين المهملة . وذلك أنه يقال ان القوم يسنون لأنفسهم اذا استقوا
ويقال السحابة تسنو الارض أي تسقيها فقد تكون بمعنى مكان السقيا . وقرب
من هذا ان تكون مخففة من « السناة » وهي السد الذي يعترض الوادي حتى
لا تطفئ مياهه على الارض ، وفي لسان العرب : السناة صغيرة تبنى لاسيل اترد
الماء سميت مسناة لان فيها مفايح للماء بقدر ما يحتاج اليه مما لا يغلب ماخوذ من
قولك سنيت الشيء والامر اذا فتحت وجهه اه

وفي فتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ مايلي « فلما كان زمن قباد ابن
فيروز انبتق في أسافل كسكر يتق عظيم فاغفل حتى غلب ماؤه وغرق كثيرا من
أرضين عامرة وكان قباد واهنا قليل التفقد لامره ، فلما ولي أنوشروان ابنه أمر
بذلك الماء فقدم بالمسنيات (جمع مسنة) حتى عاد بعض تلك الارضين الى عمارته انتهى
وفي أول الشناة من جهة جبل برد سدود على وج هي على هذه الصفة بمجئني
أفكر في أن السناة هي بالسين لا بالثاء . إلا أن أهل الحجاز بإجمعه يقولون
« الشناة » وتواريخ الطائف كلها تذكر للشناة بإثاء . وإذا رجعنا الى كتب اللغة لا
نجد مناسبة بين معنى لفظة « الشناة » وهذا المكان ، فقد قالوا : الشناة الجبل من

الصوف أو من الشعر مطلقاً : وتفلوا عن عبد الله بن عمر من اشراط الساعة «أن
توضع الاخيار ، وترفع الاشرار ، وأن يقرأ فيهم بالثنائة على رؤوس الناس ليس
أحد يغيرها : قيل وما الثنائة ؟ قل ما استكتسب من غير كتاب الله» (١) كأنهم جعلوا
كتب الله مبدأً ، وهذا مثني : فانت ترى انه لا هذا ولا هذا فيه شيء من
ملاسة معنى بستان أو جنة ، أو واد ذي زرع : وأما قولهم مثاني الوادي ، بمعنى
مع ضفه ، واحذته فهو جمع ثني - بكسر فسكون - لا جمع مثناة

قل في لسان العرب : وفي الصحاح في تفسير الثنائة قال : هي التي تسمى بالانارسية
دوييتي وهو الغناء ، وهذا أبعد عن ذلك المعنى أيضاً . وقد جاءت معان كثيرة
للمثني بالتذكير وكما أيضاً بعيدة عن هذا المعنى . وعلى كل حال فلسنا هنا في المثني
بفتح فسكون ونحن في الثنائة ، ولم يبق إلا أن نردها إلى اسم مكان من فعل
ثني بمعنى عطف أو حنا كأن تكون بمعنى منحني الوادي ، أو أن نردها إلى اسم
مكان من ثني بمعنى صيره ثنياً لأن النهر شق الزرعة نصفين اثنين . أو أن
يكون أصانها من الثنائة بمعنى الغلاحة والزراعة ، ولكن الثنائة بمعنى الغلاحة
والزراعة لم يرد منها اسم مكان ، ثم انها لم ترد بهذا المعنى إلا عن ابن الاثير في
تفسير حديث قتادة : كن حميد بن هلال من العلماء فأضرت به التناوة أو
الثنائة . والله عندنا في جبل لبنان تستعمل «الثنائة» بمعنى الغلاحة أيضاً ،

(١) التحقيق ان الثنائة هذه تعريب المشنائة أو المشنة بالعربية وهي الشريعة التي وضعها
اليهود بعد النبي باجتهادهم أو ابتعادهم وبلها الجهازة وهي الشريعة الشفوية لهم والتقاليد
العملية وهما أصل التلمود وفسرها في القاموس : بقوله كتاب فيه اخبار بني اسرائيل اخلو
فيه وحرّموا ماشاؤا — او هي الغناء أو التي تسمى بالفارسية دوييتي

«٢٢» ديت في الفارسية معناه يتان لالغناء فان «دو» اسم لعدد الاثنان قال شارح
القاموس بعد ما تقدم : نفا وقوله دوييتي بالفارسية ترجمة الاثنان والياء في بيتي للوحدة
أو للنسبة وهو الذي يرف في المعجم بالمتوى كانه نسبة الى المشناة هذه

لكن لا مطلقاً بل يقولون تناية للوجه الذي من حرث الارض . والأظهر أن أصل التثاء بالتاء لا بالناء

بقي علينا وجه تأويل آخر وهو أن تكون من (تنأ) أقام . وقد سهلوا الهمزة فصارت (تنأ) وجاء منها اسم مكان (لتثاء) أي محل الإقامة — والعمري لعم محل الإقامة هي — ثم إن العامة حرفةًها من اتاء إلى اشاء . فهذا كل ما يخطر لي من جهة هذه اللفظة

ثم أبي لما عزمتم على الكتابة عن الطائف — وكان باعني أن في المكتبة التيمورية بمصر بعض تأليف عن الطائف ووج — كتبت إلى ذلك العالم الفاضل الكبير، الذي من أي الجهات اعتبرته فهو أمير، أحمد باشا تيمور قدس الله روحه ونور ضريحه، أرجو منه إذا كانت عنده كتب في هذا الموضوع أن يأمر لي باستنساخه على نفقتي، فكان منه أنه لم يمض على رجائي هذا خمسة عشر يوماً حتى جاءني منه ٤ تأليف في هذا البحث مصورة بالفوتوغرافية بالصبغة السنية الشهيرة، ومجدة تجاريداً مذهبا، وهذه الكتب هي (إهداء اللطائف، من أخبار الطائف) تأليف الشيخ حسن بن الشيخ علي المجيبي المكي الحنفي من علماء أواخر القرن الحادي عشر . و (تحفة اللطائف، في فضائل الخبر ابن عباس ووج والطائف) للشيخ محمد جار الله بن عبد العزيز بن عمر بن محمد الشهر باين فهد المتوفى سنة ٩٢٢ و (نشر اللطائف، في قطر الطائف) لابن عراق من المتأخرين وهو الشيخ نور الدين علي ابن محمد بن عراق الشامي . و (رسالة في فضائل سيدنا ابن عباس والطائف) لشيخ محمد بن عبد الكريم القنوي الذي كان في أواسط القرن الثاني عشر

وتكرم رحمه الله بإرسال بطاقة أنيسة، مع هذه الهدية النفيسة، فباته عيبي بكتاب شكر طائل أودعته ما خطر ببالي من جهة لفظه (انئدة) أو (السنة) فأجاني مستحسناً ما رأيته إلا أنه قال : إن روايات الكتب المؤلفة عن الطائف

متفقة على كونها بالباء ، فضلا عن تلفظ أهالي الحجاز بها بالباء أيضا . وقد كان
كتاب تيمور باشا هذا من آخر ما خطه قلمه لان النصاب بوفاته رحمه الله وقع بعد
تاريخ المکتوب بخمسة عشر يوما

ويمتد وقف الاشراف ذوي زيد من المثناة إلى نفس الطائف بجنان وبساتين
منتظمة بلبية وج ، متابة له إذا استوى أو إذا اعوج ، وهي من انزه ضواحي
تلك البلدة وألطفها ون أشهرها سانية (حوايا) ذات الصرح الكبير ، والروض
النضير، وبالاختصار كيفما توجه الانسان في الطائف بل في الحجاز كله بين تهايمه
ونجوده وبواديه وحوضه بمجد الاماكن الشريفة للاشراف . ففي نقيم اشرف
الاماكن للاشراف ، وفي وادي اية اشرفها للاشراف ، وفي وادي وج اشرفها
للاشراف ، وفي وادي قاطمة الذي بقرب مكة يمتد بسايقه ١٥ ساعة احسن
البقاع للاشراف . وهلم جراً

أما ان الطائف هو قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز ، وما ورد في ذلك
من الآثار والاحاديث المنقولة في التواريخ التي اطلمنا عليها ، وفي غيرها مما لم
نطلع عليه ، واطلع عليه الاخ الزركلي ككتاب «عقود اللطائف في محاسن الطائف»
للشيخ عبدالقادر الفاكهي المكي المتوفى في أواخر القرن العاشر ، وكتاريخ الشيخ
احمد بن علي العبدري الميورقي الاندلسي ثم الطائفي الوجي مسكناً المتوفى سنة ٦٧٨
بعد ذهاب وطنه ميورقة بخمسين سنة ، فكل هذا نحن نحمله على الحجاز : وذلك
اننا إذا قلنا زيد أسد فلا يكون المراد انه هو هذا الحيوان المفترس ، بل انه في
شجاعته كالأسد : وإذا قلنا زيد بحر ، فلا يكون المعنى انه هو هذا الماء الكثير
المتلاطمة امواجه ، وإنما هو كناية به عن الكرم ، أو العلم ، أو الحلم . وإذا قلنا
زيد جبل فما يراد بذلك إلا المتانة ، والرصانة ، والثبات . وإذا نظرنا الى الحديث
الشريف « ان من البيان لسحراً ومن الشعر لحكمة » لم يمكننا تأويل ان من

البيان لسحراً إلا بالمعنى المجازي كما لا يخفى، وذلك بأن من البيان ما يستولي على العقول ويأخذ بالآليات، لانه هو من السحر المحرم وهكذا حديث « إن الطائف قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز » أو ما هو بمعناه لا أفهمه إلا على هذا الوجه وهو أن الطائف وأراضيها شامية في فواكهها ونمواتها وعبودية مائها وبرودة هوائها، ومن هناك لم يبق حاجة لإرخاء بعض المفسرين العنان لتخييلاتهم في كيفية اقتلاع بلاد الطائف من أرض الشام ووضعها في الحجاز.

هذا زائداً إلى أن أكثر هذه الأقوال هي آثار وأخبار ليست من الأحاديث المقطوع بها: ونحن نعلم أن الأحاديث المتواترة التي لا يتطرق الشك إلى صحة تلفظ النبي ﷺ بها هي أحاديث معدودة وأن الأحاديث مهما جادت على شروط الصحة والشبوت المعروفة عند المحدثين فلا يزال مجال للتقول في إسانيدها وإسعادها. لأن الكلام إذا نقله واحد عن واحد فلا بد أن يتغير فيه شيء بالزيادة أو بالنقصان أو بتغيير لفظة بلفظة مهما كان ذلك قوي الذاكرة؛ وقد ثبت أن أكثر الأحاديث مروية بالمعنى:

ولقد ثبت أيضاً أن سيدنا عمر رضي الله عنه كره كتابة الأحاديث خوفاً من الزيادات عليها وإكتفاء بكتاب الله المنزل الذي حفظه الألواف من الصحابة واتفقوا عليه. وقد ثبت أيضاً أن جماعة من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يحدثون عن رسول الله ﷺ مع طول صحبتهم له جاء في الضبقت الكبري لمحمد بن سعد رواية عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال (ي عبد الله بن الزبير) قلت للزبير: مالي لأسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال: أما أنا لم أفارقه منذ أسأمت ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كذب علي فليسبوا مقعداً من النار » قال وهب بن جرير في

حديثه عن الزبير : والله ما قل « متعمداً » وأنتم تقولون « متعمداً » أي إن بعض المحدثين زادوا نغظة « متعمداً » فانظر إلى هذا الحديث الشريف على قصره لم يخل من زيادة نغظة (١)

وجاء في الضبقات عن السائب بن يزيد انه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع ثم جاء عن يحيى بن عباد عن شعبة انهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال : اني أخف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة

وجاء في الضبقات الكبرى لابن سعد عن عمرو بن ميمون قال اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ إلا انه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ . فعلاه الكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذلك واما قريب من ذلك واما دون ذلك

فهذا شأن عبد الله بن مسعود في الحديث وهو هو أحد العبادة الاربعة ومن أروع الصحابة وأشدهم ملازمة لرسول الله ﷺ كما لا يخفى وذلك كان شأن سعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في هذا الامر وهما من العشرة المبشرين بالجنة . وذلك كان مشرب الامام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو الذي قيل ان رسول الله قال فيه : « لو كان نبي بعدي لكان عمر » فكيف ينبغي للناس

(١) الحديث متواتر توأرا صحيحاً بهذه الزيادة ومن رواها عن الزبير نفسه الامام احمد والبخاري وابوداود والنسائي وابن ماجه فلا عبرة بانكار وهب بن جرير لما عنه قالقاعدة ان من حفظ حجة على من لم يحفظ، وذهب هذا قد تكلم فيه بعض رجال الجرح والتعديل فقال ابن حبان كان يخطئه وأنكر عبد الرحمن بن مهدي والامام احمد مارواه عن شعبة الخ

بعد ذلك أن يستكبروا من الاحاديث وهم يعلمون ماقد يتعرق اليها من زيادات الرواة وما قد نقل منها بالمعنى (١)

قال صاحب «تحفة اللطائف» قال الزهري ان الله عز وجل نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة خاليله ابراهيم عليه السلام (وارضق أهله من الثمرات) والله تعالى يقدر أن ينقل إلى الطائف قرية من الشام كما انه يقدر أن يجعل الطائف في خواصها قرية من قرى الشام ، ويرزق أهل ذلك الوادي المقدس بمكة - من ثمراتها . فاما كون الرسول ﷺ قد ألحق الطائف بمكة والمدينة وحرم لها حرما وقال « لا يخلو خلاها ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها » وانه قدس وادي وج ، فان الاحاديث كثيرة في هذا المعنى ، والدليل على صحتها كون الفقهاء أجمعوا على كراهية الصيد في وج ومنهم من قطع بتحريمه ، وربما كان الاكثرون على اتحريم المات ، وقيل في كلام الشافعي : أكره صيد وج . نجا كراهة تحريم . وعلى كل حال متفق على النهي عن الصيد في وج ، ويختلف في مجرد الكراهة او التحريم كما انه يختلف في أمره من عدمه مما أفاض في موضوعه أصحاب التواريخ امار ذكرها . ومع كل هذه الاحاديث بقي ناس لا يضمنون الى روايات النهي عن صيد وج فقد نقل صاحب «تحفة اللطائف» عن انبوري انه سأل الشيخ محمد بن عمر اسطلاي امامنا الكية في وقته : هل رأيت في مذهب مالك مسئلة في صيد وج في الطائف ؟ فقل : لا أعرفها ولا يسعني أن أفتي بتحريم صيدها إلا بالحديث ، ليس فيها من الاحاديث التي يبتني عليها التحريم والتحليل (٢)

« ١ » قد كتب الينا الامير سؤالا في هذه المسألة — رواية الحديث — فاجبنا عن سؤاله في المنزلة بما علم به قصور ما في طبقات ابن سعد وما هو الحق في المسألة فليراجع ذلك من شاء في صفحة ٥٠٢ — ٥١٦ من المجلد التاسع والثشرين (٢) قال النووي في شرح المذهب : واما حديث صيد «وج» فرواه البيهقي باسناده عن الزبير بن العوام (رض) ان رسول الله ﷺ قال : « لا ان صيد وج ونضاهه يعني شجره حرام » وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفا لكن اسناده ضعيف قال البخاري في تاريخه لا يصح ، ثم ذكر الخلاف في وج هل هو واد بالطائف او بلد

موقع الطائف وهوؤها وماؤها

وما فضل الطائف في صحتها وجود ماؤها وهوؤها مما ترواها عليه المحسوس
والماثور، ولست بمستغرب قول بعض المفسرين لقوله تعالى (لولا نزل هذا
القرآن على رجل من القريتين عظيم) إن المراد بالقريتين مكة والطائف، وكذلك
أنا استحلي ما رواه صاحب تحفة الطائف من قول بعضهم إن الطائف من تعاليق
مكة، أي من مضافاتها. وعندنا في بر الشام إذا بنيت قرية في طرف قرية نسبت
إليها، وقيل إنها «معلقة» لها فيقال مثلاً «معلقة زحلة» و«معلقة الدامور»
وهل جراً. فما جدر الطائف بأن يقال لها «معلقة مكة» ولمعري لنعم المعلقة
هي. ولا نزاع أنهما في الامصار كالمعلقات السبع في الأشعار. ومن الحديث
النسبي المأثور «الطائف من مكة ومكة من الطائف» كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات
وتقد جاء في بعض الأحاديث التي نقلها الميورقي ورواها العجيمي صاحب
«أهداء اللطائف» إن الطائف من مكة ومكة من الطائف، ونقل الميورقي عن
سطيح: أنه ستكون قنن في آخر الزمان خير الناس في ذلك الزمان من كان بمجدارات
الطائف إلى عرقوب بجيلة، قال الميورقي أنه حديث ضيف، وقال العجيمي إلا
أنه يشهد له حديث الترمذي عن عمرو بن عوف قال قال رسول صلى الله عليه وسلم «إن الدين
ليأرز إلى الحجارة كما تآرز الحية إلى جحرها» قل في القاموس: والحجاز مكة
واللدنية والطائف ومخاليقها كأنها حجرت بين نجد وتهامة انتهى
قلت وزاد صاحب تاج العروس اليمامة فقال أنها من الحجاز، وقال في
شرح قوله أنها حجرت بين نجد وتهامة: أو بين الغور والشام والبادية أو بين
الغور ونجد، ثم قال صاحب القاموس: أو بين نجد والسراة أو لأنها احتجرت
بالحرار الحنس، فقال صاحب التاج في شرحها: حرة بنى سليم وحرة واقم وحرة
نبل وحرة شوران وحرة النار. وهذا قول الأصمعي

وقال الازهري : سمي حجازاً لان الحرار حجزت بينه وبين عالية نجد قال
وقال ابن السكيت : ما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ، وما
احتمت به الحرار حرة توران وعامة منازل بني سليم إلى المدينة فما احتاز في
ذلك كله حجاز ، وطرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج وأولها من قبل
نجد مدارج ذات عرق ، وقال الاصمعي : اذا عرضت لك الحرار بنجد
فذلك الحجاز وأنشد :

* وفروا بالحجاز ليعجزوني *

أراد بالحجاز الحرار انتهى .

قل المعجمي في تفسير «عرقوب بجيلة» العرقوب ما انحى من الوادي وطريق
في الجبل ، والعراقيب خياشيم الجبال والطريق الضيقة في ثونها ، وتعرقب أي مسلكها
كذا في القاموس انتهى

(قلت) وزاد صاحب التاج ان العرقوب هو الجبل المكلل بالسحاب ، هذا
وقد جرت التسمية بالعرقوب كثيراً في بلادنا الشامية ففي جبل لبنان داخل
قضاء الشوف ثلاث نواح باسم العرقوب ، وهي العرقوب الجنوبي والعرقوب الشمالي
والعرقوب الاعلى ، وهي أودية يخرج من أحدها نبع الباروك ، ومن الآخر نبع
الصفاء ونبع القاعة ، وهي من أشهر ينابيع الارض في المدونة لا ينابيع لبنان وحده
وفي جبل الشبخ ناحية يقال لها أيضاً العرقوب تدعى لقضاء حاصبيا .

وأما عرقوب بجيلة في الحجاز فهو منسوب إلى بجيلة - كسفينية - وهي قبيلة
اختلف في نسبها فقال ابن الكلبي انها حي من اليمن ، ودروي عن مصعب بن
الزبير انها من نزار ، وقال صاحب القاموس انها حي في اليمن من معد ، قال
الزبيدي في التاج ان صاحب القاموس أراد أن يجمع بين القومين

وقال الامام مالك رضي الله عنه : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قل : لبيت بركة أحب إلي من عشرة آيات بالشام . نقل ذلك ابن فهد محمد جار الله بن عبد العزيز صاحب « تحفة اللطائف » وقل ابن وضاح : ركة موضع بين الطائف ومكة في طريق المراق

قل ابن فهد نقلا عن ابن وضاح : يريد — أي عمر — والله اعلم لطول لاعمر بها وشدة الوباء بالشام، ثم أخذ بعضهم يعترض على هذا التأويل قائلا إن مراد عمر بهذا التفضيل قرب هذا المكان أي ركة من مكة والمدينة

(قلت) لا وجه لهذا القول لانه إن كان مراد سيدنا عمر رضي الله عنه هو قضية اقرب من مكة والمدينة فهذه مزية لم تخصص بركة بل اشتركت بها بقاع لا تمتد ولا تحصى ، وكما من مكان اقرب إلى مكة أو إلى المدينة من ركة هذه التي هي على مسافة يوم ونصف يوم من مكة ، وما أرى عمر قصد إلا طيب الهواء والبعيد عن الوباء كما قال ابن وضاح ، فالشام هي مضرب الامثال في جودة الماء والهواء ، ومع هذا فن عمر يرى بقعة مثل ركة من بقاع الطائف أفضل منه للسكنى . انه لم يقسم لي الذهاب إلى ركة وإنما سمعت من أهل الطائف الشيء الكثير عن طيب نجمتها وبهجة روضها لاسيما في أيام الربيع

وقول ابن وضاح لا يخلو من صحة ، فالشام مع كونها مضرب الامثال في ضيب الهواء ومع كونها جنة الله في أرضه موصوفة بالوباء من قديم الزمان حتى ن أحد اخواننا المصريين أخذته فيما يظهر الفيرة مما رأى من محاسن دمشق فنبزها بسرعة الوباء اليها من كثرة المياه التدفقة في كل أنحاءها فقال ذلك البيت الشهير (١) :

قيل لي صف بردى كوثرها قلت غال برداها برداها

(١) قائله اشهر منه وهو ابن الفارض وهو من آيات له في تفضيل مصر على

الشام نسيها الأمير فظن ان البيت لبعض المعاصرين

وقد أبى الله إلا أن يجعل بازاء كل سهل حزننا ، ومع كل سرور حزننا ، وأن لا يدع الكمال نصيب شيء من هذه الدنيا ، فأثرة المياه في القطر الشامي التي هي مصدر رخائه ، ومرجع نضارته وبهائه ، هي أيضا سبب وبائه ، وتشدته بلائه ، فقد تقرر أن الاوبئة تنفثى بالبلاد التي تشرب من الأنهار ، أكثر مما تنفثى بالبلاد التي تشرب من الآبار ، وذلك لان الميكروب تماما ينمو في الماء ، وإذا كان الماء يشترك الخلق في وروده كانت العدوى به أكثر كما لا يخفى

و أكثر حواضر الشام مبنية على الأنهر ، فدمشق على (بردى) وحمص وحماه على (العاصي) وحلب على (قويق) وبعليبك على (رأس العين) وزحلة على (البردوني) وطرابلس على (أبي علي) وصيدا على (الاولي) وهلم جرا ، وقبل ان جر الى بيروت ماء نهر الكلب كانت أقل تعرضا للأمراض الواقفة ، فلماذا كانت بلاد الضائف منزهة عن الوباء بسببين (الاول) وفرة الاكسيجين في هواء تلك الجبال العالية (والثاني) قلة المياه الجارية فيها على الضد من جبال الشام ، وانياه هي التي تنقل الجراثيم بواسطتها ، فمن أين تنفثى لاوبئة في ركبة ونوحياها ؟ ومن أين تتكون فيها المستنقعات التي تنشأ عنها الحيات ؟ فهذا ما أرادنا عمربن الخطاب بقوله :
ليبت بركة أحب إلي من عشرة آيات بالشام

وسبق أن روينا عن الاصمعي — ولم يكن الاصمعي بليداً — قوله : دخلنا الطائف فكأنني كنت أبشر ، وكأن قلبي ينضح بالسرور ، وما وجد لذلك سبباً الا انفساح حدها ، وطيب نسمتها

ولا أظن أحداً دخل الطائف إلا وشعر بهذا الانشراح في صدره ، والانفساح في رئته ، ولو كانت الطائف مربوطة بسكة حديدية بجدة لقصدها المصطفون من مصر والشام والهند وسواحل جزيرة العرب

عمران الطائف وتقلصه بعد الحريين

وقد كانت الطائف في أيام الدولة العثمانية معمورة حافلة ، قيل لي أنه كان فيها ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة ، فقد كانت إمارة مكة والولاية وقيادة الجيش والاجناد كلها والدوائر الرسمية تنقل الى الطائف وتقم بها مدة ٦ أشهر وكان بسبب ذلك يزداد توارداً الخلق عليها من مكة وغيرها ، وتعمر أسواقها ويكثر الاخذ والمطاء فيها ، وقيل لي أنه كان فيها ١٥ طبيباً بين ملكي وعسكري وكان كل ما يوجد بمكة يوجد فيها

فبعد الحرب العامة تقلص عمرانها ، وخف قطينها ، حتى عادت كالمرجون القديم ، فلم يبق فيها إلا نحو ألفين الى ثلاثة آلاف ساكن ، وصارت أكثر البيوت خلوية على عروشها ، فتداعت من نفسها . ومن البيوت ما عملت فيه القنابر في اثناء حصار العرب للاتراك فيها ، فهذه كانت المرحلة الاولى من مراحل بوارها . وأما المرحلة الثانية فقد كانت في حرب الوهايين مع الملك حسين فمقدّر حلف اليها سلطان بن بجاد شيخ عتيبة والشريف خالد بن لؤي وحاصروها بجمع كان يعجز عنها لو صادف فيها حامية مستبسلة موطنه نفسها على الكفاح لانها مسورة من كل جهاتها ، وقد كانت فيها مدافع وأعتاد كافية للمقاومة . فأوقع الله الوهن في قلب أمراء الحامية التي كانت من قبل الملك حسين ، فانهزموا لا يلبون على شيء . ودخلت عتيبة وأولئك الاعراب الغلاظ الشداد ففتكوا بأهلها فتكة شنيعة ملأت شناعها الخائضين ، وقتلوا بضع مئات من الاهالي الوادعين ، وانهبوا البلدة وخرّبوا ما قدروا على تخريبه

وكان بين القتلى جماعة من العلماء والخواص ، ومنهم وباللأسف للمرحوم السيد حسن الشيبى مبعوث الحجاز ونجل الشيخ عبد القادر الشيبى كبير سدنة

بيت الله الحرام . وقد كان رحمه الله زميلي في مجلس المبعوثين في الاستانة وكان من ذوي الشهامة والاخلاق الزكية ، وكانت بيننا مودة أكيدة .

فنتهمز اعداء الملك ابن سعود في هذه الوقعة الفرصة للطعن فيه وحاولوا ايها الناس انه كان راضياً عن هذه الفعلة ، وحاشي له من ذلك فانها وقعت بدون ان يعلم بها وقبل ان يكون جاء الى الحجاز ، ولما نفي اليه خبرها بمكانه من نجد ارمض جدا وأصدر الامر تلو الامر تحت الانذار بالقتل بهدم التعرض لأحد من الاهالي وبال دخول إلى البادية الامين بدون سلاح ، فدخل الوهايون مكة بدون سلاح ، وطافوا واعتمرُوا ولم يسروا أحداً بسوء مما يشهد به كل اهل مكة .

فأما فجة الطائف فقد سبق فيها السيف المذل ، وبقيت في قلب الملك عبدالعزيز منها حزازات على سلطان بن بجاد لم يثبته عن عقابه على من فعل في الطائف سوى حداثة عهده بالاستيلاء على الحجاز ، وان تربع ربما تستتب الاحوال ، فاكتمى الملك باديء ذي بدء بتضييد جرادت أهل الطائف ومواساتهم ، والتعويض عليهم ، ولم يتعرض لسنان بن بجاد بسوء رعياً لسابق عهده ، حتى فتح هذا على نفسه الباب ، وخرج هو وقبيل الدويش عن طاعة الملك وجاذباه الحبل ، وظنا انهما بقوة عشائرها - عتبية ومخير - ينالان منه وطراً ، فحجزها الملك مدة شهرين حتى أعبته فيها الحياة ، فلما لم يبق من الدواء الا الكي نهدي إلى الشوارف في شملهم في أقل من ساعتين ، وطرح منهم بالعرء اكثر من أني صريع ، وأخذ مقدمهم أسرى وبينهم ابن بجاد والدويش . فكان الذين فتكوا بأهالي الطائف الوادعين هم الذين لقوا هذا النكال الشديد ، فنالوا الجزاء الذي يستحقونه .

على عملهم بالطائف ، وسقوا الكس التي سقوا بمثلها ، ولكنهم سقوا يعني وعدوان ، وشربوا بتأديب سلطان وحكم فرقان ، وقيد ابن بجاد بالاصفاد وكفى الله شره .

ولكن الدويش بعد أن عالج طيبب الملك جراحه ، فر من الاسر ونكث

وجمع جموعه وجهوا بمن مالؤه على بغية ، واستأنفوا الثورة ، واضطروا الملك أيده
الله أن يزحف اليهم مرة ثانية ، ويصدع شملهم عوداً على بدء . وما زال يضيق
عليهم حتى تفرقوا تحت كل نجم ، وجاء الدويش إلى العراق ظاناً انه ينجو وانه
لا يدركه ايل عمله الذي هو مدركه — إلا أن الملك فيصل بن الحسين كان أعقل
وأصبر بمصلحة مملكته العراق وبمصلحة العرب من أن يظهر الخارجين عن
طاعة ابن سعود ، لاسيما انهم هم الذين كانوا يوالون على العراق تلك الغارات التي
لا نهاية لها . فاتمى الامر بتسليم الانكليز فيصلا الدويش إلى الملك ابن سعود
عملاً بمعااهدة سابقة في تسليم المجرمين — وصار إلى جانب رفيقه ابن بجاد بحيث
لا يقدر أحد منها بمد الآن أن يقلق راحة العرب ولا أن يهرج البلاد وعرسها ،
وكانت هذه الواقعة سبباً في ائتلاف الملكين العاقلين الحكيمين ، اللذين أقر
بجماعها عيون جميع العرب المخلصين لعروبة ، وقت في أعضاء الذين يريدونها
دائمة حمية ولو أفضى ذلك الى سقوط العرب

والذي أدى بنا إلى هذا البحث الذي بعد كثيراً عن أصل الموضوع خبر
واقعة الطائف هذه التي كانت الضربة الثانية التي قضت على عمراتها ، والتي لو
نُفِيت ذكرها وسببها لم يكن ذلك منا نصحاً بالتاريخ ، ولكننا مسؤولين
عن هذا الاغفل

ومن شاء معرفة خطط الطائف وما فيها من حارات وقصور ومساجد وآثار
ونصاب وما حوله من قرى وودساكر وما أشبه ذلك فعليه بكتاب « ما رأيت وما
سمعت » للخير الزركلي ، فانه قد وعاهما بحذافيرها بأحسن أسلوب وأنا لست
متعرضاً من ذلك إلا لما شاهدته بعيني ، وارتسم في مخيلتي وحك في صدري ،
فاني قد سميت كتيبي هذا « بالارتسامات اللطاف » وحصرت الكلام فيما رأيته ،
وما تجوزته الا الى الضروري مما رويته .

مسجد ابن عباس بالطائف وقبره وبعضه ترجمته

(رضي الله عنه)

أهم أثر في الطائف هو مسجد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وهو على طرف البلدة إلى جهة (وج) وليس من بعده إلى وج عمارة .
وقد أنزلتني امارة الطائف في دار شاهقة كانت تخص أحد أمراء الاكراد من نفي إلى الطائف في أيام السلطان عبدالحميد الثاني العثماني ، وهي لا تبعد عن المسجد العباسي أكثر من مائة وخمسين ذراعاً . وامام هذه الدار باحة كبيرة عمومية تصل إلى مدخل المسجد العباسي ، وإلى باب السور الذي يجانسه . وتكثر طبقات الدور بالطائف كما يتكده وكما بالمدينة وكما بمكة ، ففقدت كنت أسكن في الطبقة الرابعة من الدار ، وكثيراً ما كنا نسمر على السطح الاعلى لها ، أنا واخواني فوزي بك التقاوقجي والدكتور خيري اقدمي وذيرهما ، لكننا كثيراً ما كنا نشتمل بالأكسية الثقيلة على ذلك السطح خشية البرد . وكنا نضع كيزان اء على السطح فلا يعطي على ذلك سعة حتى يتقلب اء كاه تاج مذاب

والمسجد العباسي كبير رحب اء مقبل في به وسع في زمن السلطان عبدالحميد العثماني فهو يسع ١٥ الف مصل فيما قدرت . ولنا أقبل الصيف صرت أرى الناس فيه تزدهم لكثرة الخلق الذين يصعدون إلى الطائف من مكة ، وفي بعض الجمع كان يغص بالناس . وقد كان يؤم فيه قاضي الطائف ، وهو رجل حضرمي من أهل الفضل . ويجانب المسجد قبة فيها قبر جبر الامة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، إلا ان الوهابيين زالوا القبة وأبقوا القبر ، وذلك بحسب اء دعتهم في هدم القباب وكرامية زرتهم على لوجه الذي اعتده كثير من العموم وبعض الخواص

من الاستغاثة والتوسل وتقبيل الحجارة وما شاكل ذلك مما هو خلاف الشرع،
ولا يسمعون فيه لومة لائم (١)

ولما كنت هناك زار الطائف قاضي القضاة بمكة الشيخ عبدالله بن حسن،
وهو من ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فرأى بجانب الضريح العباسي خلف
الجدار شجرة سدر صغيرة فأمر بقطعها، خشية أن يتبرك العوام بها. ولا انكار
ان البهايين يباغون في الهدم والقطع والنقض والقلم كما مروا بقبة او مزار أو
شجرة تعلق عليها خرق وتشمع جلودهم من هذه المناظر. ولكنني مع اعترافي
بفلوهم في هذا الامر لا أراهم حائدين فيه عن سنن الشرع القويم

واني لاروي للقراء قصة جرت معي في تلك الارض وهي اني كنت وجماعة
من اخواني نتزه في الوهط قرية عمرو بن العاص المشهورة، وهي على نحو ساعة
ونصف من الطائف إلى جهة جبل برد، فرأينا في طريقنا على مقربة من الوهط
آثار قرية دارة يعرف أنها كانت ذات شأن من اتساع جدرانها، وشاهدنا في
الجبانة قبة مهدوما أعلاها قائمة جدرانها، قيل لنا انها قبة سيدنا عكاشة من

(١) قد صحت الاحاديث النبوية بالتهي عن الصلاة الى القبور وعن تشييدها
وتكريفها وبلعن الذين يتخذون قبور الانبياء والصالحين مساجد والذين يضمنون
عليها السرج وصرح الفقهاء بتحريم ذلك وبوجوب هدم ما يبني عليها، وتسوية القبور
المبنية بالارض كما تراء في الزواجر لابن حجر الشافعي، وفقهاء الحنابلة اشد من
غيرهم في هذا، والوهايون حنابلة. وذكروا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
(رض) أمر بقطع الشجرة التي بايع النبي ﷺ واصحابه تحتها بيعة الرضوان وإعفاء
اترها لانه علم ان بعض حديثي العهد بالاسلام يتبركون بها، فهدم الوهايون غلاة
في العمل بما ذكر وقد نشأ في الناس عبادة القبور الصالحين كما سبأني في كلام الامير
وهو قليل من كثير؟

الصحابة رضوان الله عليهم (١)

فقصدنا إلى ذلك المكان فوجدنا مسجداً فيه قبور مشيدة منها ما هو قديم من صدر الاسلام عليه كتابات بالخط الكوفي ، ومنها ما هو من القرن الخامس أو السادس للهجرة . وشاهدنا من هذا الخط كتابات لم تر عيني أجل منها في البداعة والاتقان ، وتمنيت ان تنقل تلك الخطوط اما باليتوغرافيا واما بالفوتوغرافيا ولا أزال أحدث نفسي بذلك فيما لو زوت الطائف مرة أخرى

وبينما نحن تتأمل في تلك الآثار إذ أقبل علينا هنديان كانا سائرين على الطريق السلطاني فخادا عنه قاصدين هذا المزار وسألانا هل يجوز ان يصليا فيه ذلك المكان ؟ قلنا لهما : ليس لنا ان نعترضهما في صلاحها ، إلا أننا لانعلم لماذا يفضلان الصلاة في الداخل تحت القبة المهذومة بجانب هذه القبور مع كراهية الصلاة بجانبها على الصلاة في الخارج ، والصلاة هي (فأينما تولوا فثم وجه الله)

(١) (حاشية للمؤلف) الذي رأيته في تاج المروس عكاشة الغنوي أورده ابن شاهين في الصحابة من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عنه وحديثه في سنن النسائي . وعكاشة بن ثور بن أصغر كان حامل النبي (ص) على السكاسك فيما قيل وقال الحافظ هو الغنوي بالعين والمثلثة ، وعكاشة بن محسن بن حرثان بن قيس بن مرة الاسدي أحد السابقين كان من أجل العرب واشجع الصحابة رضي الله تعالى عنهم اه وفي لسان العرب عكاشة (بنشديد الكاف ونحفف) بن محسن الاسدي من الصحابة وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد: عكاشة بن محسن بن حرثان بن قيس بن مرة بن كير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه ويكنى ابا محسن شهيد بدرأواحد أو احدثق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله الى الغمر سرية في اربعين رجلا فانصرفوا ولم يلقوا كيداً . قال اخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عمر بن عثمان الجعفي عن آبائه عن أم قيس بنت محسن قالت توفي رسول الله ﷺ وعكاشة ابن اربع واربعين سنة . وقتل بعد ذلك بسنة بزاخرة في خلافة ابي بكر الصديق سنة اثنى عشرة وكان عكاشة من أجل الرجال ثم ذكر ابن سعد كيفية مقتل عكاشة في قتال خالد بن الوليد لاهل الردة اه

فقالا : لانهما رأيا في الداخل محرابا ، قفلنا لهما : نعم إلا أننا لانعلم وجها شرعيا
يجعل للصلاة عند ذلك المحراب فضيلة ليست للصلاة في الصحراء فانصرفا ولم
يصليا . واملهبا رجعا بعد انصرفنا وصليا في داخل المزار لانعلم (١)
وكيف كان الامر فن كثيرا من العوام أو من الخواص أتياه العوام يحبون
الصلاة بجانب القبور ، وهذا مما ينقر منه السلفيون أشد النفور وليسوا
في هذا بعالطين

هذا وقد توفي عبد الله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين ، وقيل سنة سبعين
وسنة إحدى وسبعون سنة ، وقيل اثنتان وسبعون ، وقيل أكثر . وصلى عليه
محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ودفن ابن
عباس في الطائف بالمكان الذي فيه المسجد اليوم ، ودفن ابن الحنفية في الطائف أيضاً
على أصح الأقوال ، وكانت وفاته بعد ابن عباس باثنتي عشرة سنة ، وكانت أم
عبد الله بن عباس أم الفضل ابنة الحارث بن حزم بن بجير بن الهرم بن ذريبة بن
عبد الله بن عامر وهي التي قيل فيها :

ماولدت نجبية من فحل بجبل نعلمه أو سهل

كستة من بطن أم الفضل أكرم بهما من كملة وكهل

فان أولادها كانوا باجمعهم أبطالا مجاهدين ، وقيل انه مارؤيت قبور أخوة
أشد تبعدا بعضها من بعض من قبور ستة من بني العباس مع كونهم ولدوا في
دار واحدة . وذلك ن الفضل استشهد في وقعة اجنادين بفلسطين وقيل بطاعون
عمواس ، ومعبد وعبد الرحمن استشهدا بافريقية ، وقيل ان معبدا مات شهيداً

(١) يعلم من هذا ان الصلاة لأجل المزار ، لاخالصة لله فهي شرك بالله ، وقد صرح
بعض فقهاء الحنابلة بطلان الصلاة في كل مسجد فيه قبر وان لم تكن الصلاة الى
القبر أو لأجله . لأن النبي ﷺ عن بناء هذه المساجد ولن فاعليها وهو يقتضي
بطلان الصلاة فيها . واقتضاء النهي للفساد مسالة أصولية معروفة غير خاصة بالحنابلة

بأفريقية وعبد الرحمن مات بالشام، وقم بسمرقند مجاهداً، ومات عبيد الله باليمن وقيل بالمدينة، وعبد الله مات بالصائف

وكانت فضائل عبد الله بن عباس أكثر من أن تحصى، وقد ألفت فيها التأليف وأكثر الكتب المؤلفة على أطراف مائة باخبار عبد الله بن عباس جبر الامة وترجمان القرآن ووالد الخلفاء العظام، وهو الذي قال فيه أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: انه لينظر إلى انبيس من ستر رقيق

وقد روى بعضهم ان النبي ﷺ قال فيه « لو كان بعدي نبي مرسل لكان عبد الله بن عباس اللهم فقهه في الدين وانشر منه، وعلمه التأويل، وبارك فيه، انه سيدفن في اصائف فن زاره فكانت ازار قبري بعينية » روى هذا الحديث الشيخ عبد الرحمن الميورقي عن احمد بن حاتم الموصلي والاشبهه به أن يكون موضوعاً وأما أن يكون النبي ﷺ دعا له بان يفقهه الله في الدين وأن يبارك فيه وأن يعلمه الكتاب والحكمة فهذا معقول

وقد جاء في الصحيح انه ﷺ ضمه اليه وقال « اللهم علمه الحكمة » (١) وكان عمر ابن عباس لما قبض ابن عمه الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة، وروى السخاوي انه ﷺ دعا بالحكمة لابن عباس مرتين. وكل ما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ ١٠٠ حديث أو أكثر. ومثل ذلك مما شهد فعله (٢) وباقى

« ١ » وصح ايضاً انه قال « اللهم علمه الكتاب » وايضاً « اللهم فقهه في الدين » كل ذلك في صحيح البخاري
(٢) في ترجمته من تهذيب التهذيب: (فائدة) روى عن غديران ابن عباس بن يسمع من النبي ﷺ الا تسمه أحاديث وعن يحيى القطان عشرة. وقال الغزالي في المستعق: اربعة - وفيه نظر، في الصحيحين عن ابن عباس ما صرح فيه بسماعه من النبي ﷺ أكثر من عشرة، وفيهما ما شهد فعله نحو ذلك، وفيهما ما حكى الصريح نحو ذلك فضلاً عما ليس في الصحيحين اهـ

أحاديثه إما مرسل محكوم باتصاله أو غير مرسل (١) عن أبيه وأخيه الفضل وخالته ميمونة وأبي بكر وعمر وعثمان وخلق من الصحابة

وروى الحسن المدني عن سحيم عن حفص عن أبي بكرة قال: قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله جسماً وعلماً وديناً وجمالاً وكلاً. وروى الطبراني وغيره حديثاً معناه إن أم الفضل أنة الخارث زوجة العباس لما وضعت عبد الله بن عباس أتت به النبي ﷺ فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، وسماه عبد الله ثم قال «أذهبى بأبي الخلفاء» ويجوز أن يكون هذا الحديث «أذهبى بأبي الخلفاء» صحيحاً وأن يكون الرسول كوشف بذلك كما انه يجوز أن يكون مما وضع في زمن الخلفاء بني العباس تزلفاً إليهم

ومثله ما رواه ابن فهد تقياً عن تاريخ دمشق وهو حديث مرفوع صرح ابن فهد نفسه انه ركيك اللفظ واه وهو «هبط علي جبريل عليه السلام وعليه قباء اسود وعمامة سوداء فقلت ماهذه الصورة التي لم أرك هبطت علي فيها قط؟ قل هذه صورة الملوك من ولد العباس عمك رضي الله تعالى عنه. قلت وهم علي حق؟ قال جبريل نعم. فقال النبي ﷺ اللهم اغفر لعباس وولده حيث كانوا وأين كانوا. قال جبريل: أيا تين علي أمتك زمان يعز الله عز وجل الاسلام بهذا السواد. فقلت رئاستهم ممن؟ قل من ولد العباس. قلت ومن أتباعهم؟ قل من أهل خراسان، قلت وأي شيء يملكون؟ قل الاصفر والاخضر والحجر والدر والسرير والنبر والدنيا إلى المحشر، والملك إلى المنشر» اه والوضع ظاهر كالشمس في هذا الحديث، ومن عادة بعض الناس التزلف إلى الملوك والخلفاء بأقويل

«١» كذا - والحديث المرسل من سقط من آخر سنده من بدائنا بهي وهو الصحابي الذي سمع من النبي ﷺ أو حضرا أو شاهد ما يرفعه اليه كقول التاجي قال رسول الله ﷺ كذا، ويطلق علي ما رواه الصحابي مما لم يسمعه ولم يحضره

كهنه هي داخلة في حكم قوله ﷺ « من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار » وقد يكون بعضهم ممن يستنصف الحديث ولا يثق بإسناده لكنه يرويه عملاً بحسن الظن بزعمه أو اعتقاداً للمصلحة فيه . وهذا من اكبر الخطأ ولا سيما ان كلن من هذا الباب ، والحق غير محتاج إلى دعامة من الباطل . ولقد انتهى ملك بني العباس ولم يبق إلى المحشر، كما انتهى ملك بني عثمان في أيامنا هذه وذهب معها كل ما قيل في خلود ملكهم سدى

ومن جملة ذلك رسالة للسيد محمود الجزاوي مفتي الشام رحمه الله اسمها « البرهان على بقاء ملك بني عثمان الى آخر الزمان » لم أعجب الا من صدورها عن رجل مثله في سعة علمه وعقله .

وقد روى الحافظ بن ابار القضاة البانسي في « التكاية لكتاب الصلة » ان حيوة بن ملامس الحضرمي من اشراف إشبيلية كانت له منزلة لطيفة من عبدالرحمن بن معاوية (الداخل إلى الاندلس) وروى عن حنش الصنعاني يرفعه ان ملك بني أمية لا يزال الى خروج الدجال ، ولما رواه لعبدالرحمن بن معاوية أقطعه قطعة معروفة . انتهى وهذا أيضا من الباب التقدم

وكان ابن عباس أيضا طويلا وسيا جسيما مشربا بصفرة صبيح الوجه له وفرة بنخضب بالحناء ، وكان يعم بمامة سوداء يرخيها شعراً . ولعل الخلفاء العباسيين اتخذوا السواد شعاراً من أجل عمامة جدتهم هذه

وقد روى ابن فهد في « تحفة اللطائف » انهم كانوا باقين على لبس السواد الى عهده ، وقد كانت وفاته سنة ٩٢٢ وكذلك الخطباء في الحرمين الشريفين وغيرهما من بعض البلدان المظلمة . قال ابن فهد:

« وان معتمدهم في ذلك كونه ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه . وخطب بها الخلفاء كذلك ، لكونه ﷺ كان

في ذلك اليوم منصوراً على الكفار، فاتخذوه شعاراً ليكونوا دائماً منصورين على أعدائهم. وسأل الرشيد الاوزاعي رحمه الله تعالى عن لبس السواد فقال : اني لأحرمه ولكن أكرهه قل : ولم ؟ قل : لانه لا تجلي فيه عروس ، ولا يلبي به محرم ، ولا يكفن فيه ميت. فالتفت الرشيد إلى أبي نواس فقال : فما تقول أنت في السواد ؟ فقال : النور في السواد يأمر المؤمنين . ثم قال : وفضيلة أخرى يأمر المؤمنين لا يكتب كل من كتاب الله عز وجل وحديث النبي ﷺ وأقوال العلماء رحمهم الله تعالى الا به، وهو مضاف إلى الخلافة. فلما سمع الرشيد هذا الوصف في السواد اهتز طرباً وأمر له بجائزة سنوية « انتهى

قلت نسبة هذه الرواية للرشيد خطأ محض . وكنا نقول انها سهو ناسخ تبديل لفظ الرشيد بالمتصور لولا مجيء قصة أبي نواس من بعدها . ووجه الخطأ ان الامام الاوزاعي رضي الله عنه توفي يوم الاحد أول النهار لليلتين من صفر سنة سبع وخمسين ومائة هذا الذي عليه الجمهور رواه العباس بن الوليد العذري قاضي بيروت المتوفى سنة ٢٧٠ قال عنه ياقوت في معجم البلدان انه كان من خيار عباد الله

وقد نقل هذه الرواية عن وفاة الاوزاعي زين الدين بن تقي بن عبدالرحمن الخطيب في كتابه «محاسن الساعي في مناقب الامام أبي عمرو الاوزاعي» وهو مخطوط اطاعت عليه أخيراً في المكتبة الملوكية في براين وعلمت منه ان مؤلفه اكمله سنة ١٠٢٨ وهو لا يقول « في مناقب الامام أبي عمرو الاوزاعي » بل « في مناقب الامام أبا عمرو الاوزاعي » لا أعلم اهو من خطأ الناسخ أم من نفس المؤلف عملاً بلفظ « إن أباه وأبا أباه »؟ وقال ابن خالكان عن وفاة الاوزاعي : وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة ، لليلتين بقيتا من صفر ، وقيل في شهر ربيع الاول بمدينة بيروت. أما الرشيد فقد كانت ولادته سنة ١٤٨ أي إنه يوم وفاة الاوزاعي،

كان قصراً . واستخلف الرشيد سنة ١٧٠ . فالتليفة الذي سأل الامام الازاعي عن السواد هو المنصور لا الرشيد لأن الازاعي جرى بينه وبين المنصور حديث طويل. ولما قدم ابو جعفر المنصور الشام زاره الازاعي ووعظه ، فعظمه الخليفة وأحبه . ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فذن له ، فلما خرج قال المنصور لربيع الحاجب : الحقه فأسأله . لم كره لبس السواد ولا تعلمه إني قلت لك . فسأله الربيع فقال: لا تي لم أرحم ما أحرم فيه ولا ميتة كفن فيه ولا عروساً جلبت فيه ، فلهذا أكرهه

أما أبو نواس فيجوز أن يكون قل الرشيد هذا وأكثر منه لكن بدون أن يكون الازاعي حاضراً . وكيف كان الامر ؟ فكان السواد شعار العباسيين وكان يقال لهم السوداء . وكان الخلفاء العباسيون يخلعون حبل السواد على من ينتسب اليهم أو ينال الخطوة عندهم جاء في « تاريخ الاعين في جبل لبنان » للشيخ ضحوى الشدياق والمعلم بطرس البستاني انه لما وقع اقتل على نهر بيروت بين سررة ولأمير النعمان بن الأمير عامر بن الأمير هادي بن أرسلان وهزم الأمير النعمان المردة وقتل بعضاً وأسر بعضاً وكتب الى موسى بن بغا في بغداد يخبره و أرسل الرؤوس والاسرى الى بغداد عرض ذلك موسى للخليفة المتوكل فكتب اليه المتوكل كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال وقره على ولايته تقريراً له ولذريته وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود وكتب اليه أخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها وأعاد رسله مكرمين فقتل الأمير السيف وشهد المنطقة ولف الشاش وده لا مير المؤمنين وزينت البلاد « الخ وهذه الرواية محررة لكن باختصار في سجع نسبنا الارسلاني

والخلاصة أن بني العباس أرددو أن يتميزوا بشعار فجموه السواد فتده بجدهم عبد الله بن عباس الذي اقتدى بابن عمه (ص) في اعتمائه بالسواد يوم فتح مكة

ومناقب عبدالله بن عباس كثيرة ، وأقواله مأثورة ، ومما ينسب اليه : مذاكرة العالم ساعة خير من احياء ليلة . ويزوي عن سعد بن أبي وقاص انه قال : رأيت ما أحداً أحضر فهماً ، ولا ألب لباً ، ولا أكثر علماً ، ولا أوسع حُماً من ابن عباس . ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات ، فيقول : قد جاءتك معضلة ، ثم لا يجاوز قوله . وإن حوله لأهل بدر . وقيل أن بعضهم وجدوا على عمر في ادنائه ابن عباس . دونهم فقال لهم : انه يعظمه لعله مع صغر سنه . وكان عمر يستشيرُه إذا أهمته الامور ويقول : غواص . وأوصاه أبوه العباس أن يحسن صحبة عمر فقال له : يا بني إن أمير المؤمنين يدعوك ويقربك ويستشيرك ، فاحفظ عني ثلاثاً : لا يجربن عليك كذباً ، ولا تفشين له سراً ، ولا تفتابن عنده أحداً .

وقالوا انه أورد رجل ذكر القراء أمام عمر فقال ابن عباس : ما أحب أن يتسارعوا (١) في القرآن . فسأه قوله عمر قل ابن عباس : فانطلقت الى منزلي فقلت ما أراني إلا سقطت من نفسه ، فيينا أما كذلك جادني رجل فقال : أجب أمير المؤمنين . فذهبت فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال : ما كرهت مما قال الرجل ؟ فقلت يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فاستغفر الله . قال : لتحدثني . قلت . انهم متى سارعوا (٢) اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال لله أبوك لقد كنت اكتبها للناس . وعن ابن مسعود انه قال . إن هذا الغلام يعني عبدالله بن عباس لو أدرك ما أدركناه ما سلمنا معه بشيء . وسأل أحدهم ابن عمر عن شيء فقال . سل ابن عباس فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ

وعن معاوية : ابن عباس أفقه من مات ومن عاش . وعن عبيد الله بن عبدالله ابن عتبة بن مسعود : ما رأيت أحداً أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول

(١) وفي رواية : ان يتسارعوا (٢) وفي الرواية الاخرى : تنازعوا

الله ﷺ وبه قضاء ابي بكر وعمر وعثمان ، ولا أفتق ولا اعلم بتفسير القرآن
والعربية والشعر والحسب والفرائض . وكان يجلس يوماً للتأويل ، ويوماً للفتى
ويوماً للمغازي ، ويوماً لأيام العرب . وما رأيت قط عالماً جلس إليه إلا خضع له
ولا سائلاً يسأله إلا اخذ عنه علماً

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً اجتمع لكل خير من مجلس ابن عباس :
الخلال والحرام والعربية والانساب . وعن عطاء : ما رأيت قط أكرم من مجلس
ابن عباس ، أكثر فقهاً وأعظم خشية ، ان اصحاب الفقه عنده واصحاب القرآن عنده
واصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم من واد واسع . وعن طاوس : ادركت خمسين
أو سبعين من الصحابة إذا سئلوا عن شيء فخانفوا ابن عباس لا يقومون حتى
يقولوا هو كما قلت . وسمع احدهم ابن عباس يخطب ويفسر فقال : لو سمعته
الروم وقارس لأسلت

ولو شئنا استقصاء مناقبه لطال المقال جداً لاسيما ان كتابنا هو رحلة إلى
الحجاز ، لا ترجمة لابن عباس رضي الله عنه . وإنما اوردنا ما اوردنا منها لان التراجم
الزكية هي خير ما يطرف به الكتاب القراء ، ولا سيما القراء الناشئين الذين قد
يقعدون بما بها من الفضائل ويتعلمون مكارم الاخلاق ومعالي الامور ، ونعم التاريخ
الذي يزكي النفوس ويشحذ الالباب

وكان ابن عباس عاملاً لعلي رضي الله عنهما على البصرة وشهد معه صفين ، فلما
استشهد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه استخلف ابن عباس على البصرة عبد الله بن
الحارث التوفلي ولحق بالحجاز ، ولما دعا عبد الله بن الزبير الناس إلى مبايعته بالخلافة في
عبد الله بن عباس أن يبایعه فصعد إلى الطائف ، ولم تزل الطائف لاهل الحجاز
متنفساً ، ومات فيها ، وقال محمد بن الحنفية عند موته : مات اليوم رباني هذه الامة
وقد دفن محمد بن الحنفية في المكان الذي دفن فيه ابن عم ابيه اي ابن عباس

وودفن آخرون من الاعيان والصلحاء والامراء. ومن هؤلاء الامير جعفر بن سعيد ابن سعد بن زيد بن محسن تولى إمارة مكة سنة ١١٧٢ ثم نزل عنها لاختيه مساعد ومات بالطائف سنة ١١٧٨ ثم الامير عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون ولي إمارة مكة بعد وفاة ابيه محمد بن عون اول أمير عليها من ذوي عون وبقي فيها نحو ٢٠ سنة وكانت وفاته بالطائف سنة ١٢٩٤ ثم الامير عون الرفيق ابن محمد بن عبد المعين بن عون أخو الامير عبد الله ولي الإمارة سنة ١٢٩٩ وبقي فيها إلى ان توفي بالطائف سنة ١٣٢٣ وله قصر بديع، اتم الطاق الاول منه وبقي بدون نجارة ولا يزال قائماً من شدة متانته وهو مشرف على السهل الافيج الممتد منه إلى اشكنة العسكرية

ونزل بالطائف رهط من اصحاب رسول الله ﷺ منهم عروة بن مسعود بن متهب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف كان حين حاصرهم الرسول - على ماسياتي خيره - غائباً بجروش يتعلم عمل الدبابات والمنجنيق فلما قدم الطائف بعد انصراف الرسول ﷺ عنها قذف الله في قلبه الاسلام، فقدم على الرسول بالمدينة فأسلم واستأذنه في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الاسلام فقال ﷺ له «أهم إذا قاتلوك» فقال لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فلما رجع إلى الطائف اتته ثقيف تسلم عليه بتحية اجهلية فأنكرها عليهم وقال لهم عليكم بتحية اهل الجنة، فذلوا منه، فلم عنهم وخرجوا من عنده وجعلوا يأمرون به، وطلع الفجر فاذن بالصلاة فخرجت اليه ثقيف من كل ناحية فرماه أوس بن عوف من بني مالك فصاب أكحله فقام غيلان بن سلمة وكنانة بن عبدياليل والحكم بن عمرو وغيرهم وقالوا نموت عن آخرنا او نثار به عشرة من بني مالك، فلما رأى عروة ما يصنعون قال لا تقتلوا في، قد تصدقت بدمي على صاحبه لأصلح بذلك بيسكم، فهي كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي، وأشهد ان محمداً رسول

الله لقد اخبرني انكم تقتلونني ، ثم دعا رهطه فقال اذا مت ادفنونني مع الشهداء الذين قتلوا في حصار الرسول للطائف فدفنوه معهم وبلغ الرسول ﷺ خبر قتله فقال « مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه الى الله فقتلوه »

ومنهم ابو مليح بن عروة بن مسعود وقارب بن الاسود بن مسعود اسلموا ولحقا برسول الله بالمدينة . ولما وفدت تقيف على الرسول ﷺ وأسلمت عادا الى الطائف . وقال ابو مليح للرسول ﷺ ان أبي مات وعليه دين مائة مثقال ذهب فان رأيت أن تقضيه من حلي الربة أي اللات فعلت ، فقال الرسول ﷺ « نعم » فقال قارب بن الاسود : وعن الاسود بن مسعود أبي ، فإنه ترك ديننا مثل دين عروة فاقضه عنه من مال الخاضية . فقال الرسول ﷺ « ان الاسود مات كافراً » فقال قارب : تصل به قرابة ، انما الدين علي وأنا مطلوب به ، فقضى الرسول عنه دينه من مال الخاضية .

ومنهم الحكم بن عمرو أسلم في وفد تقيف على رسول ، ومنهم غيلان بن سلمة وكان شاعراً ، وفد على كسرى فسأته أن يبني له حصن بالطائف فبني له ولما جاء الاسلام أسلم ، وكان عنده عشرين نسوة فقل له رسول « اختر منهن أربعاً » فاختار أربعاً وخلق الباقيات

ومنهم شريحيل بن غيلان وكان في وفد تقيف على رسول الله ، ومنهم عبد يليل ابن عمرو وكان رئيس الوفد ، ومنهم كندة بن عبد يليل وأسلم يومئذ ، ومنهم الحارث بن كعدة طيب العرب ، وكان الرسول ﷺ يأمر من به علة أن يتيه ، ومنهم ذفع بن الحارث بن كعدة وهو أبو عبد الله الذي انتقل الى البصرة ، ومنهم الغلاء ابن جارية بن عبد الله بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن تقيف ، ومنهم عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهن بن عبد الله بن همام ابن أبان بن يسار بن مالك بن حطيظ بن جثم بن تقيف ، قدم مع وفد تقيف

على رسول الله بالمدينة وكان أصغرهم سناً فكانوا يخلفونه على رحالم يتعاهدها لهم ، فاذا رجعوا من عند رسول الله وناموا وكانت الهاجرة آتى عثمان رسول الله فأسلم قبلهم سرّاً منهم ، وكتبهم ذلك ، وكان يسأل رسول الله ﷺ عن الدين ويستقره القرآن ، وكان إذا وجد رسول الله نائماً عمد إلى أبي بكر فسأله واستقرأه فأعجب به رسول الله وأحبه ، فلما أسلم الوفد وكتب لهم الرسول ﷺ الكتاب الذي قاضاهم عليه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا : يا رسول الله أمر علينا رجلاً منا . فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغرهم لما رأى من حرصه على الاسلام . قال عثمان بن أبي العاص : استعملني رسول الله ﷺ على الطائف فكان آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ أن قال « خفف عن الناس الصلاة » ولما قبض رسول الله ﷺ كان عامله على الطائف عثمان بن أبي العاص فبقي عليها إلى خلافة عمر ، فاحتاج عمر إلى عامل يستعمله على البحرين فسموا له عثمان بن أبي العاص فقال : ذلك أمير أمره رسول الله ﷺ على الطائف فلا أعزله قالوا له : يا أمير المؤمنين تأمره يستخلف على عمله من أحب وتستهين به فكأنك لم تعزله فقال أما هذا فنعم . فكتب إليه ان خلف على عمالك من أحببت وأقدم علي فخلف أخاه الحكم بن أبي العاص على الطائف وقدم على عمر فولاه البحرين

قال محمد بن سعد في الطبقات فلما عزل عن البحرين نزل بالبصرة هو وأهل بيته وتمرنوا بها والموضع الذي بالبصرة يقال له شط عثمان اليه ينسب . وكان الحكم بن عثمان ممن صحب النبي ﷺ أيضاً

ومن أسلم مع وفد ثقيف أوس بن عوج أحد بني مالك الذي رمى عروة بن مسعود حسباً تقدم القول وكان خائفاً من أبي مليح بن عروة وقارب بن الاسود فشكا ذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فنهاهما أبو بكر عنه وقال لهما أستمسك بهما ؟ قالوا بلى ، قال فتأخذان بدحول الشرك (١) وهذا رجل قدم يريد الاسلام وله ذمة

(١) الدحول بالنال المعجمة والحاء المهملة جمع ذحل وهو النار

وأمان ولو قد أسلم صار دمه عليكما حراماً ثم قارب بينهم حتى تصالحوا وكفوا عنه .
ومنهم أوس بن حذيفة الثقفي وكان ممن أسلم في وفد ثقيف قال خرجنا من
الطائف سبعين رجلاً من الاحلاف وبنى مالك فزل الاحلافيون على المغيرة بن
شعبة وأزنا رسول الله ﷺ في قبة له بين مسكنه وبين المسجد

ومنهم أوس بن أوس الثقفي وبما روى عنه حفيد له انه أوما اليه وهو في الصلاة
ان ناولني نذلي فناولته نعليه فصلى فيها وقل رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعليه
ومنهم الحارث بن عبد الله بن أوس الثقفي ويروى عنه انه قال سمعت
رسول الله ﷺ يقول « من حج أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت »
ومنهم الحارث بن ابيس الثقفي وقد صحب وروى

ومنهم الشريد بن سويد ، وبما حدث به ان النبي ﷺ قال « جار الدار
أحق بالدار من غيره » وقد استنشد الرسول من شعر أمية بن أبي الصلت
وجعل يقول « إن كاد ليلس » مات الشريد في خلافة يزيد بن معاوية .

ومنهم نمير بن خرشة الثقفي كان في وفد ثقيف إلى المدينة .
ومنهم سفيان بن عبد الله وكان فيهم أيضا وولي سفيان الطائف ،
ومنهم الحكم بن سفيان ، ومنهم ابو زهير بن معاذ الثقفي ، ومنهم كردم بن
سفيان جاء الى الرسول ﷺ فقال له إني نذرت ان أبحر عشرة أشهر لي بيوانة (١)

(١) حاشية للمؤلف : بيوانة ، بضم اوله كشامة - هضبة وراه ينبع - ويفتح .
وايضاً ماءة لبني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بالقرب من مكة ، وايضاً ماءة
لبني عقيل ، وانشد الجوهري

لقد لقيت شول بجني بيوانة نصياً ناعراف الكوادر اسحما
وقال وضاح اليمن :

إيا نخلي وادي بيوانة جبداً اذا نام حراس النخيل جناكاً

يقال رسول الله ﷺ « نذرت ذلك وفي نفسك شي من أمر الجاهلية ؟ » قال
لا والله ، قال « فانطلق فانحره »

ومنهم وهب بن خويلد الثقفي أسلم وصحب ومات على عهد الرسول ﷺ ،
ومنهم وهب بن أمية بن ابي الصلتا الثقفي الشاعر وأسلم وهب وصحب ، ومنهم
أبو محجن بن عمرو بن عمير الثقفي وكان شاعراً . ومنهم الحكم بن حزن الكلبي
من بني كلفة بن عوف بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن روى عنه محمد بن
سعد في الطبقات انه وفد على رسول الله ﷺ سابع سبعة او تاسع تسعة وشهد
معه الجمعة فقام الرسول ﷺ متوكئا على قوس او على عصا فحمد الله وأثنى عليه
كلمات خفيفات طيبات مباركات ثم قال « أيها الناس انكم لن تطيعوا ولن تفعلوا
كل ما أمرتكم فسدوا وابشروا »

ومنهم زفر بن حرثان بن الحارث من هوازن ايضا وفد وأسلم ، ومنهم
مضر بن خفاجة بن النابغة من هوازن أيضا وفد وأسلم وشهد حينئذ وذكره
عباس بن مرداس في شعره ، ومنهم يزيد بن الاسود من بني سواة روي انه
صلى مع النبي ﷺ الفجر في مسجد منى في حجة الوداع فلما قضى الصلاة التفت
فاذا هو برجلين لم يصليا فقال « اتبوني بهما » فأتى بهما ترعد فرانصهما فقال
« ما منعكما ان تصليا معنا؟ » قالا : يا رسول الله صليتنا في رحالنا ، قال « فاذا جئتم
ولامه بصلي فصلوا معه فتمها لكونه قلة » وكان يزيد شهد حينئذ مع المشركين ثم
أسلم وصحب . ومنهم عبيد الله بن معية من بني سواة . ومنهم أبو رزين الثقفي
وسمه لقيط بن عامر بن الشفق ، قيل انه أتى الرسول ﷺ فقال له يا رسول الله
يا أبا شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الطعن فقال « حج عن أهلك واعتمر »

وروى ابن سعد في الطبقات انه كان بالطائف بعد هؤلاء من الفقهاء والمحدثين

عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي وعاصم بن سفيان الثقفي، وابوهندي الذي روى عنه سعيد بن المسيب، وعمرو بن أوس الثقفي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان ابن عبد الله من ثقيف واما أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية وخاله معاوية . وكان جده عثمان بن عبد الله حامل لواء المشركين يوم حنين فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال رسول الله « أبعد الله انه كان يبغض قريشا » وقد ولي عبد الرحمن بن عبد الله الكوفة ومصر . قال محمد بن سعد: وولده اليوم يسكنون دمشق (محمد بن سعد كان في القرن الثالث)

ومنهم وكيع بن عدس (بضمين) ويعلى بن عطاء أقام بواسط في آخر سلطنة بني أمية وعبد الله بن يزيد، وبشر بن عاصم الثقفي، وإبراهيم بن مسيرة وعطيف ابن أبي سفيان، وعبيد بن سعد، ومحمد بن أبي سويد وسعيد بن السائب وعبد الله ابن عبد الرحمن بن يعلى بن كعب الثقفي ويونس بن الحارث الثقفي ومحمد بن عبد الله بن أفلح الطائفي ومحمد بن أبي سعيد الثقفي ومحمد بن مسلم بن سوسن الطائفي ويحيى بن سليم الطائفي وكان قد نزل مكة

* *

وأما شهداء الصحابة في الطائف عام ثمانية للهجرة فهم سعيد بن سعيد بن العاص الأموي . وعرفطة بن عبد الله بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس القرشي أحد المهاجرين إلى الحبشة . وعبد الله بن الحارث بن قيس أخو السائب ومثله في الهجرة إلى الحبشة . وضاحة بن عبد الله بن ربيعة وثابت بن الجزع الخزرجي من الأنصار والمنذر بن عبد الله الخزرجي الأنصاري، وورقيم الأنصاري وعبد الله بن عامر بن ربيعة ورجل من بني الليث وألحق بعضهم بهم عبد الله بن أبي بكر الصديق لأنه كان جرح في غزاة ذات أرف وندمل جرحه عدة ثم انتكس ومات

ومن أشهر المولودين في الطائف زياد بن عبيدالمعروف زياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين في نسبه وهو الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان وأمه سُمية جارية الحارث بن كلدة . كان كاتباً لابي موسى الأشعري ، وكانت ولادته سنة الهجرة وقال في الطبقات الكبرى: عام الفتح ، ولي البصرة لمعاوية حين دعاه وضم اليه الكوفة فكان يشتم بالبصرة ويصيف بالكوفة ، ويولي على الكوفة إذا خرج منها عمرو ابن حريش، ويولي على البصرة إذا خرج منها سمرة بن جندب، ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء الا انه كان معروفاً . ثم ذكر صاحب الطبقات ان عائشة أم المؤمنين كتبت اليه كتابا خاطبته فيه زياد بن أبي سفيان ، ومات بالكوفة وهو عامل عليها لمعاوية . وكان زياد بلا مرء من أعظم الرجال . قال الشعبي : ما رأيت أحداً أنجس ناديا ولا أكرم مجلسا ولا أشبه سرّاً بعلانية من زياد وقال الاصمعي : أول من ضرب الدنانير والدرهم ونقش عليها اسم الله ومحا عنها اسم الروم ونقوشهم زياد . وقال العتبي : ان زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بمحضرة السلطان ، وقالوا انه أول من عرف العرفاء ورتب النقباء ومشي الاعوان بين يديه ووضع الكرمي وربيع الاربع وخمس الاخماس في الكوفة والبصرة .

ونقل الخبير الزركلي عن ابن حزم مايلي : امتنع زياد وهو قفعة القاع (القفعة بفتح أوله القفة من خوص وقد يكون أعلاها ضيقاً وأسفلها واسعاً وفي ابنن يصغرونها ويقولون قفوعة، واما القاع فالارض الطمينة، والمقصود بذلك انه ليس بشيء في نسبه وحسبه) لاعشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم فما أطاقت معاوية إلا بالمدارة حتى أرضاه وولاه

وقال الاصمعي : الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبيدية ، والمعيرة بن شعبة للمعضلة ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . قلت فضل زياد في المكافحة

التي حازها أعظم من فضل جيبهم لأن معاوية أموي وعمرو بن العاص سهي
والمغيرة ثقفي فاما زياد فهو ابن سمية ... واتما* نفس عصام سوّدت عصاما*
ومن أشهر المولودين بديار الطائف الحجاج بن يوسف الثقفي الذي صار
اسمه رمزاً للظلم وسفك الدماء ، فذا قيل سفك دماء قيل حجاج ، قيل انه قتل
أكثر من مائة ألف صبياً ، وسموه يقول عند الموت: رب اغفر لي فان الناس
يزعمون انك لا تغفر لي .

قال الذهبي في كتاب دول الاسلام: انه كان شجاعاً مهيباً جباراً عنيداً ،
ومخازبه كثيرة إلا انه كان طالماً فصيحاً مغوهاً مجوداً للقرآن . وقل انه قتل
الامام المنصور سعيد بن جبير ظلماً . فما أمهله الله بعده فهلك في رمضان سنة
خمس وتسمين وله ثلاث وخمسون سنة . وقرأت في محل آخر انه عش خمساً
وخمسين سنة ، وقال ابن خلكان انه كان عمره ثلاثاً وخمسين ، وقيل اربعا
وخمسين وهو الاصح . وروى ابن خلكان انه كان ينشد في مرض موته هذين
البيتين لسعيد بن سفيان العكلي

يارب قد حلف لاعداء واجتهدوا ايمنه نبي من ساكني اذر
أيحلفون على عمياء ويحسم ماظنهم بعظيم العفو غفار
قلت ان انداس غير مخطئين فيما يذهبون ايه من امر الحجاج ، فكأن الله
عظيم العفو فهو عظيم العدل أيضاً سبحانه وتعالى ، إن لم يعاقب مثل الحجاج على
ماسفك من دماء الابرياء فمن يستحق العقوبة اذ ؟

وقل ابن خلكان عن مرضه : إن الله سلط عليه لزمه رير فكانت لوانين
تجعل تحته مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بهم .. ، وشكا
مايجده إلى الحسن البصري فقال له : قد كنت نهيتك أن تعرض لي الى الحين
فلججت ، فقال له : يا حسن لا أسألك ان تسأل الله ان يفرج عني ولكن سألك

ان تسأله يعجل قبض روجي ولا يطيل عذابي . ولما جاء موت الحجاج إلى الحسن البصري سجد لله تعالى تكرراً وقال اللهم انك قد أمدته فامت عنا سنته . وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وعفي قبره وأجري عليه الماء

قلت ليس الحجاج مسؤولاً فيما أناه من الموبقات وقتل من قتل من عباد أكثر من عبد الملك بن مروان الذي استعمله وأملى له . وكان ولاء العراق وخراسان ، وولاه قبل ذلك الحجاز ، وكانت له امرأة بدمشق ولا يزال فيها بناء اسمه قصر حجاج أدلته منسوبة له ، ولما توفي عبد الملك وتولى الوليد أبقاه في عمله فكأنه أعجب بني أمية

وقال ابن خلكان: وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بتلها ويقال ان زياد بن أبيه — او ابن سمية او ابن ابي سفيان — أراد ان يتشبه بامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات إلا انه أسرف وتجاوز الحد، واراد الحجاج ان يتشبه بزياد فاهلك ودمر ، وكان الحجاج يخبر عن نفسه ان أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ومن كان كذلك فكيف يوليه الخلفاء الولايات الكبرى ويطلقون فيها يده ؟ نعم ان الضبط والربط والحزامة من الامور التي تصلح للولاة ، بل من الامور التي لا يصلح الولاة إلا بها ، لكن على شرط ان لا يخرج ذلك بالولاة إلى الاسراف والاعتداء وتجاوز حدود الله ، فان العدل هو الحد الوحيد الذي لا يجوز التأخر عنه ولا التقدم عليه ، ومن تجاوز حد العدل فقد أفرط ومن تأخر عنه فقد فرط ، وما يسع الجميع إلا العدل ، ومن أشد الامور ضرراً ان يعتمد الوالي او القائد اتيان الامور التي تجعل له هيبة في قلوب الناس بزعمه ، او ان يتلذذ بسمة البطش وارهاف الحد كما كان يفعل جمال باشا التركي قائد الجيش العثماني في سورية أيام الحرب الكبرى ، فقد كان يعتمد البطش واظهار الاستخفاف بدماء البشر املاً بان ينال النهاية في الصدور وان تسير عنه

الاخبار ، فاضر عمله بدولته وأمته وزاد في شقاق الترك مع العرب وما نفعت سياسته إلا الأفرنج الطامحين إلى البلاد، وما نفعت إلا الرائدین لهم الساعين بين أيديهم من أبناء البلاد

فاما الحزامة والضبط فقد روي فيها عن الحجاج ما لو وقف عند ذلك الحد، لما انتقده أحد، قالوا : كان الحجاج وابوه يعلمان الصبيان بالطائف ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته إلى ان رأى عبد الملك انحلال عسكره ، وان الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع . فقال له إن في شرطتي رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لا رحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله، يقال له الحجاج بن يوسف ، قال فانا قد قلدناه ذلك . فكان لا يقدر أحد ان يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع، فوقف عليهم يوما وقد أرحل الناس على الضعاف يأكون فقال لهم : مامنكم ان ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقالوا له انزل يا ابن اللعنة فكل معنا ، فقال لهم هيهات ذهب ذلك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأمر بفساطيط روح فأحرقت بالنار ، فدخل روح على عبد الملك باكيا وقال يا أمير المؤمنين إن الحجاج الذي كان في شرطتي ضرب غلاماني وأحرق فساطيطي ، قال علي به ، فلما دخل عليه قال ما حملك على ما فعلت؟ قال انا ما فعلت، قال ومن فعل؟ قل أنت فعلت انما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين ان يخاف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ، ولا يكسرني فيما قدمني له . فمن ذلك الوقت تقدم الحجاج في منزلته ، ولكن كان ينبغي لهم ان يلزموه من الحزامة والصرامة هذا الحد ولا يسمحوا له أن يتجاوز

قال الامام السيوطي في تاريخ الخلفاء « لو لم يكن من مساويء عبد الملك

إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة رضي الله عنهم بينهم ويذمهم قتلا وضربا وشتما وحبسا ، وقد قتل من الصحابة والتابعين مالا يحصى فضلا عن غيرهم ، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختما يريد بذلك ذمهم فلا رحمه الله ولا عذابه »

(قلت) وأغرب من تولية عبد الملك الحجاج بن يوسف - توصيته ولده الوليد به عند موته فقد قال له وهو يجود بروحه « وانظر إلى الحجاج فإكرمه فإنه هو الذي وطأكم النار وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناواك فلا تسمعن فيه قول أحد وأنت إليه أحوج منه اليك » فكان عبد الملك تحمل تبعه أعمال الحجاج حيا وميتا

ومن أغرب الغرائب أن بعض الناس يلتمس المنذر لعبد الملك بقوله : إن الحجاج هو الذي أتقذ ملك بني أمية وأنه لولاه لا انتقلت الخلافة لآل الزبير. فان الناس بعد موت يزيد بن معاوية بايعوا لعبد الله بن الزبير، وكان فحل قريش الصائل في وقته ، لا يدركه أحد في شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة ، وأطاعه الحجاز واليمن والعراق وخراسان، ولم يمتنع عن مبايعته إلا أهل الشام ومصر فانهم بايعوا معاوية ابن يزيد إلى أن مات، فبايعوا ابن الزبير إلى أن خرج مروان بن الحكم فقلب على الشام ومصر . والحافظ الذهبي لا يعده من أمراء المؤمنين بل يعده باغيا خارجا على ابن الزبير وبعد عهده لابنه عبد الملك بن مروان غير صحيح وقد صحح السيوطي هذا القول وهذا يدل على أن أصل الولاية في الاسلام هو ولاية الامة ، وان لا ملك ولا خلافة إلا من الامة (١) وان الاختيار هو الشرط الاول لا الارث، خلافا لظن من لم يقرأ شيئا عن أصول الحكم في الاسلام ، ظنوا أن استمداد الحكم من الامة

(١) والدليل على ذلك أنها لا تعقد الا بمبايعة الامة الاختيارية، واما الارث فلا أصل له ولا دليل عليه البتة

هو منزع أوربي جديد ! قاتلهم الله ما أجهلهم بالتاريخ هذا إن لم يكونوا يتجاهلون
عمداً للمرض الذي في قلوبهم

ولما استوسق الامر لعبد الملك أرسل الحجاج في اربعين ألفاً لقتال ابن الزبير
فحصره بمكة أشهراً ورمى الكعبة بالمنجنيق وخذل ابن الزبير أصحابه وتسلاوا إلى
الحجاج فظفر به وقتله، وكان ابن الزبير أخيراً أمه أسماء بنت ابي بكر الصديق
رضي الله عنهما عن خذلان الناس اياه واستشارها فيما يصنع فأشارت عليه بان يخرج
ويقاتل إلى ان يقتل في خبر يعرف منه الانسان درجة الانفة وعزة النفس اللتين
عند العرب حتى عند النساء اللاتي كن يفضلن قتل أولادهن على المهانة والنذل



ونعود إلى المشهورين من ثقيف ومن سكن ديار الطائف، فمنهم السائب بن
الاقرع الثقفي روى عن عمر بن الخطاب و كان قليل الحديث وولاه عمر ولايات
في فارس بعد ان شهد فتح نهاوند العظيم ومات باصبهان
ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ابن أنبي الحجاج وهو ممن ولي مكة
تولاها في زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك

العرجي الشاعر

ومنهم العرجي-الشاعر المشهور- وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن
عثمان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس، قال في كتاب الاغانى سعى العرجي لانه
كان يسكن عرج الطائف. وقيل سعى كذلك لما كان له ومال عليه بالعرج. وكان
من شعراء قريش، ومن شهر بالعزل منهم ونحو عمر بن ابي ربيعة في ذلك
وتشبه به فاجاد، وكان مشغوقاً باللهو والصيد حريصاً عليها قليل المحاشاة لاحد
فيها. نقل السيد خير الدين الزركلي في كتابه «مارأيت وما سمعت» عن كتاب
«العقد الثمين في تاريخ البلدا الامين» للمؤرخ الامام الحافظ ابي الطيب محمد

تقي الدين بن أحمد بن علي الحسيني الفاسي المكي المتوفى في منتصف القرن التاسع
 ان محمد بن هشام بن اسماعيل كان والياً على مكة لهشام بن عبد الملك فسجن العرجي
 في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن الى أن مات . ولكن رواية
 الاغاني تخالف ذلك، فهو يقول انه كان يشب بجيداء أم محمد بن هشام بن اسماعيل
 المخزومي ليفضح ابنها لالحبة كانت بينهما، فكان ذلك سبب حبس محمد اياه وضر به
 له حتى مات في السجن . وذكر صاحب الاغاني انه كان صاحب غزل وفتوة وقال
 انه كان من الفرمان المدودين مع مسلمة بن عبد الملك بارض الروم وكان له معه
 بلاء حسن ونفقة كثيرة . وذكر أن العرجي باع أموالاً عظيماً كانت له واطعم ثمنها
 في سبيل الله حتى نفذ ذلك كله . وكان قد اتخذ غلامين فاذا كان الليل نصب
 قدره وقام الغلامان يوقدان فاذا نام الواحد قام الآخر، فلا يزالان كذلك حتى
 يصبحا يقول لعل طارقاً يطرق . وأخبار العرجي كثيرة ونكاته مشهورة، والظاهر
 انه كان على كرم عريض وفتوة أكيدة الا أن الله ابتلاه بالنسيب بنساء قريش في
 شعره مما كان يمرض من يتشبه بهن للظنة وسوء القالة . ومنه ظريف ما يحكى
 ان جارية من مولدات مكة صارت إلى المدينة فلما أتاهم موت عمر بن أبي ربيعة
 اشتد جزعها ، وجعلت تبكي وتقول : من لمكة وشعابها وأباطحها وتزها ووصف
 نساءها وحسنهن ؟ فقيل لها : خفصي عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضي
 الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه . فقالت : انشدوني من شعره فانشدوها
 فسحرت عينها وضحكت وقالت الحمد لله الذي لم يضع حرمه

* *

أمية بن أبي الصلت

ومن اشتهر بالنسبة إلى الطائف أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة
 ابن عوف بن عقدة بن عنزة بن قيس وهو تقيف بن منبه بن بكر بن هوازن

قال صاحب الاغانى : هكذا يقول من نسبهم إلى قيس . وأم أمية بن أبي الصلت
قرشية وهي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف

وكان أمية من أشعر العرب واليه ينسب هذا البيتان

قوم إذا نزل الغريب بإرضهم ردوه رب صواهل وقيان
لا ينكتون الارض عند سؤالهم لتلس العلات بالبيدان
وهما من قصيدة أولها

قومي ثقيف إن سألت وأسرتي وجهم أدافع ركن من عاداتي
قال ابو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعراهل المدن أهل يثرب ثم عبدالقيس
ثم ثقيف، وان أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت . قالوا وطمع أمية في النبوة وكان
قد نظر في الكتب وقرأها ولبس السوح تعبداً وحرم الخمر وشك في الاوثان
وكان مما قرأ أن نبيا يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون هو . فلما بعث
النبي ﷺ قيل له هذا الذي كنت تنتظره فغسده وقال انما كنت أرجو أن
أكونه . وكان يرثى قتلى قريش في وقعة بدر

ومما استحسن من شعره قوله معاتباً ابناً له أنضبه

غذوتك مولوداً ومنتك يافماً تعلم بما أجنبي عليك وتنهل
إذا لينة آبتك بالشجو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتعملل
كأني أنا الطروق دونك بالذي طرقت به دوني فمبني تهمل
نخاف الردى نفسي عليك وانتي لاعلم ان الموت حتم مؤجل
فلما باغت السن والعناية التي اليها مدى ما كنت فيك أومل
جملت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت النعم التفضل

ومات ولم يؤمن بمحمد ﷺ لكنه كان يقول ان الخيفية حق لذلك كان

الرسول يقول ﷺ « ان كاد أمية ليسلم »

طريح بن اسماعيل الثقفى الشاعر

ومنهم طريح بن اسماعيل بن عقبة الثقفى وساق صاحب الاغانى نسبة هكذا:
 طريح بن اسماعيل بن عبيد بن أسيد بن علاج بن أبي سلمة بن عبدالعزى بن عزة
 ابن عوف بن قسي وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة
 ابن خصمة بن قيس بن عيلان بن مضر . قال ابن الكلبي : ومن الذسابين من
 يذكر أن، ثقبفا هر قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أقصى بن
 دعمي بن اباد بن نزار . وروى الكلبي ان ابارغال هو ابو ثقيف كلها وانه من
 بقية تمود وكان مديكا بالطائف . وقيل بل ذكرت القبائل عند النبي ﷺ فقال
 « قبائل تنعى الى العرب ، وايسوا من العرب حير من تبع وجرهم من عادو ثقيف من تمود »
 وكان طريح شاعراً فخلاً اتقطع الى الخليفة الوليد بن عبدالملك الذي كان
 يمت اليه بالقرابة لان أم الوليد ثقفية واستفرغ شعره في الوليد وأدرك دولة
 بني العباس ومات في زمان المهدي العباسي وقبل في زمان الهادي

وكان الوليد مكرماً لطريح عظيم البر به . وكان طريح يغلو في مدحها ما شاء ،
 قيل ان الوليد جلس يوماً في مجلس له عام ودخل اليه أهل بيته ومواليه والشعراء
 وأصحاب الخواج فقضاها وكان أشرف يوم رؤي له فأنشده طريح ما يأتي
 انت ابن مسلتح البطاح ولم تطرق عليك الخني والولج
 طوبى لفرعيتك من هنا وهنا طوبى لاعراقك التي تشح
 لوقات للسيل دع طربتك والو ج عليه كالهضب يمتلج
 لساخ وارتد أو لكان له في سائر الارض عمك منمرج

مسلتح البطاح ما اتسع منها . والخني ما انخفض من الارض . والولج كل
 متمس في الوادي ، أي لم تكن بين الخني والولج ليخفي مكانك ، وطوبى لفرعيتك

من هنا وهنا أي انه كريم الاب والام من قريش وثقيف، وأنه يطيعه من هيته
كل شيء حتى انه لو أمر السيل بالانصراف لاطاعه .

قيل انه لما انتضت دولة بني أمية واديل منهم لبني العباس دخل طريح على
المنصور في جملة الشعراء فقال له المنصور : لحياتك الله ولا يياك أما اتقيت الله ،
وبلك حيث تقول للوليد بن يزيد

لوقلت للسيل دع طريقك والمو ح الخ

فقال طريح : قد علم الله عز وجل أني قلت ذلك ويدي ممدودة اليه تبارك
وتعالى واياه تعالى عنيت فقال المنصور : ياربيع أما ترى هذا التخلص ؟

ويجبني جداً من شعر طريح هذه القصيدة في الوليد

لم انس سلمى ولا ليالينا	بالحزن اذ عشنا بها رغد
اذ نحن في ميعة الشباب واذ	أيامنا تلك غضة جدد
في عيشة كالفرند عازبة الش	قوة خضراء غصنها خضد
نحسد فيها على النعيم وما	بواع إلا بالنعمة الحسد
أيام سلمى غريرة أنف	كأنها خطوط يانة رؤد
ويحي غداً إن غدا علي بما	أكره من لوعة الفراق غد
قد كنت أبكي من الفراق وأح	يانا جميع ودارنا صدد
فكيف صبري وقد تجاوب با!	فرقة منها الغراب والصرد

ومنها في المدح

دع عنك سلمى لغبر مقلية	وعد مدح بيوته شرد
للافضل الافضل الخليفة عب	د الله من دون تأوه صعد
في وجهه النور يستبان كما	لاح سراج النهار إذ يقعد
يمضي على خير مايقول ولا	يخلف ميعاده اذا يعد

من معشر لا يشم من خذلوا
 عزا ولا يستذل من رقدوا
 بيض عظام الخلوم حدم
 ماض حسام وخيرم عند
 أنت امام الهدى الذي أصلح
 له به الناس بعد ما فسدوا
 لما أتى الناس ان ما كهم
 اليك قد صار أمره سجدوا
 واستبشروا بالرضا تباشروهم
 بالخلد لو قيل انكم خلد
 رزقت من ودهم وطاعتهم
 ما لم يجده من والد ولد
 أثلجهم منك أنهم علموا
 أنك فيما وايت مجتهد
 ألفت أهواءهم فاصبحت الا
 ضغان سلما وماتت الخقد
 كنت أرى ان ما وجدت من
 فرحة لم يلق مثله أحد
 حتى رأيت العباد كلهم
 قد وجدوا من هواك ما أجد
 قد طلب الناس ما بلغت فما
 نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا
 يرفعك الله بالتكرم والتقى
 حسب امرىء من غنى تقربه
 فأنت أمن لمن يخاف ولا
 مخذول أودى نصيره عضد

غبرور الشاعر

ومن ينسب إلى الطائف من الشعراء غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن
 كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي وهو ثقيف وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن
 عبد مناف بن قسي أخت أمية بن عبد شمس أدرك الاسلام فأسلم بعد فتح
 الطائف ولم يهاجر ، وأسلم ابنه عامر قبله وهاجر ومات عامر بطاعون عمواس بالشام
 سنة ١٨ وكن مع خالد بن الوليد وكان فارس ثقيف في زمانه فرثاه غيلان بقوله
 عيني بجود بدمها الهتان سمحا وتبكي فارس الفرسان
 يا عامر من للخير لما أحجمت عن شدة رهوبة وطعان

لو أستطيع جعلت مني عامراً بين الضلوع وكل حي فان
وكان له من الولد غير عمر ثلاثة عمار وناقع وبادية ، وقيل إن خشم جمعت
جوعا من اليمن وغزت ثقيفا بالطائف فخرج اليهم غيلان بن سلمة في ثقيف فقاتلهم
قتالا شديداً فهزمهم وقتل وأسرى من علي الاسرى قتال :

ألا يا أخت خشم خبرينا بأي بلاء قوم تفخرينا
جلبنا الخليل من اكناف وج وايّة نحوكم بالدار عينا
تركن نساءكم بالدار نوحا يكون البعولة والبنينا
جمعتهم جمعكم فطلبتمونا فهل أنبثت حال الطالينا

واستشهد نافع بن غيلان مع خالد بن الوليد بدومة الجندل فخرج عليه غيلان وقال :

ما بال عيني لا تغمض ساعة إلا اعترتني عبرة تغشاني
أرعى نجوم الليل عند طلوعها وهنا وهن من الغروب دوان
يا نافعاً من لفوارس أحجمت عن فارس يملو ذرى الاقران

وكرر بكاء غيلان على نافع فعوتب في ذلك فقال : والله لا تسمع عيني بماها
فأضن به على نافع ثم تناول العهد ففتر ما به فقبل له في ذلك فقل : بلي نافع وبلي
الجزع ، وفني وفنيت الدموع واللحاق به قريب .

ووفد غيلان على كسرى في خبر استوفاه صاحب الاغانى فمهد اليه كسرى

بان يبني له قصرأ بالطائف ففعل

ومن ينسب إلى الحائف واشتهر جداً المختار الثقفى بن ابي عبيد ولد عام
الهجرة ورحل من امة ثقف مع أبيه في أيام عمر حين ندب الناس إلى العراق وكان
منقطعاً إلى بني هاشم وصحب علياً وسكن البصرة بعد علي ، ولما تولى بنو أمية
نقوه إلى الحائف بلده فأقام بها إلى ان بويع عبدالله بن الزبير بمكة فذره واستعمله
ابن الزبير على الكوفة فخرى بينه وبين مصعب بن الزبير خلافاً أدى إلى القتل
فقتله مصعب في سنة ٦٧ وقيل ادعى النبوة فقتله ابن الزبير

تخطيط الطائف

وسبب نزول ثقيف بها

وانذكر الآن ما قيل عن تخطيط الطائف وسبب نزول ثقيف بها فنقول
قال الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » الذي لم يؤلف في بابيه مثله مايلي :
« الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ يدبغ بها الالهب الطائفية
المعروفة وتسمى المدينة أيضا الطائف والمعنى مدينة الطائف ، وساكنو الطائف
ثقيف ، ويسكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص ، وواد قريب من
الطائف يقال له (برد) فيه حائطان زبيدة عظيمان يقال لموضعهما (وج) وبشرقي
الطائف واد يقال له (لية) يسكنه بنو نصر من هوازن . ومن يماني الطائف واد
يقال له (جفن) لثقيف وهو بين الطائف وبين معدن البرام ، ويسكن معدن البرام
قريش وثقيف . ومن قبلة الطائف أيضا واد يقال له (مشرق) لبني أمية من قريش
ووادي (جلدان) منقلب إلى نجد في شرقي الطائف يسكنه بنو هلال . وفي قبلة
الطائف حائط أم القندر الذي يدعى (سلامة) وبين الطائف وبين عرفة وادي تمان
وفيه طريق الطائف المقتصرة إلى مكة وأما المحجة فعلى قرن المحارم » انتهى
قات أما ان الطائف قديمة جاهلية فما لاشك فيه . وقال في صبح الاعشى :
انها كانت قديما للعاقلة ثم نزلها عمود قبل وادي القرى ويقال انه نزلها عدوان
بعد العاقلة وغلبهم عليها ثقيف فهي الآن دارهم ،
وأما الدباغ فايس له أثر اليوم فيما رأيت . وأما برد (بالتحريك) فالذي سمعته
من أهل الطائف انه اسم الجبل الذي في غربي الطائف يبعد عنها نحو ثلاث إلى أربع
ساعات وهو أعلى جبل هناك ومن أسفله يأتي ماء الشناة ومنه يسيل وادي وج . ولا

يتأقيه قول الهمداني انه واد فان الجبل لا يكون بلا واد والوادي لا يتصور وجوده بلا جبل فقد يكون اسم « برد » للجبل والوادي معاً. وهذا الجبل شديد البرد ومنه اسمه « برد » لدال على برده إلا انه لا ينزل عليه الثلج في الشتاء مثل جبال الشام وإنما ينزل البرد (محرقة) وهو حب النعام ويتجمد فيها الماء. والجبال في جزيرة العرب وإن أذقت على جبال الشام في الارتفاع فنها لوقوعها في المنطقة الحارة (إن الهمداني يستعمل الحبة بالكسر بمعنى المنطقة ولعله أخذها من قولهم الحبة مشاة طريقة من رمل أو سحب، والحبة من اثوب شبه الطرة، وقيل شبه طية من الثوب مستطيلة) لا ينزل عليها الثلج مثل جبالنا فلماذا لا تجد في الجزيرة الأنهار الكبار التي تجدها في الأراضي الضاربة في الشمال (١)

وقد ورد في كتب اللغة اسم « برد » و « بردى » و « برديا » لاماكن كثيرة من أنهار وغدران وجبال وغيرها وقيل ان « برد » وضبطها البكري بكسر الراء - جبل في أرض عطفان، ولا أظن انه هو هذا الجبل الذي يقرب الطائف لان هذا مفتوح الراء ثم لان عطفان وهم بطن من قيس - عيلان كانوا ينزلون بوادي القرى شمالي الحجاز وبجبي أجا وسلمى فيست منذرهم بالطائف وجبالها وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان « برد » محرقة بفتح الراء وقل انه موضع في قول بدر بن حزان الفزاري :

ما اضطرك الحرز من ليلي إلى برد يخناره معقلا عن جش عيار

ولم يعين هذا الموضع. اما جش أعيار الذي ذكره بدر الفزاري فهو موضع أيضاً لم يذكر ياقوت أي موضع هو؟ وجاء في تاج العروس هذا البيت منسوباً إلى بدر المزي لابدر الفزاري. ولم يفسر « جش أعيار » إلا بقوله موضع

(١) يقول بعض علماء الأفرنج انه كان فيها انهار عظيمة وعمران عظيم قبل

عصر التاريخ ويدل على ذلك وجود الوديان العميقة

وأغرب منه ان البيت نفسه وارد في لسان العرب منسوبا إلى النابغة «وجش
أعيار» غير مفسر فيه إلا بقوله موضع، وأورد ياقوت بيتاً آخر عن «برد» مفتوح
الراء للفضل بن العباس اللهي :

اني إذا حل أهلي من ديارهم بطن العتيق وأمست دارها برد

وبعده :

تجمعنا نية لا انخل واصلة سمدي ولا دارنا من دارهم صدد
ولانقدر أن نعرف منه هل برد المقصود في هذا الشعر هو هذا الجبل الذي
نحن بصدده أم غيره ؟ وقد ورد اسم « بردى » بالالف المقصورة لجبل في الحجاز
فهل ياترى هو هذا الذي يقولون له « برد » وقد أوردوا شاهداً عليه قول النعمان
ابن بشير كافي تاج العروس

يا عمر لو كنت أرقى الهضب من بردى او العلاء من ذرى نعمان او جردا
بما رقيتك لاستهوت مانعها فهل تكونين الا صخرة صلدا
قالا شبه أن يكون هو المراد وذلك نظراً لذكره « نعمان » وهو الوادي الذي
بين مكة والطائف ومنه إلى « الهدا » العقبة الكبرى التي يقال لها « الكرى
الكبير » واما « جرد » محرّكة فهو جبل في بني سليم

واما قول الهمداني « ان في برد حائطين كبيرين لزيدة عظيمين يقال لموضعهما
وج » فأظنه يعني بهما « الوهط » و « الوهبط » الاول بنتح فسكون والثاني
بالتصغير وذلك انه لا يوجد في سفوح برد مياه جارئة تسقي بساتين الا في الوهط
والوهبط، الاول جار الآن في وقف الاشراف ذوي زيد والثاني ينحس ذرية
الشريف عون الرقيق من ذوي عون . ولقد ورد ذكر الوهط في معجم البلدان
قال ياقوت : والوهط المكان المضمئن المستوي ينبت العشاء والسمر والطلع وبه
سمي الوهط .. وهو مال كان لعمر بن العاص بالطائف وهو كرم كان على الف

الف (أي مليون) خشبة شري كل خشبة بدرهم. قال ابن الاعرابي: عرش عمرو ابن العاص بالوهط الف الف عود كرم على الف الف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم ففج سليمان بن عبد الملك فر بالوهط فقال: أحب أن أنظر اليه . فلما رآه قال هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لاحد مثله ،ولولا أن هذه الحرة في وسطه . فقيل له : ليست بحرة ولكنها مسطاح ازيب و كان زيبيه جمع في وسطه فلما رآه من البعد ظنه حرة سوداء . وقال ابن موسى الوهط قرية بالطائف هي على ثلاثة أميال من وج كانت لعمر بن العاص

قلت: لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر ثم غزا منها طرابلس مر بالجبل الاخضر الذي يندر نظيره في الخصب والامراع وخضرة البقاع فقال : ولا أموال بالهجاز ما اخترت على هذه الارض . فكنت إذا قرئت هذا الكلام ولم تكن عرفت جبال الطائف أتعجب منه قال ماذا عسى أن يكون لسيدنا عمرو من الاموال في قطر ناشف كالخجز ؟ و ذهبت في جهاد طراباس الغرب الى الجبل الاخضر وأقيمت به أشهراً وعرفت عين منصور وعين ماره والقميق وشحات (محل سيرنا القديمة) والمرج وغيره ، وسرت بين فيضان لدوح ومشبك الشجر الذي لا يتخلاه نور الشمس في كثير من المواضع مسفة عشرة أيام ورأيت تلك المناظر الشرفة من شاهق على البحر لا يحاكي فسحة منظرها الا عالية وعبية وبيت مري وبرمانا وما في خطها من جبال لبنان، قلت للنفسي لما عرفت ما الجبل الاخضر وما هو من طيب النجمة علمت معنى اقتنان عمرو بن العاص بالجبل الاخضر لكني لم أعلم وجه مقايسته له بالحجاز وعده رغبته عن أمواله في الحجاز الى ذلك الجبل المنقطع الخيزر في الخضرة والنعمة ، لا ابي ناشهدت جبال الطائف وأقيمت بها أيضا عدة أشهر علمت ان لعمر بن العاص وجه لتمول وحقه في اتيه بمواله في الحجاز ، فان في جبال الطائف جنانا مدت عيب لخضرة ووقتها ورياضا

شدت بها النضرة نطاقها، فاما الوهط فقد انحط كثيراً عن درجته السابقة ورتبته السامقة ولا نجد فيه لآلاف الفهود كرم ولا الفعود كرم ولا مسطاحاً واحداً للزبيب (١) ومن أغرب الأمور التي حدثت كثيراً في أرض الوهط على ما هي عليه الآن فلم أجدها تسع هذه النعمة التي وصفوها، ولم أجد الماء كافياً لشيء منها، بل رأينا عين الوهط وكان ذلك في شهر أغسطس لأنجري إلا إلى مسافة قصيرة جداً وقل لنا أهل القرية أنها في بعض السنين التي يكون المطر فيها نزرأً تنقطع تماماً ويضطرون إلى الاستقاء من الشاة أي من مسافة ساعة. فكيف كان الوهط بتلك النعمة التي حدثوا عنها وهو الآن لا يكاد ماؤه يسقى بهض حيطان، وقد ينقطع بعض السنين، ان في ذلك لسراً. والذي أظنه انه قد كان الشجر في جبال الطائف لذلك المهدأ أكثر جداً فكان المطر أغزر وكانت العيون تجري وكانت الجنان أعظم، وان الذي أصاب هذه الجبال من قلة المطر التي لا تسمع أهل تلك الديار إلا شاكين منها إنما هو من أثر قطع الأشجار وزوال الحراج الملتفة. وهناك سبب آخر للخصب والعمران قد زال أيضاً بتطاول الأعصر وهو السدود التي كانوا يحملونها على الأودية ومجاري المياه الشتوية فكانت تخزن المياه إلى مدة طويلة وتسقى الأرضات العطاش وتمسك بأرماق الحضرة في سني القحط،

(١) الذي في لسان العرب وفي القاموس هو المسطح لا المسطاح قال في اللسان والمسطح تفتح ميمه وتكسر مكان مستوي يسط عليه التمر ويحفف ويسمى الجرين يمانية، وقد استدرك صاحب تاج العروس على القاموس بقوله والمسطاح لغة في المسطح ومنه قول ياقوت الحموي او قول الذي نقل عنهم. ونحن أيضا في جبل لبنان المسطاح تين ومسطاح زبيب)

وأينما ذهبت في جزيرة العرب تجد سدوداً دارسة وقنياً خربة (١)
ولما كن العرب منحصرين في الجزيرة لا يتجاوز ملكهم شطوطها البحرية
وبادية الشام من الشمال كانت الجزيرة عامرة والمدن كثيرة والقرى متصلة والمزارع
ناضرة والقصور والجواسق وأما كن الغزاة لا يأخذها العداء، فن أراضيها للنبته
كانت تضيق بأهلها فكاتبوا يملكون فيها بكم عظيم ليستغلوا منها كل ما يقدرون
أن يستغلوه ويتذرعون للخصب بأصناف الخيل . فلما ظهر الاسلام وهب العرب
للفتوحات ونشر عقيدة التوحيد من جبال الهند كوش الى جبال الالب وكان
خلفاؤهم يندبونهم للغزوات ويستجيشونهم بدون انقطاع، وكانوا هم مادة الاسلام

«١» حاشية المؤلف: قرأت في ارجوزة حمد بن عيسى الرداعي في الحج قوله

لضيعة الطلحي مستقيمة	صادرة عنها تؤم الزيمة
ثم على سبوحة القديمة	حيث يريد الصخرة القديمة
مطبة في السير ذي الزيمة	الى اربك تمنى صديعة
حميدة في الركب لا مائة	باقية اعراقها كريمة
اني لأرجو ان ترى سليمة	محمودة في الركب لامدية

قال الهمداني في تفسير هذه الايات ضيعة الطلحي من قرين نخل قديمات.
الزيمة موضع فيه بستان ابن عبيد الله الهاشمي وكان في ايام المتندر على غاية العمارة
وكان بقل خمسة الاف دينار مثقال وفيه حصن العفانة مبني بالصخر ويحيط به بنو
سعد من ساكنه عروان وعدد جذوعه الوف . وفيه نخل مستخرج من وادي نخلة
عز يز يقضى الى فوارة في وسط الحائط تحت حنية ثم الى ماجل كبير، وفيه الموز
والحنا وانواع من البقول . وسبوحة موضع واربك عقبة تضاف الى اشكان فيقال
عقبة اربك بضم الالف واربك بفتحها اه

قلت مررت بالزيمة مراراً ولم اجد شيئاً من تلك العمارة التي كانت في ايام
المتندر ولا حصناً هذا وصفه . وانما هناك دين فوارة من الصخر يسمخ خربها
من بعيد وليس فوقها حنية ويسقي بها العرب بمضخ زرايع واشجار في الوادي

وحملة الدين الجديد الى الامم ، كانت القواصي تأكلهم والحروب تفني منهم مئات
الالوف ، وكانت قبائلهم أصبحت منتشرة من الصين الى الهند الى فارس الى
لروم الى مصر الى أفريقية الى الاندلس الى فرنسة الى جزائر البحر فلم يبق
منهم في الجزيرة العدد الذي يقوم بعمرانها

وكانوا في هذا أشبه بإسبانية التي بعد فتحها للمكسيك ولامريكا الجنوبية
قد تقهرت الى الورا بما هاجر من أهلها الى تلك الديار التي فق فيها الاسبانيول
في العدد من بقي منهم في وطنهم الاصيلي

فهذا هو السبب الحقيقي في تقاص عمران الجزيرة بعد الاسلام حتي عاد
الوجه مثل دسكرة حقيرة بعد أن كان مسطوح الزبيب فيه يظن حرّة لسواده واتساعه
ومما لا ريب فيه ان كروم الطائف كانت لعهد البعثة أكثر مما هي الآن
مراراً وكات الخبرات فوق النصور ، فقد روى البلاذري في «فتوح البلدان»
ان سفيان بن عبدالله اشقفي كتب الى عمر وكان عاملاً له على الطائف يذكر ان
قبيلة حبيثا فيها كروم وفيها من الفرسك (١) والريمان ما هو أكثر غلة من الكروم
أضعافاً وستاً مرد في العشر فكتب اليه عمر : ليس لها عشر

ويظهر من كلام البلاذري انه كانت تصدر من الطائف غلات عظيمة من
زبيب ومن سائر المحصولات ومن العسل ، ولقد بقي من هذا شيء لكنه
لا يمس في قليل ولا كثير إلى ما كان في الجاهلية وصدر الاسلام، وإنما غاضت
هذه الغلات بغيض العمران الذي يتوقف على الرجال . وكان أكثر الرجال
خرجوا إلى الفتوحات واهتمروا أطراف الارض .

«١» المؤلف : الفرسك هو ما نسميه نحن في الشام بالدرافن بالتشديد وقد يخفف . قال

وتضربني الحبيبة بالدرافن وتحسني الحبيبة لا اراها

ويقولون له في مصر والمغرب الحوح . وأما في اليمن فيقولون له فرسك كما في

الحجاز وهي لينة فارسية فان اسم هذه الفاكمة فرسك في بلاد المعجم . ويظهر ان

الامان اخذوها من فارس فهم يقولون لها ايضاً فرسك Pfirsich

والأصلح الآن لاستئذاف الممرات طريقتان : إحداهما زرع الحراج والاكثار من غرس الاشجار حتى تكثر الامطار ، فان الله خلق لكل شيء سبباً وهذه من أسباب الامطار . والثانية الرجوع الى السدود والخزانات التي تحفظ المياه وتروي الأرضين عند عطشها ، وعند الوهط مكان ضيق على وجه لو ان ادارة الزراعة في الحجاز بنت فيه سدّاً لما كانت كلفته كثيرة ولا ستنف به الوهط عمرانه القديم

وأما وادي « لية » الذي يسكنه بنو نصر من هوزان فقد زرته وبنت فيه ليلة . وهو واد ضيق مستطيل يمتد مسافة اربع ساعات ، مبدؤه من بلاد السفانية من ثقيف . وهو ينحدر نحو الشرق الجنوبي وعليه من الجانبين البساتين والجنان والزرع وكلها تسقى بالسواني لأن مياه الوادي تشح كثيراً في الصيف وقد ينقطع بعضها عن بعض فلا يبقى منها الا غدران تردها الموائم اشهرها الذي يقال له غدير البنات . وبيوت سكان الوادي مرتفعة عن النهر احتياطاً من السيل لأنه كثيراً ما طغى المياه على الجانبين . والبيوت مبنية بالحجر تظن بعضها براباً منيعة . وللوادي تربة هي الحد الاقصى في الخصب فتجد من ثناء الشجر ما يحار له القل . وجميع ما في هذه الجنان اشجار مشرة منها الكرم والسفرجل والمان والفرسيك والحماط والكمشوى وغيرها وكلها عدا الحماط أي التين هي في الطبقة العليا بين الفواكه . أما المان فهو كحب الياقوت ليس له نظير منظرّاً وطماً وقد اشتهر وادي لية به . وبما يجب على ادارة الزراعة في الحجاز أن تبني في أعلى العمود من هذا الوادي سدّاً يتكون منه خزان يكفل جميع حاجة الوادي في أيام اقيظ عندما تشح آبار السواني . وقبل لي إن خزاناً كهذا لا تزيد كلفته على خمسة أو ستة آلاف جنيه على حين ما يزيد من ريع البساتين يعدل هذه القيمة من أول سنة . فان أثمان الفواكه في مكة لا يعادلها شيء ويمكن الحكومة أن تبني لاهل

وادي لية هذا الخزان ثم تسترد منهم كلفته تقسيطاً
 هذا وقد ذكر ياقوت هذا الوادي في المعجم فقال : لية بتشديد الياء وكسر
 اللام لها معنيان : اللية قرابة الرجل وخاصته واللية العود الذي يستعجم به وهو الالوة
 ولية من نواحي الطائف صر به رسول الله ﷺ حين انصرافه من حنين يريد
 الطائف وأمر وهو في اية بهدم حصن ملك بن عوف فهد غطفان وقل حفاف
 بن ندبة :

سرت كل واددون رهوة دافع وجلدان أو كرم بلية محقق

في ابيات ذكرت في جلدان وقال مالك بن خالد الهذلي

أمال ابن عوف أما الغزو بيتنا ثلاث ليال غير مفزاة اشهر

مق تنزعوا من بطن لية تصبحوا بقرن ولم يضمر لكم بطن محمر

اه واستشهد بابيات أخر على ذكر لية

وأما جلدان بكسر الجيم وسكون اللام — واختلف في الدال فمنهم من رواها

معجمة ومنهم من رآها مهملة — فوضع بقرب الطائف . قال ياقوت يسكنه بنو

نصر بن معاوية من هوازن ، ومن الامثل المضروبة : أسهل من جلدان . فنقل

ياقوت عن نصر بن حماد انه حي قريب من الطائف مستو كالراحة ، وجاء في

المعجم عن جلدان هذان البيتان لحسن بن ابراهيم الشيباني من سكان الطائف :

وجلدان المريض قطمن سوقا يطرن بأجرعيه قطعاً سكونا

تخال الشمس إن طلعت عليها لناظرها علالي أو حصونا

ومن الامثل المضروبة . صرحته بجلدان وبجدان وبجداء اذا تبين لك

لامر وصرح ، والتاء في قولهم صرحت اشارة الى القصة أو الخطة

وقال أمية بن الاسكر :

أصحت فدا لراع الضار نلع ، ماذا يك من اء الضار .

أعجب اغيري اني تابع سلفي أعمام مجد واخوان وأخذان
وانفق بضأنك في أرض تطيف بها بين الاصافر وانتجها بجبلذان
وقال خفاف بن نديبة يذكر جليان :

الأطرق أسماء من غير مطرق وأناى-وقدحلت بنجران-نلتقي؟
سرت كل واد دون رهوة دافع وجليان أو ككرم بلية محددق
تجاوزت الاعراض حتى توسدت وسادي لدى باب بجليان مغلق

فالكروم المحدة في (لية) هي من قديم الزمان

وأما سكان وادي (لية) الآن فأولم الاشراف الذين يقال لهم الفغور ولم
أفضل البسانين والباقي من العرب شاميط، وأكثرهم من عتيبة ، ويقال إن
عتيبة هي من هوازن ، وقد بحثت عن عتيبة في الكتب القديمة فلم أجد إلا قولهم
عتيبة قبيلة من العرب ، وقد ذكروا ان حياً من اليمن اسمه عتيب

وأما هوازن فن قبائل قيس ، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن
خصفة بن قيس عبلان ، وهن هوازن بنو سعد بن بكر بن هوازن كانوا أفصح
العرب وكان النبي ﷺ رضيعاً فيهم ، قال في صبح الاعشي نقل عن العبر :
وقد افترق بنو سعد هؤلاء في الاسلام ولم يبق لهم حي فيطرق ، إلا ان منهم
فرقة بافرقية من بلاد المغرب بنواحي باجة يمكرون مع جند السلطان

قلت : وقد أصاب هذا التشتت كثيراً من قبائل العرب بسبب الفتوحات
الاسلامية في صدر الملة والرحيل الى الآفاق ، ففي كاشغر قبائل تركية أصلها
من العرب من عهد قتيبة فاتح بلاد الترك ، وفي الطاغستان على شواطئ بحر
الخرز بطون كثيرة أصلها عرب من زمن الفتح . وفي السند والهند أناس كثيرون
متحدرون من أصول عربية . وفي أفغانستان وفارس أسر كثيرة أصولها عربية ،
وفي الاندلس ، فخر حند فائمة رقاة . ط شاميطة شاميطة شاميطة شاميطة

العرب ، هذا عدا القبائل التي تفرقت في الاقطار والتي هي الى الآن عربية كالشام والجزيرة والعراق ومصر والسودان وبرقة وطرابلس والصحراء الكبرى الى اواسط افريقية وبحيرة تشاد ، وكذلك تونس والجزائر والمغرب والسوس الاقصى الى تنبكتو ، وأضف الى هذا بلاد الحبشة والصومال وزنجبار وجزائر القمر ومادغشقر وموزامبيق ، ولا نجد في افريقية قطراً إلا فيه أقوام من العرب ولا تنس سنغافورة والجاوى وسومطرة الخ (١)

ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن بني عامر بن صعصعة بنو كلاب الذين هاجروا إلى الشام وكانت لهم دولة وصولاً في حلب . ومن بني عامر بن صعصعة بنو هلال ، وهم الذين ذكر الهمداني أنهم يسكنون وادي جلدان ، وقد هاجر بنو هلال الى مصر والشام والمغرب ولم يبق لهم في جبال الطائف الا آثار وأخبار فكل شيء قدم يقول عنه الاهالي انه من زمن بني هلال . قال الهمداني وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها وذكروا ابن سعيد في عرب برقة وقال: منازلهم فيما بين مصر وافريقية ، ولم يزالوا إلى أن بايعوا لابي ركة في أيام الحاكم العبيدي فرماهم بغيرهم من العرب وأفنى أكثرهم ونزع من بقي منهم إلى المغرب الاقصى فهم مع بني جشم هناك ، ومنهم طائفة بحلب وطوائف في اسوان واخميم وأصفون واسنا من الصعيد

ولا يزال من بني هلال في الحجاز حرب فيما ذكره ابن سعيد ، وهم ثلاثة بطون بنو مسروح وبنو سالم وبنو عبيد الله

ومن هوازن بنو عقيل بضم العين وفتح القاف وهم بنو عقيل بن كعب بن

(١) العبرة الكبرى في هذا ان العرب كانوا في ايام حياتهم ودولهم يدخلون مصر او القطر من بلاد الاعاجم فيحولون اهله الى دينهم ولقنهم بقوة تأثيرهم في الهداية ثم انعكست القضية فتحولوا هم الى لغة بعض الاقطار والى دين بعض آخر ولقنه فهل يتبرون فيعلموا أكتب يرحمون؟

ربيعة بن عامر بن صعصعة . وكانت منازلهم بالبحرين وكان معهم من العرب بنو تغلب وبنو سليم (بضم ففتح) فاقتتلوا في احدى المرات ، وكان بنو تغلب وبنو عقيل يدا على بني سليم فأخرجوهم من البحرين فجاءوا إلى مصر ومنها نزلوا ببرقة ، فأكثر عرب الجبل الاخضر من بني سليم بن منصور . ثم قتل بنو تغلب وبنو عقيل فتغلب بنو تغلب على هؤلاء ، فخرجوا إلى العراق ومنها تغلبوا على الموصل والجزيرة وكانت لهم هناك دولة وسلطان ، ثم لما جاء الانراك السلاجقة وانتزعوا منهم بلاد الجزيرة رجع منهم أناس إلى البحرين وتغلبوا على بني تغلب فيها ومن بني عقيل بنو عبادة بالجزيرة الفراتية وبنو خفاجة بالعراق وكانت لهم إمرة فيه

ومن بطون هوازن بنو جشم وكانوا بالسروات وهي تلال تفصل بين تهامة ونجد ، وسرواتهم متصلة بسروات هذيل ، وقد هاجر أكثرهم إلى بلاد المغرب وثقيف من بطون هوازن وقد تقدم ذكر نسبهم ، ويقال لوادي وج بلاد ثقيف ، وللمدينة الطائف سوق ثقيف — إلى يوم الناس هذا

﴿ عرض الطائف الجغرافي وسبب تسميته ﴾

والطائف في الاقليم الثاني وعرضها احدى وعشرون درجة كما في معجم البلدان ، والظاهر في تسميتها بالطائف انه من الحائط المحقق بها ، ومنه قول أبي طالب بن عبدالمطلب نحن بنينا طائفا حصينا قال ياقوت : وهي مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف واد ، وهي محلتان احدهما عن هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف ، والاخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط ، ونودي بين ذلك تجري فيه مياه المدابع التي يدبغ فيها الاديم بصرع الطيور وتحتهم . إذ مرت بها ، وبيوتها لاطنة حرجة ، وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك العجبل

فيها من العنب العذب مالا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه انثى ، وهي طيبة الهواء شامية ربما جمد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه أهل مكة منها ، والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان ، ونقل عن عرام ان الطائف ذات مزارع وتخل وأعاب وموز وسائر الفواكه ، وبها مياه جارية وأودية تنصب منها الى تبالة وجل أهل الطائف ثقيف وحير ، وقوم من قريش وهي على ظهر جبل غزوان ، وبغزوان قبائل هذيل اه

فأت يظهر ان هذا الواصف لم يشاهد الطائف ، لانه لو شاهدها لعرف انه ليس بها نخيل ولا موز إلا اذا كان يعني بالطائف جميع البلاد التي حولها فقد يوجد في الهابط من جوارها شيء من النخيل

قلوا: وكانت الطائف تسمى وجا باسم وج بن عبد الحى من العماليق وهو أخو أجا الذي سمي به جبل طيء ، قلوا وكان رجل من الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك قتل ابن عم له بمضرموت وفر هاربا . فأتى مسعود بن معتب الثقفي وكان معه مال كثير فرغب إلى ثقيف أن يزوجه فزوجوه ، وكان من رأيه أن يبنى لهم طوفا مثل الحائط حتى لا يصل اليهم أحد من العرب ، فبناهم فسميت من ذلك الوقت الطائف ، وقيل بل كانت الطائف بين ولد ثقيف وولد عامر بن صعصعة ، فلما كثرا الحيان قالت ثقيف لعامر : انكم اخترتم العمدة على المدن والوبر على الشجر ، فلستم تعرفون مانع ف ، ولا تلطفون مانطف . ونحن ندعوكم إلى حظ كبير لكم مافي أيديكم من الماشية والابل ، والذي في أيدينا من هذه الحدائق ، فلکم نصف نمره فتكونوا بادين حاضرین بأتیکم ريف القرى ولم تتكلفوا مؤونة وتقيمون في أموالكم وماشيتم في بدوكم ولا تتعرضون للوباء (كانوا يعلمون ان الوباء إنما يكون في الخواضر) ولا تشتغلون عن الرعى . ففعلوا ذلك فكانوا يأتونهم كل عام فيأخذون نصف غلاتهم ، وقد قيل ان الذي وافقوهم عليه كان الربيع

فقد اشتمت شوكة ثقيف وكثرت عمارة وج رمتهم العرب بالحسد، وطعم
فيهم من حولهم وغزوهم، فاستغاثوا ببني عامر فلم يعيئوهم فجمعوا على بناء حائط
يكون لهم حصناً، فكانت النساء تلبن اللبن والرجال يبنون الحائط حتى فرغوا
منه وسموه الطائف لاطفته بهم وجمعوا الحنظلة لهم (أحدهما) لبني يسار
(والآخر) لبني عوف وسموا باب بني يسار صعباً وباب بني عوف ساحراً، ثم
جاءهم بنو عامر ليأخذوا ما تعودوه فنعوهم منه وجرت بينهم حرب انتصرت فيها
ثقيف وتفردت بملك الطائف فضر بهم العرب مثلاً، فقال أبو طالب بن عبدالمطلب

منعنا أرضنا من كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف
أناهم معشر كي يسابوهم غالت دون ذلكم السيوف

وقل بعض الانصار:

فكونوا دون بيضكم كقوم حوا غناهم من كل عاد

وذكر المدائني: ان سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى بيادر
الزيب فقال ما هذه الحرار؟ فقالوا ليست حراراً ولكنها بيادر زيب، فقل
الله در قسى: بأي أرض وضع سهامه، وبأي أرض مهد عش فراخه اه

قلت لبل سليمان بن عبد الملك سمع بذكر عن الطائف الشهر فحج اليه من
بعد ان حج البيت ورأى ما رأى منه، وهنا يخاطر ببالي قصة عن شدة نهم رواها
عنه أحد أصحابه وهو انهم ذهبوا معه يوماً إلى سستان للنزهة فأتوه بزنبيلين أحدهما
ملآن تدياً والآخر ملآن بيضاً، فلم يزل يأكل من هذا تبة ومن هذا بيضة حتى
أتى عليهما، ثم قام يطوف على الاشجار الثمرة فقطف بيده من كل نوع وأكل
أكلا ذريعاً. قل راوي القصة ثم صرنا نقول له وهذا المنقود يأمر المؤمنين
خيخرطه في (١) الخ فلا عجب ان عرج أمير المؤمنين سليمان على كروم الطائف...

(١) خط المنقود: وضه في فوه فقه حبه، اخذ - عمنه ما

(خبر فتح النبي ﷺ للطائف)

ذل يا قوت : ثم حصدتهم طوائف العرب وقصدوهم فصمدوا لهم وجدوا في حربهم . فلما لم يظفروا منهم بطائل ولا طعموا منهم بعة ، تركوهم على حالهم أغبط العرب عيشاً إلى ان جاء الاسلام فغزاهم رسول الله ﷺ ففتحتها سنة تسع من الهجرة صلحاً وكتب لهم كتابا . نزل عليها رسول الله ﷺ في سوال سنة ثمان عند منصرفه من حنين وحصنوا منه واحتاطوا لانفسهم غاية الاحتياط فلم يكن اليهم سبيل . ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهل الطائف منهم ابو بكره نفيح بن مسروح مولى رسول الله ﷺ في جماعة كثيرة منهم الازرق الذي تنسب اليه الازارقة والد نافع بن الازرق الخارجي الشاري فعتقوا بنزولهم اليه ونصب رسول الله ﷺ منجنيقا ودبابه فأحرقها أهل الطائف ، فقال رسول الله ﷺ « لم يؤذني في فتح الطائف » ثم انصرف عنها إلى الجعرانه ليقسم سبي أهل حنين وغنائمهم فخافت ثقيف أن يعود اليهم فبعثوا اليه وفدهم وتصالحوها على أن يسلموا ويقروا على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم ، فصالحهم رسول الله ﷺ على أن يسلموا وعلى أن لا يزنوا ولا يربوا وكانوا أهل زنا وربا « اه

قل يا قوت وكان معاوية يقول : أغبط الناس عيشاً عبدي أو قل مولاي سعد ، وكان يلي أمواله بالحجاز ، ويترع جدة ، ويتقيظ الطائف ويشتو بمكة . ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

(انتهى)

وقال البلاذري في فتوح البلدان عن غزوة الرسول ﷺ للطائف ما يأتي :
« لما هزمت هوازن يوم حنين وقتل دريد بن الصمة أتى فدهم أوطاس ،

فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري قاتل . فقام بأمر الناس أبو موسى
عبد الله بن قيس الأشعري ، وأقبل المسلمون إلى أوطاس ، فلما رأى ذلك مالك بن
عوف بن سعد أحد بني دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وكان
رئيس هوازن يومئذ هرب إلى الطائف فوجد أهلها مستعدين للحصار قد رموا
حصنهم وجمعوا فيه الميرة فأقام بها وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين حتى نزل
الطائف فرمتهم ثقيف بالحجارة والذبل ، ونصب رسول الله ﷺ منجنيقاً على
حصنهم ، وكانت مع المسلمين دبابية من جلود البقر ، فأثقت عليها ثقيف سكك
الحديد المحرقة فأحرقتها فأصيب من تحتها من المسلمين ، وكان حصار رسول الله
ﷺ الطائف خمس عشرة ليلة وكان غزوه إياها في شوال سنة ثمان قلوباً ونزل في
رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهل الطائف ، منهم أبو بكر بن مسروح مولى
رسول الله ﷺ واسمه نفيق ومنهم الأزرق الذي نسبت الأزارقة إليه كان عبداً
رومياً حداداً وهو أبو نافع بن الأزرق الخارجي فذتقوا بنزولهم ، ويقال إن نافع
ابن الأزرق الخارجي من بني حنيفة وإن الأزرق الذي نزل من الطائف غيره .
ثم إن رسول الله ﷺ انصرف إلى الجعرانة ليقسم سبي أهل حنين
وغنائمهم ، فخافت ثقيف أن يعود إليهم فبعثوا إليه وفدهم فصالحهم على أن يسأوا
ويقرم على مافي أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم أن لا يربوا ولا
يشربوا الخمر وكانوا أصحاب دبا وكتب لهم كتاباً ، وكانت الطائف تسمى وج
فلما حصنت وبني سورها سميت الطائف .

ثم قال البلاذري : حدثني المدائني عن أبي سماعيل الضملي عن أبيه عن شيخ
من أهل الطائف ، قال : كان بخلاف الطائف قوة من اليهود طردوا من اليمن
ويتررب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية ومن بعضهم ابتاع معدوية مؤمنة
بألطائف ، قالوا : وكانت للعباس بن عبد المطلب رحمه الله أرض بالطائف وكان

الزبيب يحمل منها فيبذل في السقاية للحاج وكانت امامة قريش أموال بالطائف
 يأتيونها من مكة فيصلحونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها حتى
 اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي السكينة وصارت أرض الطائف مخالفاً من
 مخاليف مكة ، قالوا وفي يوم الطائف أصيبت عين أبي سفيان بن حرب « اه
 قات ان من عرف ان أكر والمؤرخين ينقلون في الفتوح عن البلاذري نظراً
 لقرب روايته من أيام الفتح ومثناة أسانيد وقارن بين رواية ياقوت الحموي في
 معجم البلدان ورواية البلاذري في فتوح البلدان ، علم ان ياقوت انما أخذ عن
 البلاذري لان العبارة تكاد تكون واحدة . وقد نقلها البلاذري عن السكبي ،
 ونما نجنب ياقوت أن يذكر ان الازرق الذي نسبت الازارقة اليه « كان عبداً
 رومياً حداداً » لأن ياقوت نفسه كان عبداً رومياً فحذف من روايته عن البلاذري
 ما يذكر الناس بأصله هو . . .

وقد روى محمد بن سعد بن منيع صاحب « العبايات الكبرى » غزوة
 الطائف كما يلي :

« تم غزوة رسول الله ﷺ الطائف في شوال سنة ثمان من مهاجره .
 قتلوا خارج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف وقدم خالد بن الوليد على
 مقدمته وقد كانت ثقيف رموا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة ، فلما انهزموا
 من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيؤوا للقتال وسار رسول الله ﷺ
 فنزل قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك ، فرموا الساميين بالنبل رمية شديداً
 كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر
 رجلاً فيهم عبد الله بن أبي أمية بن الغيرة وسعيد بن العاص ، ورمي عبد الله بن
 أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل جرح ثم انتفض به بعد ذلك فمات منه . فارتفع
 رسول الله ﷺ الى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة

وزينب فضرب لهما آتيتين ، وكان يعلي بين القبتين حصار الطائف كله فحاصرهم ثمانية عشر يوماً ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك (١) سقبين من عبدان حول الحصن (٢) فرمهم ثقيف بالنيل فقتل منهم رجال ، فأمر رسول الله ﷺ بتقطع أعناقهم وتحريقها فقطع المسلمون قطعاً ذريعاتهم ما لوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله ﷺ « فاني أدعها لله وللرحم » ونادى منادي رسول الله ﷺ « أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر » فخرج منهم بضعة عشر رجلاً منهم أبو بكر نزل في بكرة فقيل أبو بكر فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين بمراه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف . وامتدح رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال « ما ترى ؟ » فقال ثعلب في جحر ، إن أقت عليه خذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك وقالوا : ترحل ولم يفتح علينا الطائف ، فقال رسول الله ﷺ « فغدوا على القتال » فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ « إنا فقلون إن شاء الله » فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك ، وقال لهم رسول الله ﷺ « قولوا لا إله إلا الله وحده صدق ، وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » فلما ارتحلوا واستقلوا قال « قولوا آميرون تائبون عابدون ، لربنا حامدون » وقيل : يا رسول الله ، أدع الله على ثقيف . فقال « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم »

« أخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي أخبرنا أبو الأشهب أخبرنا الحسن قال :

- (١) آلة من الحديد وأحياناً من الخشب تلقى حول العسكر لتتشبب في رجل من يدوسها وهي أشبه ما يقال له اليوم الاسلاك الشائكة
(٢) السقب بفتح فسكون الطويل من كل شيء وكل شيء تم وامتلاً فهو سقب والغصن الغليظ الرطب ، سقب انتهى والحاشيتان للمؤلف

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف قل فرمي رجل من فوق سورها فقتل فأتى عمر فقال : يا نبي الله ادع على ثقيف . قال : إن الله لم يأذن في ثقيف قال فكيف نقتل في يوم لم يأذن الله فيهم ؟ قال « فارتحلوا » فارتحلوا ام
وقلوا في كتب السير في سبب غزاة الرسول للطائف : انه لما حصرته صلى الله عليه وسلم قريش في الشعب ومات عمه ابوطالب الذي كان يحوطه وماتت زوجته خديجة التي كانت تثبته وتقر عينه في الناس ، خرج الى الطائف من شدة الكرب يرجو عند أهلها النصر لان له جعل الطائف متنفساً لاهل مكة .
فلما انتهى رسول الله الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف وهم ثلاثة اخوة: عبدالميل ، ومعهود ، وحبيب ابناء عمرو بن عمير بن عوف اثقيفي ، وكانوا سادات قومهم ، وكانت تحت خدمه امرأة من قريش من بني جمح . فجلس اليهم رسول الله يدعوهم الى الاسلام واتي نصرته فيما جاء به . فقال له أحدهم : امرط ثياب الكعبة أن كان الله رسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله من يرسله غيرك ؟ وقال الثالث والله لا أكلك ابداءً ، لأن كنت رسول الله كما تقول لانت اعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلك . فقام رسول الله ﷺ وقد بأس من خير ثقيف وقال لهم « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عني » وكره ﷺ أن يبلغ ذلك قومه فيشيرهم . ولكن هؤلاء لم يفعلوا فاغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم وبصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ونحوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ثم جلس في ظل حبله من عنب (الحبله بالتحريك شجرة العنب) وابنا ربيعة ينظران اليه

فلما اطمان رسول الله ﷺ قال : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلاتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، وانت ربي

إلى من تكلمني؟ ألي بيديتجمني؟ أو إلى عدو ملكته امري، ان لم يكن بك علي غضب فلا بالي، ولكن عافيتك هي اوسع بي. اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات، وصالح عليه امر الدنيا والاخرة، من ان ينزل بي غضبك أو علي سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقي تحركت له رحمتها فدعوا غلاما لها نصرانيا، وقيل يهوديا، يقال له عداس فقلاه: يا عداس خذ قطفاً من هذا العنب فضمه في هذا الطبق واذهب به إلى ذلك الرجل، قتل له يأكل منه. ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له كل. فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه ثم قال. والله ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد. فقال له رسول الله «ومن أي البلاد انت؟» فقال. انارجل نصراني من اهل نينوي، فقال رسول الله «امن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال له رسول الله «ذا اخي، كان نبياً وانا نبي» فاكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه واسلم، فقتل احد ابني ربيعة لآخيه اما غلامك فقد افسده عليك، فلما جادها عداس قالا وبلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقتل ياسيدي ما في الارض شيء خير من هذا الرجل، فقد اخبرني بامر لا يعلمه إلا نبي قالا له وبحك يا عداس لا يصر فنك عن دينك فان دينك خير من دينه. ولكن عداسا لم يتزعزع بقولهما، ولا يزال في المثناة محل يزار يقال انه المكان الذي اسلم فيه عداس

وقد روى اهل السير أن رسول الله لما خرج إلى الحائف يدعو قتيبا إلى الاسلام كان معه زيد بن حارثة وأقام شهراً يدعوهم إلى الله ولم يجيبوه، ثم غروا به سفهاءهم وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى لقد شج في رأسه ﷺ وحتى إن رجليه

لتدميان ، وزيد يقيه بنفسه . ثم انه غزا الطائف وضرب في اثناء حصاره الطائفه قبتين لزوجتيه : أم سلمة وزينب رضی الله عنهما . وكان يصلي بين القبتين . فلما أسلمت ثقيف بني عمرو بن أمية بن وهب بن مالك على مصلى رسول الله ﷺ مسجداً . قالوا ونصب الرسول على حصن الطائف منجنيقا قيل اتار به سلمان الفارسي رضی الله عنه ، وقيل قدم به الطفيل بن عمرو ، وقيل يزيد بن زمعة ومعه دبابتان وقيل قدم بالمنجنيق والدبابتين خالد بن سعد بن حريش ، وكانوا يضعون الدبابات ويقطونها بجلود الابل والبقر ويدخلون في جوفها فتيهم من السهام والحجارة . ثم قال ابن فهد في تاريخه للطائف ، نقلا عن الحافظ مغلطاي : ان هذا المنجنيق هو اول منجنيق رمي به في الاسلام . وقد نشر رسول الله الحسك حول حصن الطائف . ورمى رجال ثقيف الدبابتين بسكك الحديد المحماة بالنار فأحرقت الدبابتين وأصيب جماعة من المسلمين . وقالوا ان رسول الله قال « لم يؤذن في ثقيف » ثم انصرف من الطائف إلى الجعرانة ، وأرادوه على أن يدعو على ثقيف فكان دعاؤه « اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم » ولما اسلمت ثقيف ثبتت وحسن اسلامها ولما لحق رسول الله بالرفيق الاعلى وارتدت العرب ثبتت ثقيف على الاسلام ومن ارتد منهم قتلوه وقالوا ما دخلنا آخر الناس إلا لما تبين لنا من الحق

(وجوب اتخاذ آلات الحرب الحديثة وفنون صناعتها)

قلت : ان رسول الله ﷺ قد استخدم اذا الصنعة في الحرب بما أجمعت عليه الرواة من ضربه حصن الطائف بالمنجنيق ونثره حوله الحسك وقتاله بالدبابات وكل هذا من الصنعة المحضة فالمنجنيق كان بمنزلة المدفع في هذه الايام . والحسك أتبه بالاسلاك الشائكة ، والدبابات هي دبابات « التانك » التي يصفحونها اليوم بالفلاذ حتى لا يخرقها الرصاص ، وكانوا في ذلك العصر يجلونها بالجلود ، وعليه يكون استعمال الآلات الحربية بأنواعه اسنة نبوية أكيدة لا يجوز اهمالها ولا التهاون

بها هذا فضلا عن الامر الالهي الصريح الذي تتضمنه آية) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ونحن مع الاسف نرى المسلمين اليوم أقل الامم اعتناء بالميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء وجميع العلوم التي يكفل لهم اتقانها الحيل الحربية وجر الاتقال واختراع الآلات التي توفر دماءهم وتصون دماءهم ، ونرى جمهور علمائهم تافرين من هذه العلوم والفنون كانها من عمل الشياطين ، يقضون الاعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتمدون بها ، من نحو وصرف وحديث وتفسير وما أشبه ذلك مما لا شك في ضرورته ، لانه به قوام اللغة والمقيدة ، ولكنه ليس يعني أصلا عن العلوم الطبيعية التي هلك اليوم من أهلها وعن الميكانيكيات التي لو أفرغوا لها من الوقت ربع ما أفرغوه للحديث والتفسير والفقه والنحو والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثم من التجارة والثروة على حظ يضاهي حظوظ الامم الاوربية ، ولكننا قد أمهلنا علوم هذه الدنيا وحصرنا جميع عنايتنا بعلوم الآخرة (١) غير ذاكرين ان الاسلام انما هو شرع دنيا وآخرة ، وان من أهل أحد الشقين فهو آثم ، كما لو أهمل الشق الآخر .

ونعود الى الدبابت فنقول :

ان لافرنج قد استعملوها من القديم ، وأهم ما روي عنهم فيها ما صنعوه في حصار عكا في الحرب الصليبية . فقد صنعوا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاموا بختبها من جزائر البحر وعملوا طبقات وشحنوها بالمتقنة ولبسوها جلود البقر والطين بالخل وقربوها من الاسوار ، وكادوا يأخذون بها البلد لان المسلمين رموها بالنيران فلم تعمل فيها فخروا في أمرهم ودخل عليهم من خوف ما لا يوصف قال ابو الفداء : فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فحترق بمن فيه من الرجال

(١) قد ضعفت كل هذه العلوم ايضاً في جميع الامصار الاسلامية وكان يوجد

احديشتمل بها لأجل الآخرة

والسلاح، تم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعدالكآبة. وقد روى بهاء الدين ابن شداد في سيرة صلاح الدين يوسف الايوبي — وكان ابن شداد شاهداً تلك الوقائع ملازماً للسلطان : ان الذي نحيل لاحراق هذه الابراج المسيرة على المعجل بعد أن أعياهم أمرها كان نحاساً حمويًا قال للمسلمين : أنا أكفيكم أمرها بشرط أن تهبطوا لي كذا وكذا — وذكروا مواد أتوا له بها — فطبخ من هذه المواد ثلاث قدور ورمى كل دبابه بقدر منها فلم تكد تصيبها حتى اشتعلت بمن فيها جيه فكان من فرج المسلمين بصناعة هذا النحاس الحموي ما لا تقي به عبارة وقد ذكر المستشرق الفرنسي الشهير رينولد Reinaud صاحب كتاب «غارة العرب على فرنسة» انه لما زحف العرب من الاندلس الى فرنسة وافتتحوا اربونة Narbonne وقرقشونة Carcassonne ووصلوا الى افينيون وليون وغيرها تحت قيادة السمع بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي والحرثي كانت معهم آلات لم تكن عند الافرنج في ذلك العصر ذكر «رينولد» ذلك في كلامه على حصار السمع الخولاني اطلوزة Toulouse

فأيوم قد انعكست الامور وصرنا في وسائل الدفاع عبالا على أعدائنا أنفسهم ، فن طاب لهم أن يتفقوا علينا ويمنعوا عنا السلاح بأجمعه أمسينا وليس ماندافع به طيارتهم ودباباتهم ومدافعهم وقد انقمهم سوى أصابنا وأظافرنا ، ولقد رأيناهم بالفعل قرروا منع الاسلحة عن جزيرة العرب في مؤتمر نزع السلاح الذي انعقد منذ نضع سنوات في جنيف ووقع هذا القرار بأصوات أكثرية الدول بناء على رغبة انكلترة وفرنسة وايطالية وتوابهين ، وغاية ما فعلته الاقلية انها امتنكت عن اعطاء الرأي لا سلباً ولا إيجاباً ، وهي لو كانت راضية عن سياسة الاكثرية لما تأخرت عن موافقتها على منع السلاح عن العرب . فكان اعتناء العرب وجميع العالم الاسلامي بقضية التسليح فرضاً عليهم كفرص الصلاة ، إذ

لا بقاء لهم بدونه ، وكان هذا متوقفاً على الصناعة التي هي من ثمرات العلم الطبيعي ، ولاجل هذا كان انصراف المسلمين الى اتقان العلوم الطبيعية وادخالها بمذاخيرها في برامج تعليمهم من الامور الحيوية التي لا يجوز ان يغفلوا عنها طرفتين .
وأراني قد بعدت عن الموضوع الذي كنت فيه وابست هذه بأول مرة جرتنا الاستطراد الى ما هو بعيد عن المقام الذي نكون فيه ، ولئلا نكون في كل مرة لم نخرج الى شيء غير مرتبط بأصل الموضوع .

عود الى الطائف

وآثار حضارة العرب فيها

ولنعد الى سياحتنا في الطائف وجباها بعد أن روينا ما لا بد منه من تاريخها فنقول :
من أنصح الدلائل على مدنية العرب ، لا في دور الجاهلية فقط بل في صدر الاسلام أيضاً - كثرة الكتابات المنقوشة على الصخور
فمن المعلوم ان الامم الهمجية لا تعرف قيد الحوادث ولا تخليد الذكريات ولا تفكر في اطلاق الاعقاب على ماجري في سالف الاحقاب ، وانه لا يعنى بأمر كنهه إلا من علا كعبهم في الحضارة ، ويمد شأؤهم في العارة ، وهذه أمم الافرنجية اليوم بعد أن بلغوا ما بلغوه من هذا المدى البعيد في المدنية نجدهم لا يبرحون يشيدون الباني وينحتون التماثيل وقيمون الانصاب ، وينقشون عليها كل ما التواريخ المتعلقة بها خدمة لعلم التاريخ في مستقبل الدهر ، وحرصاً على اطراد سلسلته ووصل فصوله ، وتفادياً من انقطاع أسانيد وضماح مصادره . وبالجملة لا يجمع حفرة الكتابات والنقش على الصخور مع الجهل والأخطاط وخلوا الدرر من الغاضل ، وما عثرنا في أثناء الحفر عمداً أو عرضاً على حجارة من أنقاض السلف عليها كتابات قديمة

إلا وجدناها محررة بلغات أم عظيمة الآثار، جليلة القدار، كالرومانيين واليونانيين ومن قبلهم كالمصريين والفينيقيين والحثيين والبابليين والعرب الذين كان الناس لا يدركون درجة مدنيتهم العالية في الاعصر المتوغلة في القدم الى أن اطلعوا على ماتركوه من المباني الباذخة والقصور الشاهقة والصانع والسدود وغير ذلك من الآثار الدالة على رسوخ الحضارة وقرأوا ما عليها من الكتابات بالحيرية

وقد كان أول من نبه على ذلك الهمداني الحسن بن أحمد صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وكتاب «الاكليل» لا سيما في الجزء الثامن من الاكليل الذي فيه ذكر محفد اليمن ومساندها وقصورها ونقل كتابات بالقلم المعروف بالمسند، وجاء بعض المستشرقين مثل «مولر» وغيره فحققوا ما قاله الهمداني ولم يجدوا فيه مبالغة، ونشر «مولر» كتاباً طبعه في «فيينا» سنة ١٨٨١ عن هذه الآثار الباهرة واعتمد في تأليفه على «الاكليل»^(١)

(١) (حاشية المؤلف) هذا الكتاب عشرة اجزاء في اول الجزء الثامن منه ما يلي :
الجزء الثامن من الاكليل للحسن بن أحمد الهمداني وهو كتاب محفد اليمن ومساندها ودقاتها ومرآة حير والقبوريات وشمرة عاقمة، والمحفد القصر، وأما سمي محفداً لحفود الناس حوله أي شدم وقصدهم، منه دعاء الوتر «إليك لسمي ونحفد» والمحفد الخدم . واعلم أن كتاب الاكليل عشرة أجزاء . فالاول مختص في المبتدا واصول الانساب والثاني نسب ولد الهديس بن حير . والثالث في فضائل قحطان . والرابع في السيرة القديمة الى عهد تبع ابى كرب . والخامس في السيرة الوسطى من اول أيام اسعد تبع الى أيام ذو نواس . والسادس في السيرة الاخيرة الى الاسلام . والسابع في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة . والثامن في ذكر قصور حير ومدنها ودواوينها وما حفظ من شعر عاقمة والمرآة والمسند . والتامع في امثال حير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند . والماتر في معارف حاشد وبكيل . والله اعلم واحكم =

وملخص الكلام انه لا يتصور العقل بلاداً تكثر فيها النفوس والرسوم على الحجارة المنصودة في الابنية أو الصخور البعثة في الجبال والفلات إلا اذا كانت تلك البلاد في أعصرها الخوالي حافلة بالمران موصوفة بكثرة السكان .
ومما لا ريب فيه أن الطائف وجبالها كانت من جملة أقسام الجزيرة العربية المعمورة وانه قد تقلص عمرانها كما تقلص عمران سائر الجزيرة بسبب الفتوحات الإسلامية التي ضربت من الجزيرة إلى الصين والهند شرقاً ، وإلى الأناضول

= كنت سمعت بوجود جزء من هذا الكتاب في مكتبة جامع بازريد في استنبول فارسلت الى الاخ الفاضل خالد بك القرقي الطراپلسي القرقي المنسوب الى بني هرديملوك سرقسطة بالاندلس وكان يومئذ بتلك العاصمة ليهتم لي عنه فوجدتم نقلوه الى مكتبة دار الفنون ونقل لي بعض صفحات منه، فأذا به الجزء الثامن، وقال لي انه قد بلغه وجود نسخة من هذا الجزء في برلين، فلما ذهبت الى برلين او اواخر السنة الماضية ١٩٣٠ بحثت عنه في المكتبة الملوكية فوجدت منه جزئين الجزء الثامن والجزء العاشر، ووجدت مع الجزء العاشر في جلد واحد بعض رسائل منها شيء عن المعادن التي في اليمن وكتاباً من تأليف الملك الاشرف ابي حفص عمر ابن رسول التتائي اسمه (طرفة الاصحاب في معرفة الانساب) فأخذت صور جميع ذلك بالفوتوغرافيا، وبينما انا مصمم على طبع هذين الجزئين من الاكليل اذ بلغني ان الدكتور المحقق الاب انستاس الكروبي مباشر طبع الجزء الثامن بتعداد معتدلاً في ذلك على خمس نسخ وقت في يده وانه سيطبعه مع حواش وتقاسير، فلما علمت ذلك وقتت عن طبع هذا الجزء حتى ارى ما يكون ثم اتي ارسالت الى حضرة صاحب السمو صديقي الامير سيف الاسلام محمد والي تهامة ونجل الامام المتوكل على الله يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب اليمن أسأله عما يوجد من اجزاء هذا الكتاب في اليمن، فأجابني بانه لا يوجد من الاكليل الا جزءان وثلاثة مقطعة مفترقة، وانه مع ذلك سيبحث ثانية وهذا ما عرفنا الى الان عن هذا الكتاب

والطائف شمالاً ، وإلى الاطلنتيك غرباً ، وكانت كلها على أيدي العرب الذين التهمتهم القواصي وأفنى رجالهم قراع الكتاب ، فحلا كثير من ديارهم الاصلية ، وصفرت الجزيرة من تلك الجموع التي كانت تموج بها ، وتداعت القصور ، وانهارت السدود ، وتمطلت القنى ، وتصوحت النضرة ، وعطشت الارض .
وأما الكتابات المنقوشة على الصخور فلم يضر بها الجوع ولا العطش ، فبقيت على حالها ناطقة بما كان ثمة من عمران سابق ومجد سامق

ولقد أتيت لي ان أرى طرفاً من هذه الكتابات وان اقرأ بعضها وان يشكل علي قراءة البعض الآخر ، فعولت فيه على بعض الاساتيد المخصصين بمعرفة الخطوط القديمة ، وذلك اني نسخت ما قرأته في جبل السكارى في وسط الطائف وبعثت به إلى برلين وذلك إلى الاستاذ مورتيز من فحول المستشرقين . فحل الكتابة وأعادها لي ، ولم تكن من الخط المسند بل من الخط الكوفي القديم الذي لم نألفه فان الخط الكوفي ليس شكلاً واحداً . وهذه الكتابات خالية مع الاسف من التواريخ .

وأكثر ما عثرت به من هذه الكتابات في كل محل خلو من ذكر السنة التي كتبت فيها إلا ما كان منها متأخراً من آثار القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة وما بعد ذلك فهو مؤرخ بالاشهر والسنين كما هي العادة ، ويظهر ان الكتابات التي في جبل السكارى هي من القرن الاول للهجرة وربما كان بعضها من زمن الجاهلية ونص واحدة منها « اعف يا الله ، عبدك أود بن موسى » ونص أخرى « اباد بن عيفر بن أوس ، بره واثق » ونص أخرى « بالله محمد بن عبد الرحمن ابن أبي (كلمة لم تكن قراءتها) واثق بالله » ونص أخرى « اللهم حكم عبدك عيفر بن ابي قبيع من النادي وكتب » ونص أخرى « اللهم صل على محمد النبي وكتب محمد بن ابي قبيع » وجبل السكارى هذا على طرف الطائف إلى جهة الشاة-راية لا تملأ أكثر من ستين متراً عن سطح الارض ، لكنها لشدة قربها من البلدة يشرف

الذي يتوكل فيها على جميع الطائف وبساتينها فيقصد الناس التزهة هناك ، ولما كان الجبل كاه صخرية كانت فيه جنادل كثيرة بعضها فوق بعض . ومنها ما هو ملاق الآخر على شكل يتكون منه شيء أشبه بالكهف فيتقي تدين يقولون تحت هذه الصخور حر الشمس

وقد كان لنا هناك قيلات لم نزل نذكر لطفها بدعوة الشيخ عبد القادر الشيباني كبير سدة البيت الحرام الذي هو مثل البعيد في الكرم وحسن الوفادة والذي ذكرته مراراً في هذه الرحلة إلى ان قل لي الكثيرون : تالله تفتأ تذكر الشيباني ، فقلت ارجعوا :

يقولون لي : نبي جواب سؤالنا ويسألني عن ذلك صهي وجلاسي
لماذا نرى الشيباني عندك أولاً وتؤثره في كل شيء على الناس
فقلت : أرى الشيباني ينذر مثله ببر وإكرام ونظف وإيناس
وفي خدمة الاسلام قدس اب مفرقي لذلك رى الشيباني على رأسي

وبعد ان برحت الحجاز بقيت الكتابة بيني وبين الشيخ المشار اليه متصله يتخللها النظم والنثر ، ومقابلة الشيء بمثله من التامية والبحر . ولاعجب في فصاحة بني شيبية وهم لباب قريش وخلاصة العرب ، ولتقصر فيهم سابق حتى لقد قرأت في « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » لاجد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي ان ابا العباس احمد بن رشيق الكاتب لما كان في سن للراهة يعطب علم النحو بتدمير من بلاد الاندلس دخل عليهم من طريق البحر رجل أسمر ذكر انه من بني شيبية حجة البيت وانه يقول الشعر على طبعه ولا يقرأ ولا يكتب . وكان يقول انه دخل عليه الاحن بدخول الحاضر وروى ابن رشيق من شعره :

ياخليلي من دون كل حايل لا تلني على ابكا والمويل
إن لي مهجة تكنفها الشوقوعينا قد وكلت بالمول

كل عودت هتوف العشايا والضحي هيجت كمين غليل
 ذات فرخين في ذرى اثلاث هدلات غضف الذوائب ميل
 لم يضيا عن صينها وهي تبكي حذر البين والفراق المديل
 أنا أولى بعربي وانتزاحي واشتياقي منها بطول العويل
 حل أهلي بالاطحين وأصبح مت مع الشمس عند وقت الافول
 فانت ترى فصاحة الامي منهم، فما ظنك بالمتأدب الذي قرأ العلم وثافن العلماء
 رى من رجال الاسلام قصاد البيت الحرام مالم يتيسر لأحد ان يره .
 ثم ان لهذا البيت من مزية خدمة البيت مالا يشركم فيه غيرهم منذ بضعة عشر
 قرن حتى ان النبي ﷺ لما فتح مكة قال لقريش « ماتظنون ؟ » قالوا: نظن خيراً
 ونقول خيراً، اخ كريم وابن اخ كريم وقد قدرت ، قال « فاني أقول كما قال أخي
 يوسف عليه السلام (لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) »
 ثم قال ﷺ « الاكل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي
 إلا سداة البيت وسقاية الحاج »
 وحدثوا من طريق آخر انه ﷺ قل في خطبة « الحمد لله الذي صدق
 وعده ، ونصر جنده ، وهزم الاحزاب وحده ، ألا ان كل مأثرة في الجاهلية وكل
 دم ودعوى موضوعة تحت قدمي ، إلا سداة البيت وسقاية الحاج » وقالوا ان النبي
 ﷺ كان أخذ مفتاح البيت يوم فتح مكة من عثمان بن طلحة بن ابي طلحة ثم
 نزلت الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) فاستدعى عثمان وأعاد
 اليه المفتاح قائلاً له « خذوها يا بني ابي طلحة بامانة الله سبحانه لا ينزعها منكم إلا
 ظالم » وفي رواية أخرى « خذوها يا بني ابي طلحة خالدة تالدة لا يظلمكموها إلا
 كافر » وقيل « إلا ظالم » ولهذا بقي مفتاح البيت في هذا البيت إلى اليوم ،
 و ايس في مكة أعرق منهم لانه لم يبق من صدر الاسلام ملازما مكة بسبب

سدانة البيت غيرهم . ولقد رأيت فتاوى كثير من العلماء في وجوب البر بهم مكافأة على هذه الخدمة المقدسة التي اختصوا بها بحكم الذكر من قديم الدهر هذا وقد ذكر السيد خير الدين الزركلي جبل السكارى الذي كنا بصدده وقال إنهم يسمونه « أم السكارى » وروى عن قاضي الطائف الذي كان يومئذ (سنة ١٣٣٩) أن على هذا الجبل أسطراً تاريخها سنة ١٨٨٨ قال فصعدته ورأيت كتابات كثيرة ولم أر التاريخ الذي ذكره (قلت) وأنا لم أركتابه عليها تاريخ ، ولكن يجوز أن تكون على صخر لم يقع نظرنا عليه فإن هذا الجبل منطى بالصخور وفيه مقطع حجارة لبناء أهل الطائف وليس كل ما يراه الواحد يراه الآخر

وأما تسمية هذا الجبل « بأم السكارى » أو جبل «السكارى» فنظنها من جهة اجتماع الناس فيه للزهوة والشرب من أيام الجاهلية . ويقال ان أبا سفيان بن حرب إنما اجتمع مع سمية أم يزيد في هذا الجبل اتاه بها أبو مریم الحنار وهناك جبل مناوح لمسجد ابن عباس على مسافة ٢٠ دقيقة منه ، فيه صخور كثيرة عليها كتابات وصور حيوانات . ومن هذه الكتابات ما يظهر انه قديم ومنه ما هو من القرن الثالث أو الرابع أو الخامس . وقد نقل الخير الزركلي منها كتابة هي (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً) وفي آخرها «محمد بن مهدن»

وجبل آخر اسمه «الردف» بفتح الدال وتشديدها . يذهب السائر اليه من الباب الذي بقرب مسجد ابن عباس رضي الله عنه ويأخذ الوصول اليه نحو ساعة من الزمن على طريق بستان « حوايا » وبستان «شهار» وفي «الردف» هذا حجارة كبيرة مترادفة على بعضها كتابات قرأنا بعضها وهو من الخط الكوفي القديم من القرن الاول وما يليه . نقل من ذلك الخير الزركلي في كتابه (مارأيت وما سمعت) الجمل الآتية :

(عبدالله بن علي بن أبي محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة)
 (عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله القتل في سبيله على بر كنه)
 (عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن يشهد أن الله على كل شيء قدير وأن
 الله قد أحاط بكل شيء علماً)

وبينما كنا قافلين من وادي «لية» إلى الطائف رأينا أيضاً كتابات على صخور
 منها كتابة محمودة بعض كتاباتها فتمناها انه كان أصاب البلاد قحط وأمطر وابتد ذلك
 ورأينا كتابات على الصخور في طريق الطائف إلى وادي محرم . وقد تقدم
 اتنا رأينا خطوطاً كوفية وأخرى من القرن السادس في سيدنا عكاشة من ارض الوهط
 وقيل لي ان بين المدينة المنورة وحائل كتابات كثيرة ولا أعلم هل هي من
 الخط الكوفي أو من الخط النبطي أو من خطوط أخرى ؟ وغاية ما يدرك الانسان
 من كثرة هذه الخطوط في جزيرة العرب انها كانت حافلة بالسكان ، باللغة الشأو
 الاقصى من العمران ، وان الفتوحات الاسلامية أثرت في درجة عمرانها فغلبت
 عليها البداوة في التالي . ويظن بضمهم ان هناك أسباباً طبيعية أيضاً تقلص بها
 العمران : من غيض مياه ونضوب أنهار جارية وما أشبه ذلك مما حداً العرب الى
 الجلاء والتفرق في الاقطار

ونعود إلى الطائف فنقول : ان عمرانها كان قبل الحرب العامة أكثر منه
 اليوم بكثير ، وانه بسبب الحرب بين الشريف حسين والأتراك ثم بينه وبين
 النجديين خرب جانب كبير منها ونزح أكثر سكانها

﴿أشراف الحجاز على العمران ، بشمول العدل والأمان﴾

وقد بدأ عمرائها بل عمران الحجاز كله بالتراجع في هاتين السنتين بعد استقرار الأمن وشمول الدعة مما أقر به القاضي والداني واعترف الناس بالفضل فيه لله ثم لابن سعود

ولقد شافهنا هناك الأهالي في الفرق الذي بين حالتهم الحاضرة وحالتهم الماضية فأجمعوا على أن نعمة الأمن التي هم متمتعون بها الآن لم يعرفوا شيئاً منها من قبل لا هم ولا آباؤهم ولا أجدادهم ولا سمعوا بها عن سلفهم

حدثني بعض الأشراف الهاشميين من أولاد أمراء مكة أنفسهم أنهم كانوا في القرى التي لهم حول الطائف يوصدون أبوابهم ليلاً ولا يفتحونها لأي طارق خيفة الغيلة وحذراً من سطو اللصوص حتى جاء هذا العهد السعودي فصاروا يأمنون أن يبيتوا وأبوابهم مفتحة وصاروا يفتحون لأي طارق جاءهم

وحدثني الجميع أنهم كانوا لا يقدرّون على التجوال إلا مساحين ، فأصبح الآن كل إنسان يجول في الحواضر والبادي أعزل لا يحمل شيئاً ولا السكن وقد يكون حاملاً الذهب ولا يخشى عادية ولا حادثة . وكثيراً ما يترك الناس أوقار دوابهم في قارعة الطريق وتنتق أياها وليالي إلى أن يعود أصحابها فيأخذوها ولا يجرأ أحد أن ينظر إليها

وقيل أن عدلاً من الشعير تركه صاحبه لأعيان مس دابته ومضى ينشد دابة أخرى يحمل عليها عدله فجاء ووجد في العدل ثقب سكين تنساقط منه حبوب الشعير فأخبر الشرطة فلم يزألوا يبحثون حتى عرفوا ذلك الرجل الذي وجأ المكم بسكينه وجلدوه بالسياط ، لأنه حاول أن يعرف ما تحتوي عليه ذلك المكم (١)

(١) حكى الربحاني وغيره مثل هذه الحادثة في بلاد نجد والحالة العامة تلد حوادث متشابهة

وكل يوم يؤتى الى دوائر الشرطة في كل بلدة بأمتعة وأسباب وحوائح وأموال منها الكثير ومنها القليل ومنها الثمين ومنها الخسيس مما يجده السابلة في الطرق اتفاقاً، فلا نجد أحداً يطعم في شيء بعد أن كان الدعارة يذبحون ابن السبيل من أجل حاجة لا تكاد تساوي قطعاً
فسيحان الذي أدال من تلك الحال هذه الحال ، وأوقع الرعب في قلوب الاعداء، في السهول والأوغار . وليس في باب الامن في ممالك ابن سعود متطلع لمزيد ، وقصار ما يتمنى الانسان دوام هذه النعمة

ومن هذا الباب ان الثارات والدماء كانت بين قبائل العرب متصلة والغارات مستمرة، وانه إذا وقع دم بين قبيلة وأخرى انقطع كل اتصال بينهما وصار ابن احدهما لا يقدر ان يمرض الاخرى إلا تحت خطر القتل . وقد سمعت من القبائل التي شافتها في الحجاز انها الى زمن استيلاء ابن سعود كان بعضها لا يقدر أن يدخل منسقة بعض ولو كان في أقرب محل اليه ، وان كل ذلك قد نسخ الآن باحكام ابن سعود وصار الناس يمر بعضهم بمرض بعض عزلاً من السلاح ولا يخشى أحد منهم مكروها ، وانطوت تلك الثارات والدحول كأنها لم تكن، ولا نظن ان الاعراب ينسون الثارات وليس ذلك من طبيعتهم ولكنهم اذا وقعت هيبة السلطان في قلوبهم وعرفوا ان ليس عند السلطان الا العدل واقامة الحد الشرعي بدون هوادة مع أحد انقادوا للاحكام انقياد الغم

لهذا نجد العمران قد بدأ يتراجع إلى الحجاز بشمول الامن واستراحة الفكر فالقوافل والسيارات الكهربائية ذاهبة جائية تخترق الصحاري بالامنة التي تربها في شوارع البلد الحرام ، والناس بعد ان امنوا على أموالهم وزروعهم وضرورهم قد نشطوا للعمل ووثقوا بالمستقبل ، واذا مضت عشرون سنة - وهذه الحالة لم تتبدل وهذه الامنة ممتدة الرواق على البلاد كما هي اليوم - فان البلاد تسير شوطاً

بعيداً في ميدان الفلاح، ويتضاعف عدد قطيعها، وترتفع أثمان أراضيها، ويقصد إليها كثيرون من أهل العالم الإسلامي الذين يثقل عليهم حكم المستعمرين الأوربيين، كما كانوا بدأوا بهاجرون إليها قبل الحرب العامة. مع أن أمتة السواحل لم تكن حينئذ كما هي الآن

ومن الاغلاط المشهورة التي شهرتها لا تمنع كونها غلظاً الظن ببلاد الحجاز هي من القحولة بحيث لا تتحمل عدداً من السكان يزيد على أهلها الحضرين وان زاد فلا يكون إلا قليلاً، وان الحجاز ناشف، وان الحجاز يابس، وان الحجاز كثير الحجار والحرار قليل الرياض والنباض، غير اريض الاراض الى غير ذلك من وجوه الاعتراض. وهذا كله من الكلام المرسل بدون تحقيق، الذي يقوله من لا يعرف الحجاز او لا يعرف شيئاً عن الحجاز او بعض السكالي من أهل الحرمين الشريفين الذين يبدون ويعيدون أمام حجيج البيت الحرام وزور الروضة النبوية عن فقر الحجاز تعمداً منهم، ليستزيدوا بر الحجاج بهم، ويستندرو عوارف العالم الإسلامي عليهم

وحقيقة الحال انه لو كان سكان الحجاز ثمانية او عشرة ملايين نسمة كان ثمة مكان لهذا القول. ولكن بدون أن نعرف بالتدقيق عدد أهلي الحجاز تقدر ان نقول انهم جميعاً بدأوا وحضراً لا يزيدون على مليون نسمة وربما لا يناهزون هذا العدد. وان من عرف جزءاً من الحجاز - لا كله - علم ان الحجاز إذا قام أهله على فلاحه وزرعه حق القيام أعاش منهم ملايين بالراحة التامة، واصد اليهم من لخيرات ما لا يذكر موسم الحج في جانبه شيئاً

ولقد رأيت على مقربة من مكة وادي فطمة المستدي وادي الميرون مسافة خمس عشرة ساعة فرأيت جنة من جنان الله في أرضه لا تنضبها بقعة لافي الشاه ولا في مصر ولا في العراق.

ولما كنت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة وجوات في عواليها والبقاع التي تليها وشاهدت زكاه تلك الارضات وسمعت خريراتك المياه قدرت ان البلدة الطيبة وحدها اذا كانت سكة الحجاز الحديدية متصلة بها وبقيت المهاجرة اليها من الآفاق قد تحمل نصف مليون نسمة ولا يتكادها أمر معيشتهم . وقد كان بلغ عدد سكان المدينة قبل الحرب العامة نحو خمسين الف نسمة وصار المتر المربع من الارض الفضاء في وسط البلدة يباع بعشرة جنيهات وفي الضواحي بجنيه واحد وكانت الناس مقبلة على الشراء من كل جانب فلما انقطعت السكة الحديدية الحجازية الواصلة بين المدينة والشام بسبب استئثار دولتي فرانسة وانكلترة اللتين وضعتا أيديهما على قطع هذا الخط التي في سورية وفلسطين والبلقاء، وجهلتا بل هضمتا حقوق المسلمين الخاصة فيهما، نقلص عمران المدينة المنورة ونزل عدد سكانها من الخمسين ألفاً إلى ١٥ ألفاً، كما ان جميع القرى التي كانت على جوانب الخط مثل معان وتبوك ومدائن صالح والملا وغيرها قد تراجعت إلى الوراء بعد أن كانت السكة قد بدأت تعيد اليها غابر عمارتها . ولعل التخوف من عمران الحجاز كان من جملة الاسباب التي حدثت دولتي انكلترة وفرنسة على المعارضة في تسليم السكة الحجازية الحديدية للمسلمين . فان هاتين الدولتين اللتين تسلطتا على نحو ١٥٠ مليون مسلم تكرهان أن يكون لهم ماجأ تهوي اليه أخذتهم وبكون معموراً وتتوافر فيه أسباب الراحة وينتهي الامر بازدهام السكان فيه (ولا سيما الحجاز ولا سيما الحجاز ولا سيما الحجاز)

ولكن استئناف عمران الحجاز أمر لا مناص منه مهما وضع الاجانب أعداء الاسلام في طريقه من العراقيل والعوائير، لان المسلمين يارزون إلى الحجاز من كل صوب كما تارز الحية إلى وكرها . وقد كانوا يشتكون قلة الامنة في السبل فقد أزيحت هذه العلة بتامها بفضل الله ثم بفضل عبد العزيز بن سعود . وقد كانت

تطول عليهم المراحل، وتتعبهم أكوار الرواحل فالآن قامت السيارات الكهربائية مقام الأباعر، وطرت تلك المسافات الطوال علي السجل للكتاب. ولا بد من أن يأتي دور السكة الحديدية يوماً فتكمل من المدينة إلى مكة ويمتد خط من جدة إلى مكة ثم من مكة إلى الطائف، وإذا كان العرب عرباً ساروا به من الطائف إلى أبها إلى صنعاء اليمن إلى عدن. فإن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللثام من أعدائها، والمتفلسفون من أبنائها وإن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ولو بعد مائة سنة أو أكثر

وظالما قلت: إن من أهم الشروط الأساسية لهذه الوحدة هو مد الخطوط الحديدية بين الشام وجزيرة العرب، والعراق وجزيرة العرب، على أن تكون هذه الخطوط للعرب وبايدي العرب

وبينما كنت اقرأ ترجمة حياة « كافور » مؤسس الوحدة الإيطالية بقلم السيور « باليولوغ » سفير فرنسة في بطرسبورغ سابقاً إذ وجدته يقول: إن كافور كان يرى الشرط الأساسي لوحدة ايطالية ربط جريم أجزائها بالخطوط الحديدية، وقد ابتدأ بذلك من قبل أن أتم الوحدة الإيطالية

* * *

قابلية خيبر للعمران

ونعود إلى عمارة الحجاز فنقول: إن من البقاع الملاهي مستقبلاً - كما يقول الأفرنجي - بقعة خيبر، ولم أصل إلى خيبر ولكني سمعت بها كثيراً. وقيل لي إن بها سبعة أودية سائلة ونحيلة من فوق التصور. وكنت أيامنا مبعوث الشام في مجلس النواب باستانبول سمعت بمد شعبة من الخط الحديدية إلى خيبر ينفصل من قبل الوصول إلى المدينة المنورة بنحو ساعتين، ولا تكون مسافة هذا الخط للشعب من الخط العمودي أكثر من ساعتين فقط، فكان يمكن ذهب الإنسان - الارتسامات

من المدينة إلى خيبر في أربع ساعات لاغير . وكنا قررنا مد هذه الشعبة إلى خيبر كما قررنا مد شعبة أخرى من أذرع (درعا) إلى عجلون في حو، أن ، وشعبة أخرى من (ضبعة) إلى الكرك في شرق الاردن، كلها من الخط الحجازي، وجاءت الحرب العامة فوقفت كل هذه المشروعات، ثم جاء احتلال الاجانب للبلاد فاخني على كل شيء ، بينما هم يدعون أنهم إنما أتوا لاجل اسعاد البلاد وترقية عمراتها ؛ قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن خيبر سبعة حصون : حصن ناعم، وحصن القميص ، وحصن الشق ، وحصن النظاة ، وحصن السلام ، وحصن الوضوح ، وحصن الكتبية . ولها كلها مزارع ونخل كثير .

وروي ان غزاة النبي ﷺ لها كانت لست سنين وثلاثة أشهر واحد وعشرين يوما للهجرة، وفتحها وحقق دماء أهلها اليهود وقالوا له يا رسول الله إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فاقرنا . فاقروهم وعاملهم على الشطر من التمر والحب . فلما كانت خلافة عمر ظهر فيهم الزنا وكان سمع ان النبي ﷺ قال « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » فاجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر إلى الشام وقسم خيبر بين المسلمين ، قال وكان رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر ليخبرهم فقال : إن شئتم خرصت وخيرتكم ، وإن شئتم خرصتم وخيرتموني، فاعجبهم ذلك وقالوا هذا هو العدل، هذا هو القسط ، وبه قامت السموات والارض .

وخيبر موصوفة من القديم بالحصى ، وذلك من كثرة مستنقعاتها . وفيها اليوم اكرة من السودانيين الزنوج لا يقدرون على الإقامة بها لولا ألقتهم للحصى . وأما اذا قبض خيبر وللحجاز اصلاح وأعيدت السكة الحديدية إلى مجراها وانتعش ، من عمودها شعة إلى خيبر وعمرها الناس فللحمى طرق فنية كثيرة تسمى استئصال حراتيها تدريجاً من أهدار المياه وحصرها في القنى السائلة وغور

الفياض الكثيرة من تجر الاوكايبتوس وتجنيف المنايع واتقاء الحن بالكينا وغير ذلك مما جرى مثله في أما كن أخرى كانت وبيثة في الماضي فصارت مصاح الاجام

العلا ووادي القرى

ومن الاماكن القابلة جداً للمارة « العلا » (بضم أوله) وهي على مسافة سبع أو ثماني ساعات من المدينة المنورة إلى الشمال بسير القطار الباخر قال ياقوت : هو اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، نزله رسول الله ﷺ في طريقه إلى تموك . ولم يذكر ياقوت شيئاً عن جنان العلا وولدة فواكها ، وجودة عمارها وتمورها . فهي من أجل المراكز المرجوة لعمران القسم الشمالي من الحجاز . ووادي القرى كما من الاماكن المرجوة لعمران الخبجر نقل ياقوت في المعجم قول ابي المنذر عن وادي القرى قال « سمي وادي القرى لان الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة، وكانت من أعمال البلاد، وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا انها في وقتنا هذا كلها خرب وميدهم جارية تندفق ضائعة لا يتدفع بها أحد

قال ابو عبد الله السكوني : وادي القرى والحجر والجناب منازل قصعة تم جهينة وعذرة والي، وهي بين الشام والمدينة يمر بها حج الشام، وهي كانت قديماً منازل ثمود وعاد، وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية ونزلها بعدهم اليهود ، واستخرجوا كضائماً ، وأساحوا عيونها ، وغرسوا نخلها ، فلما نزلت عليهم القمائل عقدوا بينهم حلفاً ، وكان لهم فيها على اليهود ضعمة وأكل في كل عام ومنحورهم عن العرب ودفنوا عنها قبائل قضاة

وروي ان معاوية بن ابي سفيان مر بوادي القرى فتلا قوله تعالى (تتركون فيها همها آمنين في جات وعيون وزروع ونخل) الآية، ثم قال : هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد ثمود فمن العيون ، فقال له دحا : صدقة الله فواد

تجب ان استخرج العيون ؟ قول نعم ، فاستخرج مانين عينا . فقال معاوية : الله
أصدق من معاوية

وكان النعمان بن الحارث العسائي ملك الشام أراد غزو وادي القرى فخره
نايفة بني ذبيان ذلك بقوله :

تجنب بني حن فان لقاءهم ككربه وإن لم تلق إلا بصائر
هم قتلوا الطائي بالحجر عنوة أبا جابر واستنكحوا ام جابر
وهم ضربوا أنف الفزاري بعدما أتاهم بمقود من الاسر قاهر
أطلع في وادي القرى وجنابه وقد منعوا منه جميع المعاصر؟
في أبيات

وحن - بضم الحاء المهملة والنون المشددة - هو ابن ربيعة بن حرام بن
ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن
خفاف بن قضاة . وأبو جابر - هو الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد
بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن
سعد بن فجرة بن طيء ، وكان ممن اجتمعت عليه جديلة طيء .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خير في سنة سبع امتد إلى وادي القرى
فقرأه ونزل به . وقال الشاعر :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بوادي القرى أتى إذاً لسعيد؟
وهل زين يوماً به وهي أيم ومارث من جبل الوصال جديد
انتهى كلام أبي النذر وكلام باقوت .

ووادي القرى اليوم خراب كما كان في أيامها ولا يرجى له استئناف عمران
إلا باستئناف حركة الخط الحديدي الحجازي .

ولقد كان وادي القرى معموراً في صدر الإسلام وما يليه ، وبه مات موسى

ابن نصير اللخمي فاتح الاندلس وغازي الارض الكبيرة الاوربية وقامحها كلها
لو تركه أعداؤه وحساده في دمشق يكمل عمله في الغرب
وقرأت في كتاب « الصلة » لابن بشكوال في تاريخ أئمة الاندلس وعلماهم
ترجمة احمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الاموي الذي يعرف بابن ميمون من أهل
طليطلة: وفيها انه رحل إلى المشرق سنة ٣٨٠ وحين وزار المدينة و نه سمع بوادي
القرى من ابي جعفر احمد بن علي بن مصعب، وبمدين من ابي بكر السومسي الصوفي
وبأيلة من ابي بكر بن المنتصر، وبالقزم من ابي عبيد الله بن غسان القاضي
فمن ذكره علماء في هذه الاماكن يأخذ عنهم مثل ابن ميمون الطليطلي
بجلالة قدره يعرف انها كانت معمورة مأهولة. والحال انها اليوم خراب، قلاوادي
القرى ولا مدين ولا ايلة ولا القزم عليها رائحة العماره، أو فيها شيء يشبه القرى
فضلا عن الحواضر او المزارع، فضلا عن الجنان النواضر. أين اليوم وادي القرى
ومدين وايلة والقزم، وأين العلم والادب والسماح منها؟

اودية العقيق في المدينة واليمامة وغيرها

ومن أجل ما في الحجاز بل في جزيرة العرب لا مكنة التي يقل لها العقيق،
ويترمم بها الشعراء بالشعر المثين الرقيق، والعرب تقول لكل مسيل ماء شقه السيل
في الارض فانهره ووسعه عقيق. من هذه الاعقة عقيق عارض اليمامة وهو واد
واسع مما يلي العرمة يتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة
قال السكوني: عقيق اليمامة لبني عقيل فيه قرى ونخل كثير، ويقال له
عقيق تمره، وهو منبر من منابر اليمامة عن عيين من يخرج من ليمامة يريد اليمن، عليه
أمير، وفيه يقول الشاعر:

تربع ليلى بالمضيح ذلحى وتحفر من بطن العقيق السوقيا

ذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان، ثم ذكر عن عقيق لمدينة ما ملخصه:

انه عتيقان الاكبر مما يلي الحرة ما بين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراجل
ومما يلي الحمى ما بين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن
عثمان إلى قصر المراجل ثم اذهب بالعتيق صعداً إلى منتهى البقيع ، والعتيق
الاصغر ما سفل عن قصر المراجل إلى منتهى العرصة ، وفي عتيق المدينة يقول
الشاعر وهو المدح المرقص الذي ليس وراءه مدح في الكرم :

اني مررت على العتيق وأهله يشكون من مطر الربيع زوراً
ماضركم إن كان جعفر جاركم أن لا يكون عتيقكم ممطوراً؟

قال : وفي هذا العتيق قصور ودور ومنازل وقرى . قال القاضي عياض :
العتيق واد عليه اموال أهل المدينة ، وهو على ثلاثة أميال او ميلين وقيل ٦ وقيل ٧
وهي أعقة (احدها) عتيق المدينة عتق عن حرثها ، وهذا العتيق الاصغر وفيه بئر
رومة . والعتيق الأكبر بعد هذا وفيه بئر عروة . وعتيق آخر أكبر من هذين
وفيه بئر على مقربة منه وهو من بلاد مزينة ، ومنها العتيق الذي جاء فيه
(انك بواد مبارك) هو الذي يبطن وادي ذي الخليفة . ومنها عتيق الجامة
لبنى عقيل ، وفيه يقول ابن حمير (بضم فتشديد) العقبلي :

يريد العتيق ابن المير ورهطه ودون العتيق الموت ورداً وأحرراً
وكيف تريدون العتيق وونه بنو المحصنات اللابسات السنورا

ومنها العتيق ماء لبني جمدة وجرم ، تخصصوا فيه إلى النبي ﷺ قضى به
لبني جرم ، ومنها عتيق البصرة واد مما يلي سفوان ، ومنها عتيق آخر يدفع
سيده في غوري تهامة ، وهو الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال : لو أهلوا
من العتيق كان أحب إلي (يريد أهل العراق الذين من عادتهم أن يهلوا من
ذات عرق) . ومنها عتيق ثمرة قرب تبالة وبيشة وقيل عتيق ثمرة هو عتيق الجامة .
والعتيق واد لبني كلاب نسبة إلى اليمن لان أرض هوازن في نجد مما يلي اليمن

وأرض عطفان في نجد مما يلي الشام ، وإياه عنى الفرزدق بقوله:
 ألم تر أني يوم جو سوقية بكيت، فسادتني هنيذة : ماليا ؟
 قلت لها ان البكاء لراحة به يشتفي من ظن أن لا تلاقيا
 قني ودعينا يا هنيذ ، فاني أرى الراكب قد ساموا المقيق البانيا
 انتهى ملخصاً من معجم البلدان

وسيد الاعقبه كلها عقيق المدينة المنورة ، وهو الذي يدور ذكره على السنة
 الشعراء . وإذا قيل العقيق وحاجر ، اشتد الشوق وسالت الدموع من الحاجر ،
 وقد تنزهت فيه ونشقت طيب هوائه ، ورشفت من عذب مائه ، وهو على
 مسافة ساعة من المدينة النبوية ، على ما كتبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وفيه
 بئر عثمان بن عفان - رومة - وبئر عروة بن الزبير رضي الله عنهما . وقد كانت لنا
 أيام زرت المدينة قبل الحرب العامة بسنة فيلات كثيرة على بئر عروة المشهورة
 بحفنة مائها والتي كان يرسل بمائها إلى هارون الرشيد . قال الزبير بن بكار : رأيت
 أبي يأمر به فيغلى ثم يجمده في القوارير ويهديه إلى الرشيد وهو بالرفقة

هذا - وقد كنت أشعر عند بئر عثمان من انشراح الصدر ، وانفساح
 الفكر ، ما لا أشعر به في مكان آخر ، حتى أبي أردت مقابلة أعيان المدينة المنورة
 الكرام على حفاوتهم بي ، والكارم التي أظهورها ، والآدب التي آخذوها ، فدعوت
 منهم حسين أو ستين شخصاً إلى مأدبة اخترت لها بئر عثمان التي قال فيها النبي
 ﷺ « نعم القلب قلب المزي » وهي البئر التي كانت تسمى من قبل : بئر رومة
 (بضم فسكون) كانت لرجل غفاري يقال ان اسمه رومة ، فلما أعجبت رسول الله
 ﷺ اشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم ، وتصدق بها على المسلمين . وقال
 مصعب بن الزبير يذكر بئر رومة ويتشوقها وهو بالمراق:

أقول لثابت - والعين تهمي - دموعاً ما أنهنها أنحدارا

أعربى نظرة بقرى دجيل تحاياها ظللما أو سهارا
 فقال اري برومة أو بسلع منازلنا معطلة فقاراً

ولم تكن جميع المنازل وقتئذ بالمعيق معطلة فقاراً، بل كانت تلك الدير عامرة، وكانت حولها الجنان ناضرة، ولا تزال آثار العماره هناك ظاهرة، ومنها آثار قصر عروة بن الزبير وقصر سعيد بن العاص وغيرها، وإذا زخر عمران يثرب يوماً من الأيام فلا بد من أن تتصل المنازل من البلدة إلى المعيق^{١٦}

سُلع المدينة المنورة

وأما سلم - بفتح أوله وسكون ثانيه - فهو جبل على طرف المدينة المنورة إلى الشمال الغربي يضي الشكل شامخ مشرف على جميع البلدة تعلو ذروته عنها نحو ثلاثمائة متر فلو حفل عمران المدينة وعادت إليها السكة الحديدية متصلة بالشام كما لا بد أن يكون ذلك إن شاء الله وجعلت إلى ذروة هذا الجبل مرعاة funiculaire كما ترى في سويسرة للجبال العالية القريبة من العمران التي يتوقلون إليها بالسكك الراقية لكان في رأس سلم متنزه يمز نظيره في الدنيا ولا يمل الناس الاختلاف إليه. ومعنى لفظة سلم بالفتح وقد يكسر - الشق في الجبل قل ياقوت : قال أبو زياد: « الأسراع طرق في الجبال يسمى الواحد منها سلماً، وهو أن يصعد الإنسان في الشعب وهو بين الجبلين يبلغ أعلى الوادي ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه (سند فيه رقي فيه، والسند ما قبلك من الجبل وما علا عن السفح، وفي وطني من جبل لبنان مكان يصعد فيه الإنسان من عين جنوب إلى عيناب يقال له سند عيناب) ثم ينحدر حينئذ في الوادي

«١٦» في احاديث اشراط الساعة وما يحدث قبها ما يدل على ان منها عمران المدينة وان النبي ﷺ قال « تبلغ المساكن إهاب أو يهاب » رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن هريرة وان بعض رواته قال ان إهاب على بعد عدة اميال من المدينة

زابع مهل حجج الشمال وسهولة مينائها وبرها ٣١٥
الآخر حتى يخرج من الجبل منحدرآ في فضاء الارض فذاك الراس الذي أشرف
من الوادين السلع ولا يعلوه الا راجل « اه

(قلت) في سلم المدينة ذروة تناوحتها ذروة أخرى وبينهما منحدر خفيف من الارض.
وكان الاتراك قد جعلوا « تلك نقطة عسكرية ومدافع ولعلها باقية الى اليوم وقد علوت
هذا الجبل راجلا في جماعة من الاحباب بدعوة قائد المدينة قبل الحرب العامة (بصري
باشا) الذي دعانا إلى شرب الشاي هناك ، ولكن سيأتي يوم نضم فيه مدينة الرسول
عمرانا حفيلا ويصعد الناس إلى سلم بأشقة ان شاء الله. قال صفي الدين الحلي :
ان جئت سلما فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بقدي سلم
والشعر في سلم كثير .

بنع ورايح وبيشة

ومن الاماكن الحجازية الملائى بالمستقبل - كما يقول الافرنج « بنع » قال
ابن دريد « أخذ اسمها من الفعل المضارع الكثرة ينايعها » وهي عن يمين جبل
رضوى لمن كان منحدرآ من المدينة المنورة إلى البحر على ليلة من رضوى وعلى
سبع مراحل من المدينة

قال ياقوت « قال الشريف ابن سلمة بن عياش الديني : عدت بها مائة
وسبعين عينا » وقال عرام بن الاصمغ السلمي « وهي لبني حسن بن علي وكان
يسكنها الانصار وجهينة وليث وفيها عيون عذاب عزيرة وواديها بليل ، وبها
منبر وهي قرية غناء »

ومنها رايح وهي بلدة على واد من دون الجحفة يقطعه الحاج من دون « عزور »
(بفتح فسكون) قال الخازمي : يظن رايح واد من الجحفة له ذكر في المغازي
وفي أيام العرب ، ومعنى الرايح العيش الناعم ، وكذلك الرايح الذي يقم على أمر
ممكن له ، وحجاج الشام يحرمون من رايح^{١١} وإذا كانوا في السفين في البحر الاحمر

« ١ » وكذا سائر من يجيء من الشمال وشرقيه وغربيه فبحر منسأ برا وبحرا
ولو عمرت ميناء رايح لكنت اولى بزول هؤلاء الحجاج منها لان بحر ها خير من
بحر جدة وبرها خير من برها لكثرة المياه والشجر فيه وان كان اهد عن مكة

وعلموا انهم صاروا بجذاء رابع أحرموا ولبوا ، ووادي رابع من أخصب أودية الجزيرة يجعل الاهالي هناك له سداً مؤقتاً من طين يجددونه كل سنة ويزرعون عليه ، ولو انتدبت شركة اسلامية وأخذت من حكومة الحجاز امتيازاً ببناء سد من حجر يتكون وراءه خزان مياه ذو مفاجر تسد وتفتح بحسب الحاجة لكادت عملية من أرباح العمليات الاقتصادية لان الزراعة وأصحاب الاراضي يتصنون أن يؤدوا شيئاً معلوماً لأصحاب الخزان بشرط أن يأمنوا على قضية ري أراضيهم . ومن مزايا رابع ان ميناءها آمن ميناء في الحجاز . إذ من المعلوم ان مرافئ بحر الحجاز كلها مخوفة لا تقدر السفن أن ترقأ اليها الا بدلالة بحرية من أهل الحجاز يتخلون البحر امامها . وأما رابع فقد عافاها الله من هذه العلة

ومن المواضع الزراعية ذات البال في الحجاز بيشة التي إلى الجنوب من الحجاز نحو اليمن . قال ياقوت « اسم قرية غناء في واد كثير الاهل من بلاد اليمن . وعن أبي زياد : خير ديار بني سلول بيشة . وهو واد يصب سيده من الحجاز حجاز الطائف ثم ينصب في نجد حتى ينتهي في بلاد عقيل . وفي بيشة بطون من الناس كثيرة في خشم وهلال وسؤاة بن عامر بن صعصعة وعقيل والضباب وقريش وهم بنو هاشم لهم المعمل » ثم قال ياقوت « وبيشة من عمل مكة مما يلي اليمن على خمس مراحل وبها من النخل والفسيل شيء كثير ، وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الاسد » قال السمعري :

وأبنت ليلى بالفرين سلمت علي ودوني طخفة ورجامها

فن التي أهدت علي نأي دارها سلاما لمردود عليها سلامها

عديدا الحصى والائل من بطن بيشة وطرفاها مادام فيها حمامها

قلت طخفة جبل ورجام جبل أيضاً ، وأما المعمل الذي أشار اليه ياقوت فهو

ملك نبي هاشم في بيشة . والاصل في تسميته « المعمل » هو هذه القصة :

كان في بيشة سلول وخشم يتنازعون : يحفر السلوليون فيضعون الفسيل فيجيء

بشعبيون فينزعونه ولا يزال بينهم القتال على ذلك ، وسمي السكان الذي كانوا

يتنازعون فيه مطلوبا . فتخوف العجير السلوي من وقوع شر أعظم فأخذ من حطين هذا المحل ومائه ولحق بهشام بن عبد الملك الأموي ووصف له صفته وأتاه بالماء والطين وأخبره بما في ييشة من الاودية وما فيها من الفسيل وقال له ان من الممكن هناك غرس عشرة آلاف فسيلة في يوم واحد ، فأرسل الخليفة هشام من الشام الى أمير مكة أن يشتري مائة زنجي ويجعل مع كل زنجي امرأته ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب وينقل اليهم الفسيل حتى يترسوه ، ففعل أمير مكة ما أمره به الخليفة، فلما رأى الناس ذلك قولوا ان مطلوبا مفضل يعمل فيه ، فذهب اسمه « العمل » إلى اليوم وقال العجير السلوي :

لا نوم للعين إلا وهي ساهرة حتى أصيب ببيض أهل مطلوب
أو تفضبون فقد بدلت أيكتمكم ذرق الدجاج وتجفاف العاقب
قد كنت أخبرتم ان سوف يملكها بنو أمية وعدا غير مكذوب

قلت العاقب جمع يعقوب، وهو الذكور من الحجل والقطا. وتجفجف يعقوب
انتفش وتحرك وألقى جناحيه على البيضة . يريد أن يقول لسلول وخشم ما زلت
تتنازعون حتى اضطررتموني أن ألبأ إلى الخليفة الأموي وأدعوه أن يملك المحل ،
ويحرمه الفريقين، فبدلتم بالجنان والمغارس ذرق الدجاج وتجفجف القطا
ولم أشاهد ينبع النخل ولا رابع ولا ييشة وإنما شافهت كثيرا ممن شاهدوها
وكان أكثر من ذكر لي خصب ييشة وخيراتنا الكاتب النمساوي ليوبولد وايس
الذي أسلم وتسمى محمد اسد الله. فقد حدثني عنها ان فيها من قابلية الزراعة ما تكفي
فه ميرة مكة وجوارها طول السنة لو كان العمل قائما فيها كما يجب . وأما النخيل
فكثرت تدهش العقل ، وقد سمعت اسد الله يذكر مثل هذا لجلالة الملك ابن سعود
في مجلسه الملوكي بمكة

وهذه بعض أمثلة اجتزىء بها عن الاستقصاء ، فأقول :

الطريقة المثلى لعمران الحجاز الاقتصادي

ان الحجاز فيه بقاع زراعية هي في الدرجة القصوى من الخصب والذكاء ، ولكن ينبغي لها المال والعلم فلا بد من بناء السدود كما كانت من القديم ، ومن حفر الآبار الارتوازية لاستنباط المياه ، ومن الاعتماد في السواني على الآلات الرافعة البخارية (المواتر) وهناك طريقة رأيتها في الصيف الماضي في جزيرة ميورقة وهي الدواليب الهوائية تدور بهبوب الريح فترفع الماء ويتصبب إلى الصهاريج ، ولا يتكلف عليها صاحبها زيتاً ولا فخاً

فإذا وجد الماء وجد من الخصب والخير والمير في الحجاز ما لا يوجد في قطر آخر . وأما المال اللازم للشروعات الزراعية المذكورة فله طريقان (احدهما) أن تنظم الميزانية المالية لحكومة الحجاز تنظيمًا حسنًا ويفرز منها جانب وافٍ لمصلحة الزراعة ، فتأخذ هذه كل سنة بمشروع وتقوم بإنشائه من مال الخزانة ثم تستوفي ذلك من الاهالي المنتفعين على أقساط معلومة مؤجلة إلى عدة سنوات بحسب جسامه المشروع

(والثانية) أن تتقدم لهذه الاعمال شركات اسلامية بجته من حجازيين ونجديين ومصريين وشاميين وهنود واندونيسيين وغيرهم وتمطيها حكومة الحجاز بها امتيازات الى آجال معينة ، وهذه الشركات هي التي تبني السدود وتستوفي على الري شيئاً معلوماً من الزراع ، او تحفر الآبار الارتوازية وتأخذ بدل العمل مع الريج الذي يكون وقع عليه الشرط أو تقدم المواتر لاصحاب السواني وتأخذ عنها منجماً على عدة سنوات وما أشبه ذلك (١)

٢١٥ وفي أخبار أم القرى ان الحكومة السعودية اتدبت أحد كبار مهندسي الامريكان لاحتبار الارض وأما كن وجود المياه فيها . وانه وجد مياه غزيرة قرب وادي قاطمة من جهة جدة ، وستحفر هناك الآبار الارتوازية لاستخراجها وسقي الارض بها



ويوجد عدا الزراعة منبع عظيم للرزق في الحجاز بل في كل جزيرة العرب هو المعادن . فان غنى الجزيرة بالمعادن موصوف معروف عند جميع الامم من قديم الدهر حتى ان المؤرخين أجمعوا على ان حضارة هذه الجزيرة الباهرة في الحقب القديمة انما قامت بامر من (أحدهما) نقل متاجر الهند والشرق الاقصى إلى العرب بموقع العرب بين الاثنين (والثاني) ثروة المعادن التي تكنها أرض الجزيرة

فبينما الآن وقد مضى وقت الفتوحات وصرنا لانطمح إلا إلى حفظ الموجود بيدنا، أن نأرذ إلى الجزيرة التي هي مهد العرب المنتشرين في أقطار المعمور جميعاً ونجلبها الكهف المانع ، والاصل الجامع ، ونستخرج كل ما فيها من عيون الحياة الكامنة، حتى تصون نفسها، وتجدد أخواتها التي انبسطت عليهن أيدي الاستيلاء الاجنبي، وأصبحن لا يمكن لانهن أنفسهن أمراً، فنزح عنهن هذا الرق الذي يرسفن في قيوده، وتم بذلك الجامعة العربية التي هي نكتة الحيا، ونشيدة آماننا في هذه الدنيا . ويجب ان لا ننسى ان هذا الامر لا يصلح آخره إلا بما صنع به أوله . فقد كانت معادن الجزيرة في القديم من أغزر منابع ثروتها وعزها وارتقاها وهي لاتزال هي هي لا يتقصها إلا الارادة والعمل

ولقد يقال ان استثمار المعادن ليس بامر سهل وانه ان انشبت الشركات الاوروبية محالبها في هذه المعادن جنينا منها السيطرة الاجنبية ، والذل ، والندامة ، فالأفضل ان نكون قراء أحراراً ولا نكون أغنياء أرقاء ... ولن نكون أرقاء وأغنياء أبدأ، لان العروة لاتجتمع مع فقد الاستقلال. وهؤلاء أهل المغرب والجزائر وتونس عندهم من معادن الفوسفات وغيرها ما يقوم بالمليارات وليس بأيديهم منه شيء حتى كأن ذلك ليس في أرضهم

كل هذا التعليل صحيح لا اعتراض عليه . وأحسن لنا ان نبقى فقراء مستقلين من ان يبتاعنا الاستثمار الاجنبي بواسطة معادن نرجو في استثمارها اليسر، فيؤول بنا الامر إلى الخسر . ولكن هذا التعليل لا يحل المشكل ، ولا يجوز لامة عاقلة رشيدة أبية تبني الحياة مثنا ان تعمل في قضية ذات بال كمنه على حل سلمي

مصرف، نظن أننا قد أجبنا به ضامناً الناشئة، وسكننا به خواصنا الثائرة، على حين انه الحل الذي يليق بالأمم التي استوى عندها الماء والخشبة والتي لا تريد ان تعمل شيئاً ، بل تنظر قضاء الاستيلاء الاجنبي ان ينفذ فيها

أقول في تعليل ذلك (أولاً) ان الذين يقترحون استثمار هذه المعادن الثمينة لا يشيرون باعطاء أقل شيء منها لشركة أجنبية او لشركة مؤلفة من مسلمين هم تبع لدولة أجنبية غير مسلمة ، بل يشيرون باعطاء الامتيازات لاستثمارها إلى شركات اسلامية مرجعها حكومات اسلامية ، وبما لا تزاع فيه ان الشركات التجارية في بلاد الاسلام قليلة وان رؤوس الاموال قليلة أيضاً

فالمسلمون لم يتعودوا أسلوب الشركات في التجارة فضلاً عن ان ثروتهم العامة لا تساعد على تأليف هذه الشركات . الا ان المبالغة في كل شيء مذمومة فلا يجوز ان نظن ان تأليف الشركات عند المسلمين مستحيل ولا ان المال معدوم تماماً بين أيديهم ، فكلا هذين الافتراضين مخالف للمحسوس

وفي بلاد الاسلام شركات اقتصادية كثيرة ، ومن المسلمين عدد غفير من ذوي الثروة ، وعدد غفير من ذوي المهارة في الامور الاقتصادية واذا جربت حكومتنا الحجاز واليمن استثمار المعادن التي في هذين القطرين على أيدي ممولين من المسلمين فلا يبدأ هؤلاء بالربح ولا يتحقق المسلمون ان هذه المشروعات ذات عوائد أكيدة حتى يقبلوا على المساهمة من كل صوب وتجد من رؤوس الاموال عند المسلمين مالا يخطر لك على بال . وذلك لان الربح جلاب وحيث تحقق وجود الفائدة وجد المال بلا إشكال

اذن يمكننا ان نستثمر معادن جزيرة العرب برؤوس أموال أصحابها مسلمون بل أصحابها مسلمون لاني بلديهم دول غير مسلمة (١) وليس بضربة لازب ان

«١» إن تجار العرب في بمبي «الهند» وأكثرهم من نجد والكويت قد ألفوا شركة بواخر تمخر بين الهند وشط العرب زاحوا بها الشركات الانكليزية فزحموها ثم كانت الحرب العامة سبب استدلاء الانكسار علماً بصفة قاننة

تستثمر هذه الناجم كلها دفعة واحدة ، بل يمكننا أن نستخرج خيراتها تدريجياً .
ولكن الذي لايجوز أصلاً هو ان نظماً والماء فوق ظهورنا ، او أن نشكو مزيد
الفقر والماء تحت رحالنا

(ثانياً) ان الظن الذي يظنه بعضنا ان السرح باستخراج هذه الناجم يفتح
أعين الاوربيين على الجزيرة لاسيما اذا رأوا الخيرات تدر منها وانهم قد يشنون
الغارات على البلاد لاجل حيازة هذه المعادن هو ظن لعمري بغير محله
فان الافرنج يعرفون مواقع هذه المعادن - ويعلمون ما فيها إن لم يكن تفصيلاً
فاجمالياً . وعندما علم آخر من طبقات الارض بحملهم عارفين بما يحتوي من المعدن
والفلز كل نوع من هذه الطبقات ، فإن كانوا لم يشنوا الغارات إلى اليوم على
الجزيرة فليس لجهلهم بما في بعضها من المنوز والخيرات ، بل لان لأمور
صهونة باوقاتها ، والاستيلاء على جزيرة العرب اد على بعض أقسام من جزيرة
العرب ليس بالامر السهل ، بل دونه عتبت من وعورة الجبال ، وحرارة الرمال ،
وشجاعة الرجال ، فضلاً عما بين الدول من التنافس الذي يحمل بعضهم على الوقوف
بالمرصاد لبعض مما يخشى منه وقوع الحرب بينهم . وعلى كل حال فالجزيرة إلى
الآن سالمة من استيلاء الاجنبي إلا بعض أطراف لابل لها

فليس من الحكمة ولا من الحزم أن نضيع على أنفسنا ثروة نحن في أمد
الاحتياج اليها تحت ملاحظات ليست صحيحة وأسباب غير واردة
وما يدلنا على كون هذه المعادن معروفة عند الافرنج رسالة بلال بن رباح
عليها مؤخرًا مؤلفها المستشرق الالماني الشهير الاستاذ موريتز واسمها « *die bergwerke in alten arabien* »
في العربية القديمة

جاء فيها ماملخصه :

يظن الناصر إجمالاً ان جزيرة العرب هي من أفقر بلاد الدنيا ، وحقبة

الحال انها ليست كذلك ، بل إذا نظرنا إلى ما كانت عليه في القرون الوسطى نجدها كانت ذات ثروة تضرب بها الامثال و كانت تلك الثروة آتية من منبعين (أحدهما) كون الجزيرة طريق التجارة بين الشرق والبحر المتوسط (والثاني) وفرة المعادن التي كانت فيها ، وأخصها المذهب ، فقد كانت هذه المعادن في أواسط عهد الالف سنة قبل المسيح معروفة عند العبرانيين والفينيقيين والاشوريين . وقد كان سليمان بن داود أرسل بعثة على حسابه إلى البحر الاحمر ، وعادت بقناتم تدهش العقل

وذكر سترابون (جغرافي يوناني مات في زمان طيباريوس قيصر) وديودور (مؤرخ يوناني يقال له ديودور الصقلي صاحب تاريخ عظيم ، وكان معاصرا لاغسطس قيصر) انهما في بلاد العرب كان فيها التبر

وقد كانت جزيرة العرب قبل الاسلام وقبل دخولها في الفتوحات النائية ذات ثروة عظيمة بالزراعة والمعادن ، وكانت مكة أشبه بمركز حكومة جمهورية ذي مراكز تجارية عظيمة ذات علاقات مع الآفاق ، وكانت فيها صناعة الحلي بالغة درجة جاريتين بقوة بينها وبين سائر البلدان ، وكانت فيها صناعة الحلي بالغة درجة الاتقان ، ولا يزال صاغة مكة ، وصنماء اليمن ، وعنيزة نجد ، إلى يومنا هذا مشهورين باتقان الصنعة

أماكن معدن الذهب في جزيرة العرب

فما الاقاليم التي فيها معادن الذهب من جزيرة العرب فمنها الاقاليم الغربية والذهب يوجد فيها باسناد الجبال الواقعة بين الداخل والساحل أي أسناد الجبال المتدلية إلى التهامم . وكذلك توجد معادن ذهب في أواسط الجزيرة في الاماكن المجهولة الضاربة إلى الجنوب والشرق . وهذه الجوانب الجبلية متكونة من حجر الغرانيت مع كثير من الرخام السماقي ، وهذه الحرات التي في الجنوب

والتي تمتد إلى مكة وإلى غربيها لا شك انها تولدت تحت تأثير التحولات الجيولوجية التي أدت إلى هذه القفار المحرقة وهذه اليبوسة في الجزيرة ، وان شكل الغرانيت الصواني هذا يظهر في وسط البلاد وتمتد آثاره إلى جهة الشرق اي في جبال نجد . واطرافه الجنوبية تظهر في شمالي اليمن إلى أن تحاذي صنعاء من الشمال . واما الجنوب الغربي من الجزيرة والجنوب كله فتشكلاهما الجيولوجية مختلفة عن الأولى ، والذهب انما يوجد في الجهات التي فيها الصوان او الغرانيت وهي ما يأتي :

(أولا) في الشمال الغربي من الجزيرة بأرض مدين القديمة

(ثانياً) في أرض الحجاز الضاربة إلى الجنوب

(ثالثاً) في الشرق من الجزيرة نحو نجد

(رابعاً) في الجنوب الشرقي إلى جهة اليمامة

(خامساً) في الجنوب الحوض بأرض عسير إلى الشمال من اليمامة

فدين هي البلاد الواقعة بين البحر الاحمر وقرم لجبال المحاذية للبحر الممتدة من نحو العقبة في الشمال إلى وادي الحوض في الجنوب وهي اليوم تابعة لحجاز .
وهناك مراكز على ساحل البحر منها (ظبا ، والمويلح ، والوجه)

وفي بلاد مدين معادن مفتوحة من قديم الدهر ، وآثار الشغل في المعدن واضحة جداً . ومعدن مدين هو المعدن الوحيد الذي توصل الاوربيون إلى معرفته جيداً من معادن جزيرة العرب ، فان الكابتن برتون Burten الرحالة الانكليزي قد كان ذهب على رأس بعثة أولى وثانية سنة ١٨٧٧ من قبل اسماعيل باشا خديوي مصر - الذي كانت مدين إذ ذاك تحت إدارته . ولكن لم يستصحبوا معهم في تلك البعثات علماء متخصصين في فن المعدن ، ومع هذا فقد تمكنهم أن يحققوا وجود المعدن القديم في نقاط عدة ، وجاءوا بحجارة مأخوذة كيف اتفق
— الأرتسامات

من على سطح الارض . ووجدوا ٤٨ غراما من الذهب في الطن الواحد ، ووجدوا فضة ونحاساً وحديداً ، ولكن النتائج لم تكن بحسب المأمول منها لعدم اعتمادهم في التعدين على أرباب الفن ذوي الاختصاص . ثم ان اسماعيل باشا بلغه ظهور معادن ذهب في السودان ، فانصرف عن معادن مدين اليها . ولم تلبث أن استرجعت الدولة العثمانية مدين إلى إدارتها ، فبطلت كل حركة بحث في مدين^(١)

وفي جنوبي مدين معدن يقال له « الحراضة »^(٢) ثم إلى الجنوب منه معدن غير الذي ذكره الجغرافي العربي المقدسي وقال انه بين ينبع النخل ومروة . وهذا المعدن المجهول لم يزل بكره ، وأصحابه قبائل صغيرة لا يمكن الاوروبي أن يجول في أرضهم وأما المعادن المهمة في الجزيرة فهي التي في الحجاز واليمن ، ويكثر فيها الذهب والفضة ، وفيها قليل من النحاس ، وفيها الحديد . ففي جنوبي الحجاز معادن

(١) بعد أن احتل الانكليز مصر بادرت الدولة إلى استرجاع سواحل العقبة والوجه وما يليها من يد الحكومة المصرية حتى لا تجعل للانكليز يداً في الحجاز . ولو لم تفعل الدولة ذلك لكان شطر من الحجاز الآن تحت سيطرة انكلترة ، وبرغم هذا فقد أذاق الانكليز بعد ذلك السلطان عبد الحميد عرق القربة من أجل العقبة وما رجعوا حتى الحقوا « طابة » بمصر لتكون العقبة تحت طائلة قوتهم ثم لما زالت الدولة العثمانية بعد الحرب الامامية لم يزالوا حتى ألحقوا العقبة بشرقى الاردن بموافقة الملك على بن الحسين الذي كان سمي ملك الحجاز حينئذ لاختيه الامير عبدالله أمير هذه الجهة ، ويقال بموافقة غيره من أمراء الحجاز . وقد احتج على ذلك الامير الاسلامي الذي انعقد في مكة منذ خمس سنوات ولم يعترف الملك ابن سعود باعتداء انكلترة هذا على العقبة ومعان اللتين كانتا تابعتين للحجاز مع كل مرادتها له على هذا الامر ومع استظهارها باعتراف الملك علي

(٢) في معجم البلدان ذو حرض - على وزن عنق - وادي لني عبدالله بن غطمان على مقربة من معدن النقرة ولم يقل شيئاً عن هذا المعدن . ولقد جاء ذلك التعريف بعينه في تاج العروس وأما الحراضة - بضم أوله - فقد قالوا انه ماء بالمدينة عام . من هوامش الاصل

كثيرة شهيرة ، وكانوا في زمن النبي ﷺ يستخرجون منها بمجرد رفع الحجارة
ومما لاشك فيه ان الاستخراج منها وقع بعد المسيح بستة سنة وكان حينئذ
ومن معادن الحجاز معدن «بحران»^(١) بالضم أو بالفتح - على الطريق السلطاني
من مكة الى المدينة .

ومنها معدن القبلية^(٢) في جبل قدس (بالضم) حيث بويع الرسول ﷺ
وكان معدنا عظيم الغلة ، وكانت ثروة الخليفة أبي بكر^(٣) من هذا المعدن ومن

(١) جاء في معجم البلدان: بحران بالضم موضع بناحية الفرع . قال ابن اسحاق
هو معدن بالحجاز في ناحية الفرع وذلك المعدن للحجاج بن علاط الهزلي ، قال ابن
اسحاق في سيرة عبدالله بن جحش - بفتح الباء - فلك على طريق الحجاز حتى إذا
كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران: أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان
بغيراً لها كانوا ينتقبانه ، كذا قيده ابن الفرات بفتح الباء هنا وقد قيده في مواضع
بعضها وذكره العمري والزنجشيري وضبطاه بالفتح (٢) القبلية (بالتحريك) من
نواحي الفرع (بالهم) سراة ما بين المدينة وينبع . ما سال منها الى ينبع سمي بالنبور
وما سال منها الى اودية المدينة سمي بالقبيلة ، وأقطع رسول الله ﷺ هذه القطيعة
بلال بن الحارث المزني وكتب له « هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث
اعطاه معادن اقبيلية غورها وجاسيها « غشمية » و « ذات النصب » وحيث صلح
الزروع من « قدس » وكتب معاوية « (٣) جاء في طبقات ابن سعد: كان ابو بكر
معروفاً بالنجارة ، وقد همت النبي ﷺ وعنده اربعمائة درهم فكان يمتق منها ويقتوي
المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم فكان يفعل فيها ما كان يفعل في مكة . انتهى
واما من جهة ما كان يعود عليه من المعادن فجاء فيها ما يلي :

وكان قدم عليه مال من معدن القبلية ومن معادن جهينة كثير وانفتح معدن
بني سليم في خلافة ابي بكر فقدم عليه منه بصدقته فكان يوضع ذلك في بيت المال .
فكان ابو بكر يقسمه على الناس نقرأ نقرأ - بضم النون وفتح القاف - فبصيب كل مائة
انسان كذا وكذا وكان بسوي بين الناس في القسم الحر والعبد والمذكر والانثى
والصغير والكبير اذ كله من حواشي الاصل

معدن آخر في بلاد جيبنة وملحوظ أن كل هذه اجبال التي هناك غنية بالمعادن وقد كانت في زمن الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز يؤخذ عليها رسم من مال الصدقة تم اخذ منها على وجه الخس

وأعظم معدن في جزيرة العرب معدن جبل فاران^(١) الذي كان لبني سليم^(٢) وكان فيه ذهب وحديد ،

ولا نعلم انه تأسست نظارة خاصة بمعادن الحجاز في الدولة الاسلامية إلا سنة ١٢٨ للهجرة . وبعد هذا التاريخ بانهي سنة خربت هذه المعادن أو انقطع الاستخراج منها بحسب رواية الاصطخري ، ولم يذكر ياقوت عن استغلالها شيئاً وائس عندنا عن أسباب ترك العمل في هذه المعادن الا افتراضات ، فيجوز أن تكون نفدت مادتها ، ويجوز أن يكون إهمالها جاء من قبل الفتح الاسلامي الذي دشر العرب في الاقطار، فقد كانت مكة قبل الاسلام مركزاً عظيماً للاخذ والعطاء ، ولم يكن ذلك بسبب حركة أهلها وخدم بل بسبب كونها محط رحال القبائل المجاورة ، فقد كانت القافلة الواحدة نحو ألف رجل تتقدمها البوادي وتخفرها وتأخذ ٥٠ بالمائة من الارباح ، وهكذا كان البدو متعلقين بأهل مكة تابعين لهم فلما فتح الاسلام البلدان وتفرق العرب لم تبق مكة كما كانت من قبل مركزاً كبيراً للاخذ والعطاء لكنها بقيت فيها ثروة غير زهيدة

(١) فاران من اسماء مكة المكرمة وقيل هو اسم لجبال مكة وفي التوراة « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعر واستعان من فاران » تفسيره : ان الله كلم موسى عليه السلام من سيناء وانزل الانجيل على عيسى عليه السلام في ساعير اي جبال فلسطين وانزل القرآن على محمد عليه السلام في فاران اي جبل مكة

(٢) جاء في المعجم معدن بنى سليم هو معدن فاران وهو من اعمال المدينة ، على ضريق نجد اه من الاصل

وفي القرن الاول من الهجرة كان في الحرمين يسار عظيم، يستندل على ذلك من انه لما قتل الخليفة عثمان وجد وراه من الذهب المين ١٥٠ ألف دينار، يساوي الدينار عشرة ماركات، فذا ضرب بأربعة ليغابق حساب التمد اليوم بالغ ذلك ما يساوي ٦ ملايين مارك^(١) وقد كانت تركة أخرى مقدره بخمسة

(١) كان عثمان بن عفان رضي الله عنه تاجراً في الجاهلية والاسلام وهو الذي جهز جيش العسرة - لغزوة تبوك - من ماله، وترك يوم قتل مائة وخمسين الف دينار وثلاثين الف درهم وخمسين الف درهم وترك الف بغير بالربذة وترك صدقات كان تصدق بها في براديس وخيبر ووادي القرى قيمتها مائتي الف دينار. فانت ترى أن تركة عثمان كانت أعظم مما قال الاستاذ مورتيير الالمانى

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه موسراً أيضاً باع أرضاً من عثمان بأربعين الف دينار، فقسم ذلك في مقراء بني زهرة أقاربه وفي ذوي الحاجة من الناس، ولما مات ترك الف بغير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبيع في المدينة، وكان يزرع بالحرف على عشرين ناضعا، وقيل انه ترك ذهبا قطع بالفوس حتى مجات ايدي الرجال منه، وكان له نسوة اربع فخرجت كل واحدة ثمانين الف درهم وكان سعد بن ابى وقاص رضي الله عنه غنياً ترك يوم مات مائتي الف وخمسين الف درهم

ولكن الثروة العظمى كانت للزبير بن العوام رضي الله عنه، جاء في طبقات ابن سعد: انه بلغ ماله قيمة خمسة وثلاثين الف الف ومائتي الف درهم أي ٣٥ مليوناً و٢٠٠ الف، وترك اربع نسوة فأصاب كلا منهن مليون ومائة الف. وحدث ابنه عبد الله بن الزبير انه دعاه يوم الجمل وقال له اني سأقتل اليوم مظلوما يا بني، مع مالنا واقض ديني واوص بالثلث فان فضل من مالنا من بعد قضاء الدين شيء فثاته لولدك، قال عبد الله بن الزبير فجعل يوصي بدينه ويقول يا بني إن عجزت عن شيء فاستعن عايله مولاي، قال فوالله مادريت ماأراد حتى قلت ياأبت من مولائك؟ قال الله، قال فوالله ماوقعت في كربة من دينه إلا قلت يا مولاي الزبير، اقض عنه دينه، فيقضيه، وقتل الزبير ولم يدع دينارا ولا درهما، الأرضين فيها الغابة، واحدى عشرة دار بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر =

ألف دينار أي ٢٠ مليون مارك ، ولكن عند ما ارتفع لواء الاسلام في الآفاق

وإما دينه فكان مليونين ومائتي ألف درهم، وكان سبب هذه الديون أن الرجل كان يأتيه بالمال ليستودعه إياه، فيقول الزبير لا، ولكن هو سلف أبي اختي عليه الضيقة وكان الزبير اشترى النابتة بمائة وسبعين ألف درهم فباعها عبد الله بن الزبير بمليون وستائة ألف، ثم قام فقال من كان له على الزبير شيء فليوافنا بالنابتة فوافاه أصحاب الديون واستوفوا حقوقهم، وقال بنو الزبير لعبد الله أقسم لنا ميراثنا، قال لا والله لا أقسم بينكم حتى أنادي في الموسم أربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه. فجعل كل سنة يتأدى بالموسم، فلما مضت أربع سنين قسم بينهم قتلوا كان للزبير بمصر خطط وبأسكندرية خطط وبالكوفة خطط وبالبصرة دور وكانت له غلات كثيرة تقدم عليه إلى المدينة

وأما طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقد ترك يوم قتل في واقعة الجمل تركه عظيمة، جاء في الطبقات قتل طلحة بن عبيد الله - رحمه الله - وفي ذخازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم وقومت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم، وحدث عمرو بن العاص قال إن طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار في كل بهار ثلاث قناطير ذهب، وسمت أن البهار جلد ثور «١» وقال إبراهيم بن محمد بن طلحة، كان قبلة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والأموال وما ترك من التراض (المال الصامت العين في اصطلاح أهل الحجاز) ثلاثين ألف ألف درهم ترك من العين ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عروض، وسأل معاوية موسى بن طلحة كم ترك أبو محمد يرحمه الله من العين ؟ قال ترك ألف ألف درهم ومائتي ألف دينار وكان يغل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السمرة وغيرها، وكان يدخل قوت أهله بالمدينة سنهم من مزدعة بقناة كان يزرع على عشرين باضعاً، وأول من زرع القمح بقناة هو، وكان لا يدع أحداً من بني تم أن يزرعه طائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤنة عياله وزوج أيامهم وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم، وكان يرسل إلى عائشة كل سنة ١٠ آلاف درهم، وقضى عن صبيحة التيسى ٣٠ ألف درهم، وطلحة هو أحد أجواد العرب المشهورين، وأحد الطلحات الأربعة المضروب المثل بكرمهم أهم الأصل

«١» وفي الصباح المنير : والبهار بالقسم شيء يوزن به

أخذ العرب يضادرون الجزيرة لينضوا تحته ، ولم يبق في الحجاز إلا قبائل
بادية، كبنى هلال وبنى سليم وحرب - الذين بين مكة والمدينة - فصاروا يخلو
البلاد من الساكن إلى فقر شديد حملهم على الارتزاق من نهب الحجاج وقطع
السوايل، وعاد معول الحجاز كله - يدوا وحضرا - في المعيشة على موسم الحج

*
* *

وفي نجد معادن أيضا منها المعدن الذي يقال له «الحليت» في «أم البيل»
أي أم الابل بقرب حمى ضرية^(١) وهو مشهور بالثر . وقد تناقص محصوله من
كثرة ما استخراج منه وترك أخيرا، ولو أمكنت زيارة تلك الارض لكان
منها فائدة إذ عندها كتابات منقوشة من قبل الاسلام ربما يعرف منها شيء عن
استخراج هذا المعدن

ثم في نجد معدن (المصبحة) ومعدن (المهجرة) ومعدن (القصاص) وهي
معادن ذهب ، والمعمل في (تربة)^(٢) وهو معدن ذهب أيضا

(١) قال الاصمعي : حليت - بوزن خريت - معدن وقرية . وقال ياقوت ،
قال نصر حليت جبال من اخيالة حمى ضرية عظيمة كثيرة الثمن كان فيه معدن
ذهب ، وهو من ديار بنى كلاب وقال ابو زياد حليت ماء بالحى للضباب وبحليت
معدن اه وجاء في معجم البلدان ذكر معدن بقرب حمى ضرية غير هذا قال
ابو عبيدة والخربة (بالتحريك) ارض مما يلي ضرية به معدن يقال له معدن خربة
(٢) جاء في معجم البلدان ذكر «تربة» بضم قتح - انها واد بالقرب من
حكة على مسافة يومين منها يصب في بستان ابن عامر يسكنه ذو هلال وحواليه من
الجبال السمراء ويسوم وفر قد ومعدن البرم اه
قال محمد بن احمد الهمداني تربة وزينة ويشة هذه الاودية الثلاثة ضخام
مسيرة كل واحد منها عشرون يوما ساقلها في تجردوا عاليا في المرأة ثم قال وفي الثلث عرف
بطي بطن تربة قاله عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ابو براء ، لاعب الاسنة في قصتها
طول غاب عن قومه فلما عاد الى تربة وهي ارضه التي ولد بها الصق به بطنه بارضا
فوجد راحة فقال ذلك اه من حواشي الاصل

وأما معادن الفضة فهي اثنتان فقط (أحدهما) معدن (أبرق خترب)^(١) الذي كان غزيراً جداً، ثم من القرن الحادي عشر (أى الرابع للهجرة) انقطع خبره. ومعادن النقرة «بالفتح»^(٢) الذي كان مذكوراً كثيراً إلى القرن الثاني عشر وأما الحديد فقد ذكر وجوده الرحالة الأزماعي هوبر Huber الذي ساح في بلاد العرب ولكنه لم يقل عنها شيئاً، وإنما أشار إلى معدن «مديد» في تبوك والنيامة غزيرة المعادن. ذكر الجغرافي الهمداني (٣٤٤ للهجرة) معدن الحسن (٣) ومعدن الحفير (٤) والفضيب (٥) وثنية ابن عصام والموسجة وتياس ثم يذكر الهمداني بعد ذلك معدني فضة ونحاس في تمام (٦) وكان يشتغل فيها ألف رجل يومياً، وإن صح ذلك فيكون تعدين هذه المعادن من أيام الجاهلية وأما معادن اليمن وعسير فكانت معروفة من زمان الفينيقين والعبرانيين وهي «شوبلة» و «شيبا» و «أوفير» و «فراوهم» والمظنون أن «شوبلة» هي «خولان» وأن «شيبا» هي سبا. وأن فراوهم هي فروة. وأما «أوفير» فمذكور في التوراة. ويظن أنه في المكان المسمى سينباني

- (١) ضبطها الاسناد موريتز، بضم فسكون وهكذا في ناج الروس إنه على وزن قنذ، وقد جاء في معجم البلدان «خترب» اسم موضع لكن بفتح فسكون
- (٢) جاء في الفاهوس للفيروزابادي: والنقرة ويقال معدن النقرة وقد تكسر قافهما
- (٣) جاء في المعجم: الحسن في ديارضبة. وسذكر كلام الهمداني نفسه عن هذه الأماكن
- (٤) الحفير كزير جاء ذكره في المعجم وفي التاج - أسما لعدة مواضع أشهرها موضع بين البصرة ومكة يمر عليه الحاج. ولكن المقصود هنا معدن الحفير بناحية عمابة وسنقل كلام الهمداني نفسه
- (٥) ضبطه موريتز بفتح فسكون كما هو ولم أجده اسم موضع إلا بضم ففتح كزير
- (٦) سنقل كلام الهمداني عن كل هذه المواضع اهـ من الاصل

وكثير من المؤلفين العرب لم يكونوا يعرفون من هذه المعادن الا اسماءها ولم يكونوا محققين أما كتبها ، ومن ذلك قول ياقوت : ان معدن البرم (بضم فسكون) بين مكة والطائف^١ وفي الوقت نفسه قالوا انه في وادي تربة . كذلك معدن « المثم » الذي جرى ذكره الى القرن العاشر والحادي عشر قد جده في الساحل جنوبي الليث وفي «تلايث» الى جهة الداخل . ويجوز ان يكون المكان الثاني مقصودا به معدن نجران . وعلى ١٨٠ كيلومترا من نجران الى الشمال بالمعيق الأعلى معدن صعاد^٢ الذي بأرض بني عقيل الذي قال فيهم الرسول ﷺ « بأرض بني عقيل يطار الذهب » وقد كان هذا المعدن غزير الحصول الى القرن العاشر فاقطع ذكره . واشتهر معدن ضنكان (٣) شمالي عسير بجودة التبر الذي يخرج منه ، ثم اقطع خبره أيضا . ويجوز ان تتغير الامماء بمرور الايام فن : حية « قانونا » صار اسمها في الحديث قنفذة ، وان التي كان يقد لها ليتوسها ما يوم هي « الليث » اليوم

(١) قال في المعجم : معدن البرم قال عرام : قرية بين مكة والطائف يقال لها المعدن ، معدن البرم كثيرة النخل والزروع والمياه مياه آبار يسقون زروعهم بالزرايق . قال أبو الديار : معدن البرم لبني عقيل ، قات وقوله الزرايق معناه السواني ، والزونوقان حائطان مبيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع عليهما النعامة وهي الحشبة المعلقة عليهما ثم يعلق بها البكرة ، قبل واذا كان الزونوقان من خشب فهما النعامتان ، والحشبة المعترضة هي المعجلة والغرب معلق بالمعجلة

(٢) قال أهداني في « صفة جزيرة العرب » : المعبيق عقيفان ، المعبيق الأعلى للمنتفق ، ومنه معدن صعاد على بوم أو بومين وهو أغزر معدن في جزيرة العرب وهو الذي ذكره النبي ﷺ في قوله « مطرت أرض عقيل ذهابا ، والاسفل هو في طي » (٣) قال في المعجم : هو واد في أسافل السراة يصب الى البحر وهو من مخاليف اليمن اه من حواشي الاصل

وفي صعدة من اليمن معدن الحديد ، وذكر السائح « هالتي » انه شاهد بيئته سنة ١٨٧٢ في خولان وسرواح شمالي صنعاء قطعا من الذهب مع الادلاء الذين كانوا معه من العرب ، وعلمت انهم يجدون هذا الذهب بشكل حبات في الرمل وفي مجاري الانهر وفي الاودية ، وفي اليمن أيضاً معادن فضه منها معدن (الرحراح) في رُض همدان «

وختم الاستاذ مورتيير رسالته على معادن بلاد العرب بقوله :
 « ن جزيرة العرب هي من البلاد التي عرفها انسياح أقل من جميع أقطار الارض وأكثر ما عرفوا منها السواحل وبعض القسم الشمالي . وفي جوف الجزيرة قطعة يعدل طولها بثمانمائة كيلو متر وعرضها بستمائة كيلو متر لا يعرف عنها شيء لامن أي شكل هي ولا إذا كانت صحراء مبيته او مسكونة ؛ وان عدم الاطلاع على حقائق هذه المجاهل ليس ناشئاً من طبيعة الارض كما هو ناشئ من طبيعة السكان » انتهى ملخصاً

* * *

الدين النصيحة!!

فأنت ترى من هذه الرسالة المنشورة سنة ١٩١٧ أي منذ أربع عشرة سنة ن الاوربيين يعرفون ما في جزيرة العرب من المعادن ان لم يكن تفصيلاً فاجملاً وانه ليس عدم سماعهم بثروتها المعدنية هو الذي ثبطهم حتى اليوم عن احتلالها بل لذلك أسباب سياسية مرجعها حفظ التوازن الدولي ، وعسكرية مرجعها صعوبة مراس أهلها

فلأولى بنا أن ننتقم هذه الفرصة ونستغل ما أمكننا من هذه المعادن لنقفوي بها جيوشنا ، ونصالح إدارتنا ، ونبث العمارة في بلادنا ، وأن لا تأخذ

هذه الامور بالتسويق والمطاولة حتى يصيبنا ما اصاب تركيا في مطاولاتها
 باستخراج الكنوز التي كانت تحت يدها إلى أن جاء الاجانب واستولوا عليها ،
 فقد كانت قادرة أن تستفيد من زيت الموصل من عهد طويل ، فلما تبنت في أمره
 شيئاً ، ولم تزل تامل إلى أن أضاعت بهذه الماطلة ثروة تقوم بالمليارات الكثيرة
 من الجنيهات لا من الفرنكات ، وكان عندها البحر الميت فلم تصنع في استخراج
 ثروته شيئاً ، ولا أبدت ولا أعادت إلى أن جاء الانكليز بعد الحرب العامة
 فخللوا مياهه وقوموا ما يمكن أن يستخرج منه ، فقالوا انه يمكن أن يستخرج منه
 قيمة خمسة آلاف مليار جنيه ، وعشرون الف مليون طن من الفوسفات وهم
 جرا مما تعجب العقول عن تصوره ، وليس في جزيرة العرب شيء من الخيرات التي
 تقو بهذه المليارات من الجنيهات ولكنه بدون شك فيها كثير من المعادن التي
 يمكن كلاً من حكومة الحجاز ونجد السعودية وحكومة اليمن الامامية أن ترفق
 به وتستعين به على اصلاح بلادها وتميز أجنادها ، وذلك على شرط أن لا تلجأ
 في هذا الموضوع إلا إلى رؤوس أموال اصحابها مسلمون ليسوا من تبعه الاجانب
 وهذا ممكن إذا ارادته هاتان الحكومتان وبداتنا بفحص فني عن هذه الاماكن
 حتى تعلمنا ما تحت ارجلها قبل مباشرة العمل

*
 * *

﴿ كلام الهمداني في معادن جزيرة العرب ﴾

ولنذكر الآن ماقاله الهمداني في كتابه النقطع النظير « صفة جزيرة العرب »
 المطبوع في « لندن » من سبع وأربعين سنة وذلك عن معادن الجزيرة

« معادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب : معدن الحسن والحسن قرن أسود ملبح وهو معدن ذهب غزير ، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب ، ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب ، ومعدن العوسجة (١) من أرض غني فويق المغيرة ببطن السرداح ، والمغيرة الماء الذي يقال انه رمي عليه شاس بن زهير بن ثعلبة بن الاعرج الغنوي ، ويقال المغيرة قرن يقال له الوتدة في بطن الوادي ، ومعدنا شام الفضة والصفرة ، ومعدن تياس ذهب مخف بتياس (٢) ومعدن العقيق (٣) معدن العقيق بين العمق وبين افيحية ومعدن بيشة (٤) ومعدن الهجيرة (٥) ومعدن بني سليم (٦) فهذه معادن نجد » ثم ذكر الهمداني الاملاح وهي مما يجب أن يحال تحليلاً فنبا ليعرف ماذا يحتوي وما يمكن أن يستخرج منه من الاجزاء التي قد تقوم بالذهب كما جرى بالبحر الميت . قال الهمداني :

«الدليل أملاح من أوله الى آخره . الخديقة والرابعة وصبيب والهوة ومياه الشرية ، وفيها يقول الحارث بن ظالم :

فلو طأوت عمرك كنت منهم وما ألفيت أنتجع السحابا
ولا ضفت الشرية كل عام أجد على أباثرها الذبابا
أباثر ملحة بحزير سوء تبيت سقاتها صردى سفابا

- (١) ورد ذكر العوسجة في المعجم انه معدن فضة ببلاد باهلة
(٢) ورد ذكر تياس في المعجم ولم يذكر معدناً بل قال انه جبل بقرب اليمامة
(٣) عقيق عارض اليمامة ذكره ياقوت
(٤) تقدم ذكر بيشة
(٥) لم يذكر ياقوت عن الهجيرة الا انها مرضع
(٦) تقدم ذكر معدن بني سليم اهـ . من حواشي الاصل

ومن أملاح المصق المنهلة والنعجاوي ، ومن أملاح العبامة والشعل والبقرة
واحساء بني جوية، وبنوفة حنتل، وناضحة، والبعرة، والنجلية، والنقرة، والحجارة
مجازة الطريق سوى مجازة اليمامة بين إجلة وبين الفرعة . مياه الحمادة أملاح
ونجيل ونجيلة، والاباط، والحفيرة، والحامضة وشعبب مياه منيم الا الحدباء وماء
يفاء وبرك واوان، والخيا نية، والنهيقية واللقيطية، وما احتازته بذران قبة إرام
الى خلفه وعماية عذاب كله ، والقطانية ملح بيطن السرة . فأما الملح الذي يتلح
فصباح ملح الحاجر ، وملح المظلفية ، وملح لقصبية، وملح بيرين ، وملح يذحية
البحرين ، وفي روقوس الجبال ملح نحيث أحمر عروق . وهذه ملحاحات أهل نجد ،
فأما ملح اليمن فن جبل الملح بمأرب ، وملح بالقمة من تهامة بناحية مور ،
والمهجم وشير من مياه تهامة املاح، فمنها المعجر والجبال والحويثية، وجوحلي،
وكل ما قارب الساحل جميعاً املاح الا اليسير »
ثم يعود إلى المعادن في موضع آخر فيقول :

قد ذكرنا معادن الذهب ، فأما معدن انفضة مار ضراض (بفتح وله) فما
لا نظيره وبها معادن حديد غير معمونة مثل نغم (بضمين) وغمدان (بضم وله)
وبها فصوص البقران (محركة) ويبلغ المثلث بها مالا^(١) وهو أن يكون وجهه
أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود ، والبقران ألوان ومعدنه يجبل أنس
(بفتح أوته وكسر ثانيه) وهو ينسب الى أنس بن ألمان بن مالك ، والسهوانية
من سهوان (بفتح فسكون) واد الى جنب صنعاء وهو فص أسود فيه عرق أبيض

(١) قال يا قوت في معجمه البقران بثلاث فتحات وقد تكسر القاف وربما
سكنت من مخاليف اليمن لبني نبيد يجلب منه الجزع البقراني وهو اجود انواعه
قالوا وقد يبلغ الفص منه مائة دينار قلت لعل هذا كان قديماً فأما في زماننا فما
رأيت ولا سمعت فص جزع بلغ دينار قط ولو انتهت غايته في الحسن الى اقصى مداها
اهـ من هوامش الاصل

ومعدنه بشهارة (بضم أوله) وعيشان (بفتح أوله) من بلد حاشد الى جنب
 هموم (بكسر فسكون ففتح) وظليمة (بضم ففتح) والجش (بفتح أوله) من
 شرف همدان ، والمشاري (بضم أوله) وهو الحجر السماوي من عشار بالقرب
 من صنعاء ، والبلور يوجد في مواضع منها ، والمسنيّ الذي يعمل منه نصب
 السكاكين يوجد في مواضع منها ، والعقيق الاحمر والعقيق الاصفر العتيقان
 من أهان ، وبها الجزع الموثي والمسير وهو في مواضع منها منه النقيّ وهو
 فحل العرف والسمواني والضمري منه أجش والحولاني والجرتي (بضم فسكون)
 من عديقة ، والشرب (بفتح فسكون) يعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف
 ونصب سكاكين ومداهن وفحفة وغير ذلك ، وليس سواه إلا في بلد الهند ،
 والهندي بعرق واحد »

ثم ذكر الهمداني معدن الرضراض في موضع آخر صفحة ٨١ من النسخة
 المطبوعة بليدن فقال :

وأودية الرضراض وحريب نهم ومشاربها من جبال السرضع ، وسامك
 ومساقط بلد عذر مطرة ، وبلديام وهيلان ، وتحت سامك الرضراض ، واليه ينسب
 معدن الرضراض ، وثم قرية المعدن معدن الفضة وهو معدن لا نظير له في العز
 وخرّب بعد قتل محمد بن يعفر . اهـ

وقد تقدم ذكر الهمداني معدن البرام بقرب الطائف ، وقد ذكر أيضاً
 في كلامه على بلد حرام من كثانة معدن ضنكان (بفتح فسكون) وقال عنه هو
 معدن غزير ولا بأس بتبره ثم ذكر معدن عشم (محرّكة) أيضاً

ولقد كان الملك حسين بن علي في أثناء ولايته انتدب بعض متخصصين في
 الزراعة وفي علم طبقات الارض للبحث في أراضي الحجاز وابداء آرائهم فيما يمكن
 عمله لاستثمارها فجالوا في الاراضي ونظروا ودفقوا ورقبوا اجلالتة تقريراً نشر

الخير الزركلي خلاصته في كتابه « مارايت وما سمعت » ومنه يظهر ان أراضي المنطقة الطائفية صالحة جداً للزراعة وانه ينبت فيها أكثر الاشياء النافعة كالشوندر والبطاطا والتبغ والقنب والسهم والارز والقطن والورد وغيرها. فأما عن تشكيلات الارض الجيولوجية فقد قررت البعثة الفنية المذكورة مايلي ناثره بحرفه :

تقرير علمي في صفة أراضي الحجاز وصخورها

« الاراضي التي في منطقة الطائف هي من أندم طبقات الاراضي الجيولوجية جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة وهي لا تمتص المياه ولذلك يقل وجود الماء في الجبال إذ تتسرب عنها وترسب في الاودية .

« وهذه الصخور مركبة من « شنابس » رمادي اللون فيه ذرات سوداء ويتركب من « ميغا » و « كورانس » و « فلدسبات » ثم تليه طبقة صخور « الغرانيت » وهو على الغالب أحمر اللون فيه حبيبات رمادية ماعة وتركيبه كتركيب « الغنايس » وتليه طبقة صخور « البازالت » وهو صخر بركاني كحبي او أسود اللون متعب كالاسفنج . وقد تغير هيئة الصخور في منطقة الضم وبتتر فيها صخر « الميكاسيت » وهو صخر أسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض و « الكوارس » وهو صخر أبيض لماع وقد يوجد بصفة متبورة ويتركب منه « السبايس الصلبي » ويملو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من « الكلسيت » اجتمعت في الاودية ومجاري السيول ، وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التي هي من تقنت الصخور الممتدة فوق الارض . ومن خصائص هذه الطبقات القديمة انها تحتوي على معادن من الجنس الجيد ومن جعلتها معدنان

(أحدهما) رمل مركب من حديد « مؤكسد » ممزوج به قليل من نحس

ويبلغ مقدار الحديد نحو ٦٠ في المائة ولا بد من تحسن المعدن في العمق

(والثاني) حديد مؤكسد أيضاً إنما هو صاف من الجنس انجيد يصح

٢٢٨ ماحول الطائف من معادن، وما في جبالها من حجارة قيمة

للاستخراج ويحتوي على نحو ٧٠ في المائة حديداً صرفاً، وفي منطقة الطائف خصوصاً ما بين عين الخضرة والطائف -مقابر وافرقة من المرمر الاحمر الجميل الذي من فوائده انه يعمل أعمدة للابنية الجميلة وتوضع منه أشكال عديدة للزخرف»
تم جاء في ذلك التقرير :

«وعلى بعد أربع ساعات من الطائف محلة تدعى « المعدن » فيها جبل مرتفع ٥٤٠ قدماً به حضريات قديمة تنبئ باستخراج معدن منه، وفيه آثار معدنية تحتوي على شيء من الحديد وقليل من النحاس ، واذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود أشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح ، ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قدماً آثار بيوت مبنية في قمة الجبل وبوادي من حجر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم ويستخرج منها الحديد ، واذا أريدت متابعة استخراجها الآن لم يكف له الحفر على وجه الارض ، بل ينبغي حفر آبار تتفرع منها سرايب تحت الارض

وفي جبل الوهط جنس صخر يدعى « ميضا » أبيض اللون ، تتجزأ منه صحف رقيقة كالورق، شفاقة كالزجاج ، وهو غير قابل للذوبان في النار مهما بلغت حرارتها . ومن فوائده انه يستعمل للآلات الكهربائية ، وللمواقد الحديدية ، المتخذة للدفء . وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافي ، الصالح لاستخراج الكلس ، الصافي اللون » انتهى

(قلت) قد رأيت في بلاد الطائف أشكالاً وأواناً من الحجارة وأتذكر اني رأيت في العقبة المسماة « بكر الصغير » التي يصعد بها الانسان من وادي المحرم إلى الهدى حجراً أخضر كثيراً . وقد جاء في معجم ياقوت عند ذكر حرة بني سليم ان بها معدن « الدهنج » وهو حجر أخضر يحفر عنه كمائر المعادن

رسالة قريظة في معادن اليمن

ولقد جردنا ذكر المعادن إلى نقل رسالة صغيرة عن معادن اليمن وجدتها في آخر الجلد الذي فيه الجزء العاشر من كتاب «الأكليل» للهمداني من النسخة التي في المكتبة الملكية في برلين ، وليس الكلام للهمداني ولا هو من عبارته وإنما فيه شواهد أحياناً من كلام الهمداني

قال : « حجري وترابي في الخلقة معدن في الجبل فضة وذهب . وفي خرابة ذي حـ ب معدن ، وفي أب (١) معدن ، وفي أفيق (٢) معدن ، وفي بلد عنس (٣) معدن ذهب في وسط الجروف فوق المزارع ، فوق العجرن معدن رصاص أسود

(١) قال ياقوت أب بالفتح والتشديد هي بلدة باليمن ، ونقل عن عمر بن عبد الخالق الابي أن إِب بالكسر وإن أهل اليمن لا يعرفون الفتح ، وجاء في تاج العروس عن أبي طاهر السلفي أنها بكسر الهمزة ، وجاء أن إِب بالكسر من قرى ذي حجة باليمن ، وقال الصغاني هي من مخلاف جهنم

(٢) لم نجد في الأصل مضبوطاً فلا نعلم هل هو بفتح فكسر أم بضم ففتح فسكون — وياقوت يذكر « أفيق » على وزن أمير — البلدة ذات العقبة المشرفة على بحيرة طبرية وبذكر لمدأ بالتصغير — على وزن سبيل — يقول عنه موضع بلاد بني يربوع ولا يقول غير ذلك إلا أن تاج العروس يقول : أفيق — على وزن أمير — بلدة بين حوران والنور ومنه عقبة أفيق وبلدة لبني يربوع أو بلدة بنو احي ذمار . وقد أغفل ياقوت والصغاني والمفهوم من كلام الفيروزباصي والزيدي أن جميعها — على وزن أمير — وليس فيها ما هو بالتصغير ولم يذكر منهم أحد . بل رأيت في أبي ولافي أفيق

(٣) بفتح أوله وسكون تانيه قال ياقوت : « عارف باليمن وجاء في تاج العروس أن عنس لقب زيد بن مالك بن أدد أبو قبيلة من اليمن ومخلاف عنس ، ماضاف إليه ولم يذكرها بها معدناً (بالحاشية) أهكل ما تقدم وما سـ في هذا اتصل من حواشي الأصل

في جرشة عنس في التعمب الذي ينزل الى ورقة في الاكمة السوداء على الشمال
اذات نازل الى ورقة وهي حجارة سود تشبه الكحل، تكسر الحجارة ويوقد
عليه زبل الدجاج إلى أن يصير كالماء، وفي بلد بني غصين (١) معدن فضة عند
ختران بالخرابة العالية عند الخربتين الكبيرتين وهو تراب لونه أصفر مرجح
إلى خضرة يؤخذ منه ويخلط عليه فراز الخلل وعضة (٢) الكشر (٣) واللين
الحامض ستة أيام ويطبع فانه يصير ماء فيطالع الزبد في أعلاه

ومن المعادن المشهورة معدن فضة جيد في موضع يقال له الرضراض حد
مايين خولان وهدان كان لبني يمفر، وقد خرب فوقه الآن جبل ذكره صاحب
جزيرة العرب (٤) ولعله في حوزة نهم (٥) معادن يابسة من نهم مشهورة منها
ماهو رصاص اسود جيد، ومنها ماهو فضة. معدن فضة في بلد سارع (٦) في
المغرب كان يعمل منه الامام شرف الدين عليه السلام، وربما انهدم عليه جبل
على ما وصفه أهل الخبرة

(١) قال ابن دريد واحسب أن بني غصين بطن، قال الزبيدي قلت وهم اليوم بغزة
وشردمة بالرملة منهم الامام المحدث الشيخ عبدالقادر بن غصين الفزي الشافعي ولم يذكره
هل هي بالتشديد أم لا؛

(٢) لعضة القطعة (٣) الكشر الخنز اليايس (٤) يريد أن يقول صاحب كتاب صفة
جزيرة العرب وهو الحمداني

(٥) نهم - بالكسر - ابن عمرو بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن
بكيل أبو بطن من همدان قال الزبيدي صاحب تاج العروس: ومنهم بقية اليوم بصنعاء اليمن
(٦) لم نجد ذكر سارع في تاج العروس وإنما وجدنا فيه ذكر شارع بالمعجمة وقال بلدة
ولم يذكر ابن هي أما الحمداني في «صفة جزيرة العرب» فيذكر سارع الاعلى بمخلاف
شيام مغرب صنعاء

معادن جبل نغم (٢) كثيرة فيه معدن ذهب ومعدن حديد كانت حير تعمل منه السيوف الحيرية التي تسمى البرغشية، صنعت في زمن الملك برغش المشهور، قال صاحب جزيرة العرب: وفيه معادن الجواهر: الزمرد والياقوت والبلور والزجاج والجزع. وفي سهوان (٢) معدن ذهب ومعادن حجارة منها الحجر المريني معدن صرواح (٣) ذهب جيد، وفي بيحان في الجوف (٤) معدن ذهب

(١) (نغم) بضمتين قال في القاموس: نغم بالضم بادة باليمن. قال الزبيدي: قلت قد أجهف المصنف في ضبطها وبيانها إجحافاً كلياً والصواب في ضبطها بضمتين وبفتحتين وكعند - كما صرح به ياقوت. وأما الضم وحده مع تسكين القاف فلم يذكره أحد، قال ياقوت هو جبل مطل على ضماء قرب غمدان قال فيه زياد بن منقذ:

ألا هذا أت يا ضماء من بلد ولا شعوب هوى مني ولا نغم

(٢) قال الهمداني جبل عيان وجبل نغم وما بينهما من حقل ضماء وشعوب ووادي سهوان ووادي السر ومطرة وفيها أودية كثيرة وأورد مثلاً ثانياً: أحلك الأرض مسور (يفتح فسكون) وأخذها بوعر (بضم فضم) وأحور، فأحور (على وزن أفضل) وسهوان لو غطر

(٣) صرواح حصن باليمن ذكره في الناج، وقال ياقوت: والصرواح في اليمن قرب مأرب وأنشد له جملة شواهد من الشعر منها:

أبو ما الذي أهدى السروج بمأرب فآبت إلى صرواح يوماً نواقله
ومنها:

نشأوا على صرواح خمسين حجة ومأرب صافوا ريقها وتربوها

(٤) قال ياقوت عند ذكره لفظة جوف والاماكن المسماة بها. قال أبو زياد الجوف جوف المحورة يبلاد همدان ومراد. وقال الجوف من أرض مراد وأستشهد عليه بشر:

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت
شهدنا بأن الجوف كان لأكمم فزال عنار الأم منها فعمرت
سيمعكم يوم اللقاء فوارس بطن كآفواه انزاد استكرت

وقال الهمداني: الجوف منفق من الأرض بين جبل نهم الشمالي الذي فيه آف أهود وأوين الجنوبي الموصل بهيلان من بعد، وذكر الهمداني أن سكان بيحان مراد

وذكر صاحب كتاب التيجان معادن العجبل الابلق وهو بالقرب من سد مأرب (١)

(١) بهزة ساكنة وكسر الراء، قال ياقوت: هي بلاد الأزد باليمن. وقال السهيلي مأرب اسم قصر كان لهم، وقيل اسم لكل ملك كان يلي سبأ كما ان تيمناً اسم لكل من ولي اليمن والشحر وحضرموت. وروى ياقوت عن المسعودي ان سد مأرب من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب وكان صافله سبعين وادياً، فمات قبل أن يستمه فأذنه ملوك حمير بعده، وقال انه حدثه شيخ فقيه محصل من ناحية شبام كوكبان وكان مستيناً متبافياً بحكي قال له انه شاهد مأرب بعينه وهي بين حضرموت و صنعاء وبينها وبين صنعاء أربعة أيام، وهي قرية ليس بها عامر إلا ثلاث قرى يقال لها الدروب الح، قال، وسأله عن سد مأرب فقال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد ليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فكان الاوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة العسبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالجرف فكانوا اذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا أرادوا، قال عبيد الله بن قيس الرقيات

ياديار الحباب	بين صنعاء ومأرب
جادك السعد غدوة	والثريا بصائب
من صريم كأنما	يرتمي كالقواضب
في اصطفاق ورنه	واعندال المواكب

وأما قصة خراب سد مأرب فتطوية، والمؤرخون على ان قبائل اليمن تفرقت في البلدان من بعده، وهم يقولون ان جرذاناً حمرأ حفرن السد بأنيابها حتى اقتلعت الحجر الذي لا يستقله مائة رجل، ثم أخذت تدفعه بمخالب وجليها الى غير ذلك من الاقاليم. وما أراه إلا خرب من قوة التعاهد وانقطاع الترميم الذي يجب استمراره ائله، وان نهاية الامر انه لما وقع فيه الحرق انهار وغرق ماؤه البلاد وأذهب الكروم والعجنان والحدائق والبساتين والقصور والدور، وجاء السيل بالرمل فطمها وذهب أكثر عمران اليمن وتفرقت عربيه عباديده في الافطار، وقال الاعشى

ففي ذاك للمؤسسي أسوة	ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير	اذا ما نأى ماؤهم لم يرم

كان كل من بني قحطان وحمير وعاد يعرف معادنه، والابلق جبل متصل بالجبال الزرق، وأما قبل له الابلق لانه في ارض سوداء فيها معادن اللجين متصل بالسد وأرض غرباء فيها معادن العتيان، وأرض زرقاء فيها معادن لزرجد والجنجوع، وكان يقال له الباذخ ولأرب الشامخ، فأرب متصل بمجال عرف، والابلق متصل ببحر لوجه

قال الحسن الهمداني: وفي بلد الهان بن زيد بن مالك معادن البقران الجيد وكذلك في جبل أبي أنس^(١) بن الهان بن زيد بن مالك وهو جبل صوران^(٢) الحجر العتيق من العتيق اليماني والبقراني، ويقال إن في بلد يسمى دهم في حد بني قشيب معدن، وفي رأس جبل الشرق معدن فضة. وفي وادي «مونا» بموضع خربة «الساوة» معدن فضة

قال الهمداني في كتاب جزيرة العرب

وفي جبل عشار معادن البقران وهو جيد، وفي جبل هزان^(٣) قبلي مدينة ذمار مع دن الحجارة النفيسة اليمانية من العتيق الاحمر والايض والاصفر ولورد وفي قرية ملص^(٤)

= فأروى الحروث وأغنامها على ساعة ماؤم أن قسم
وطار القيول وفيهم يهيماء فيها سراب يطعم
فكانوا بذلك حقيبة قال بهم جارف منهم

(١) الهمداني لا يقول جبل أبي أس بل جبل أنس بن الهان بن مالك، هكذا في النسخة المطبوعة من «صفة جزيرة العرب» ويبدو ذلك مرة ثانية في صفحة ١٠٥ فيقول جبل أس وفيه معدن البقران

(٢) هذا الجبل المذكور في «صفة جزيرة العرب» لهمداني

(٣) جاء في التاج وهزان بن الحارث الخولاني شهيد فتح مصر ولعل هذا

الجبل منسوب اليه او الى رجل آخر اسمه هزان

(٤) قال في التاج وما من اسم موضع

من مغرب ذمار (١) معادن العقيق اليماني والجواهر النفيسة وذلك مشهور
 معانين . وعما رواه بعض حكاية العقيق من أهل ملص ان في بلد زيد (٢)
 ممدن الزمرد المال وانه لما ظهر هدموا عليه أهل البلاد جبلا خشية أن تعبرهم

«١» قرية باليمن قيل على مرحلتين من صنعاء وقال قوم ذمار اسم صنعاء
 وصنعاء كلمة حبشية اى حصين وثيق قاله الحبش لما تدبوا مع ابرهة ورأوا صنعاء
 ورواها بعضهم بالكمر . وقال ابن دريد بالفتح قيل انه وجد في اساس الكعبة لما
 هدمتها قريش مكتوب بالسند «لن ملك ذمار؟ لحمر الاحياء، لن ملك ذمار؟ للحبشة
 الاشرار . لن ملك ذمار؟ لغارس الاحرار، لن ملك ذمار؟ لغريش التجار، ثم حار
 عماره اى رجح مرجحاً . واما الهمداني فقد قل في « صفة جزيرة العرب » عن
 ذمار ما يلي : مخلاف ذمار قرية جامعة فيها زروع وآبار قرية يال مأوها باليد
 ويسكنها بطون من حمير وانفار من الابناء (قلت : الابناء ابناء الفرس الذين كانوا احتلوا
 اليمن) ورأس مخاليفها بلد عس وساكنته اليوم بعض قبائل عس بن مذحج ، ثم ذكر
 ذمار القرن وقال : قرية قديمة خراب . وقال ان ذمار الحذر غيرها قال واما مخاليف ذمار
 من غربها فهي مصنعة اتيق للمنيين - قبيلة - وجمع والموفدوسرية ووادي القصب لى
 عبد كلال - الى ان يقول ويكن « هذه المواضع من بطون حمير : اوزامي ومغبي وغير ذلك

«٢» من اشهر مدن اليمن بل مدنت العرب ، ذكر السيد مرتضى الزبيدي
 صاحب « تاج العروس من جواهر القاموس » زيد فقال - كبير - بلد باليمن مشهور
 اختطه محمد بن زياد مولى المهدي في زمن الرشيد العباسي إذ بنه الى اليمن فاختر
 هذه البقعة واخطط بها هذه المدينة المباركة وسورها وجعل لها ابواباً ، ثم مات سنة
 ٢٤٥ ثم خلفه ابنه ابراهيم بن زياد واستمر الى سنة ٢٨٩ وخلفه ابنه زياد بن
 ابراهيم ومات سنة ٢٩١ ثم ابنه زياد وهو طفل فتوزر له حنين بن سلامة وهو
 باني السور ، ثم ادار عليها سوراً ثانياً الوزير ابو منصور الفاتكي ثم ادارها سوراً
 ثالثاً سيف الاسلام طغتكين ابن ايوب في سنة ٥٨٩ وهو الذي ركب على السور
 اربعة ابواب ، قال ابن الجاور عدت ابراج مدينة زيد فوجدتها مائة برج وسبعة
 ابراج بين كل برج و برج ثمانون ذراعاً قال وبدخل في كل برج عشرون ذراعاً
 فيكون دور البلد عشرة آلاف ذراع وتسعمائة ذراع وقد تكفل بتفصيل اخبارها =

لقبائل وتسميهم الحكاكين (١) بلاد برط (٢) كثيرة المادن يوجد فيها مادن الرصاص الاسود في مواضع كثيرة صلب صاف جيد ، وفيها مادن ذهب وفضة ، ويوجد فيها مادن المرقيشيا الذهبية والفضية وما شابهها . وفي بلاد صعدة (٣)

= ابن سمرة الجسدي في تاريخ اليمن وكذا صاحب المفيد في تاريخ زيد « اه قلت اتذكر اني قرأت ان احد خطباء الجوامع كان يدعو لاحد الملوك واطنه صلاح الدين الايوبي قائلاً عنه صاحب مصر وصيدها ، واليمن وزبيدها ، والحجاز وعبيدها ، والشام وصاديدها . ولعل قائلاً يقول هذه جربها السجدة قاتول له لا يحسن وقع السجدة الا اذا جاءت في محلها

(١) قلت ما احد سلم من التعبير . وقولهم عن اهل زيد « حكاكون » اهلون من قول بعضهم عن اهل اليمن ، دايع جلد ، وناسج برد ، وسائس قرد ، وراكب عرد ، اي حمار . ولسمري ان دايع الجلود ونسج البرود لما يتنافس فيه اليوم ، وان حبر اليمن لا نظير لها في تسلق الجبال والمتى على الصخور التي قد يزل عنها فلما عز ، عرفها في الطائف جيداً ، ولما صعدنا الى الجبال المسماة بالثقا التي لا تكاد تسلكها الطير لم يكن لنا حيلة بدون هذه الحبر اليمنية

(٢) برط (محركة) من بلاد همدان قال الهمداني جبل برط ساكنه دومة من شاكرين بكيل وزروعه اعقار ، وعلى المساني واهله انجد همدان وحاة العدو ومونة البحار

(٣) قال الهمداني اما حقل صعدة فانه مخزل من بلد همدان ولذلك خبر في كتاب الايام ، ومدينة خولان العظمى صعدة وحدثت قرية الفيل من قرب صعدة وصعدة بلد الدباغ في الجاهلية الجاهلاء (قلت من هنا جاء دايع جلد عن اهل اليمن) وهي في موطن بلد الفرط ربما وقع فيها القرظ من اقب رطل الى خمسمائة بدينار مطوق على وزن الدرهم الثقلة (درهم قفلة بفتح فسكون اي وازن) وقال ياقوت صعدة مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخاً وبينه وبين خيوان ستة عشر فرسخاً قال الحسن بن محمد المهلبى : صعدة مدينة طاهرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد وبها سدابع الأدم وجلود البقر التي للتعالم وهي خصبة كثيرة الخير ، وهي في الاقليم الثاني عرضها ست عشرة درجة وارتفاعها وجميع وجوه ثمان مائة الف دينار

معادن الحديد يدخه أهل البادية تراباً إلى مدينة صعدة وبمخاض فيها ، والكثير منه في بلاد بني جماعة (١) وأجود ما كان من بلاد باقم (٢) معدن الهندوان (٣) والرقيشيا في الشام (أي الشمال) كثير موجود ، وفي قلعة وادي ظهر (٤) معدن حديد ومعدن فضة . قال الهمداني في كتابه هذا : كان بنو يعفر يحملون الفضة من شبام (٥) سحماً إلى صنعاء ، وهي بالقرب من صنعاء على ساعتين قريب من ذي مرمر ، فظاهر قوله أن فيها معدن فضة .

وذكر بعض الفقهاء أنه وجد بجبل صبر (٦) معدن ذهب وعمل منه عملاً إلا أنه كان يقسى عليه ولعله لم يحكم تدبيره

«١» قال الهمداني وادي نجران فروعاً من ثلاثة مواضع من بلد بني خيف من وادعة ومن بلد بني جماعة من خولان ومن بلد شاكر
«٢» ذكر في تاج العروس البقوم قبيلة من الأزد وقال أن واحدم باقم
«٣» لأنهم ما يريد بالهندوان قلعه يختص من الهندوان وهذا منسوب إلى الهند
«٤» أنه منسوب إلى ظهر بطن من حمير
«٥» شبام بكسر أوله هي من همدان من اليمن وجبل همدان باليمن وبه سميت القبيلة المذكورة لنزولهم فيه على مافي تاج العروس وأيضاً بلد تحت جبل كوكبان وأيضاً بلد لبني حبيب عند ذي مرمر والأرجح أن شبام المقصودة هي هذه . والهمداني يقول أن شبام هي أول بلاد حمير وهي مدينة الجميع الكبيرة وبها ثلاثون مسجداً لكنه يذكر أن نصفها خراب خربت بها كندة

«٦» قال ياقوت: صبر - بفتح أوله وكسر ثانيه - بلفظ الصبر من العناقير اسم الحبل الشاخي العظيم المثل على قلعة «تزر» فيه عدة حصون وقرى باليمن وقال ابن أبي الدنيا جبل صبر في بلاد المعافر وسكانه الركب والحواشب من حمير وسكسك

وفي بلاد المعافر (١) من اليمن الاعلى والاسفل مسادن كثيرة إلا انما لم
نظلم على شيء من أخبار مواضعها

١٠ معافر أبو حي من همدان لا ينصرف لانه جاء على مثال ما لا ينصرف من
الجمع واليه تنسب الثياب المعافرية ويقال ثوب معافري فتصرفه لأنك أدخات
عليه ياء النسبة ونسب على الجمع لأن معافر اسم شيء كاتقول لرجل من كلاب كلابي
وجاء في كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني بخلاف المعافر أما الجوة
من عمل المعافر فالرأس فيها والسلطان عليها إلى آل ذي المغاس الهمداني ثم المراني
من ولد عمر ذي المران قيل همدان الذي كتب اليه الرسول ﷺ وأما جبا وأعمالها
وهي كورة المعافر فهي في فجوة بين صبر وجبل ذخر وطريقها في وادي الظبات
ومنها اودية ذخر وباشعة ويسكنها السكالك ورسام ويسكنه الركب وبو مجيد
وجيرة لهم من بني واقد ومن الركب النشورة وملوك المعافر آل الكرقدي من سبأ
الاصفر ينتمون إلى ولادة الايض بن حمال منازلهم بالجبل من قاع جبا، ومن مرب
الجميع من عين تنحدر من رأس جبل صبر غزيرة يقال لها « أف » أخف ماء وأطيه
ويصلح عليه الشعر ويكثر، وأهل المعافر وما والاها يستعملون السكينية في الرأس
وتحس في بلدهم (قات السكينية طرة مذوبة إلى سكينة على وزن جينة وهي بنت
الحسين بن علي رضي الله عنهما شهدت مع أبيها الطيب ولما رجعت إلى المدينة خطبها
أشراف قريش فأبت وترفعت وبعثت تبكي على أبيها حتى ماتت كمد أرضى الله عنها)
ويفضي قاع جبا في المنحدر إلى احدة بلد بني مجيد إلى كثير من قرى المعافر
مثل حرازة وصحارة وعزازة والدمينة ويزداد وماكن هذه الواضع من بطون
حيدر من ولد المعافر بن يعفر اه

(قات) وكات معافر كثيرة العدد في جاية العرب إلى الاندلس وقد جاء أمامي
ذكر « المعافري » كثيراً في كتاب الصلة لابن بشكوال والنكلة لابن الأبار البانسي
وبغية المتلس لابن عميرة وفتح الطيب للمقري وناهيك أن محمد بن أبي عامر الملك
المنصور الشهير الفاتح - المعدود من أعظم رجال الاسلام بل رجال العالم الذي غزا
سناً وخمسين غزوة في الافرنج لم تنكس له في واحدة منها راية - هو معافري ونسبه
محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري
ومهد الملك جده هو الوافد مع طارق بن زياد على الاندلس

ووصف بعض أهل الصناعة في صيغة الفضة انه وجد معدن فضة فوق
مدينة جبلة (١) ومعدن رصاص أسود في الشعب المدني . وذكر أيضاً ان
في جبل بني سبأ (٢) قبلي ضرية (٣) عمرو ، وفي رأس نزيل سارة (٤) مما
يلي بني سيف معدن نحاس وقد أخذ منه وعمل عملاً وهو بالقرب من الطريق
الذي ينزل منها إلى بني سيف ، وفي مكان يسمى حوبر (٥) قفر حاشد (٦)

(١) جبلة (بكسر فسكون) مدينة باليمن تحت جبل صبر وتسمى ذات النهرين
جوهي من أحسن مدن اليمن ، وأزهارها ، وأطيبها . قال عمارة جبلة رجل يهودي كان
يبيع الفخار في الموضع الذي بنت فيه الحرة الصليحية دار العروبة وسميت باسمها .
وكان أول من اختطها عبدالله بن محمد الصايحي . ويقال لها ذو جبلة أيضاً . ويقوت
قال انها مدينة ، وصاحب تاج العروس قال انها قريبة - ولعلها في زمن الزبيدي
أي منذ نحو ٢٠٠ سنة - كانت المحطت الى قرية (٢) بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره -
أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام - على قول ياقوت - سميت سبأ
باسم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان اسم سبأ عامراً وإنما سمي سبأ لأنه أول من
سعى السبي ولما كان سيل العرم تفرق أهل اليمن فقبل ذهاب الأيدي سبأ أي طرائق سبأ ، قاليد
الطريق وهي قيل تفرقوا أيدي سبأ لا ينبغي الهزل لأنه كثير في كلامهم فاستقلوا الهزمة
(٣) الضرية بفتح فكسر وياه مشددة مأخوذة من الضراء وهو ما داراك من شجر
ويقال للأرض المستوية إذا كان فيها شجر ضراء فإن كانت في هبطة فهي غيضة
(٤) النقييل بلغة أهل اليمن العقبة وفي اليمن نقيل بن مخلف جعفر وبين حقل
ذمار وعمل فيه سيف الاسلام عبداً سهل به طلوعه وفي رأسه قلعة تسمى سارة قاله ياقوت
(٥) لم نعرف هل هو حوبر بالمهالة أو حوبر بالمعجمة أو هو مصنف عن حوبر بالياء
أو حوبر أو عن غير ذلك وقد وجدنا حوبر اسم نهر بالحاء المدججة في أرض حاشد
(٦) حاشد هي من همدان يذكر مع بكيل قال الهمداني أما بلد همدان فإنه أخذ
لما بين الغائط وتها من نجد والسراة في شمالي صنعاء ما بين هارين وصعدة من بلد خولان
ابن عمرو بن الحاف بن قضاة وهو منقسم بخط عرضي ما بين صنعاء وصعدة فشرقيه
لبكيل وغريه لحاشد وفي قسم بكيل بلاد حاشد وفي قسم حاشد بلاد لبكيل ثم شرح
الهمداني أناس كل من حاشد وبكيل ومدن القريتين وقراها وأوديتها وأسواقها فن
شاء معرفة ذلك فعليه بطالمة « صفة جزيرة العرب »

حوتمة (١) معدن ذهب، وفي بلاد سماء معدن فضة، وفي وادي حراز (٢) معدن ذهب
وفي ذمار القرن معدن نحاس أحمر جيد، وكذلك اثنان من المعادن في رداع (٣)

(١) حصن من جبال وصاب من عمل زيد ولفظها بضمين

(٢) بالفتح وتخفيف الراء وآخره زاي - مخلاف باليمن قرب زيد سمي باسم
جطل من حمير وهو حراز بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن
قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن العوث بن أيمن ابن الهبيس
ابن حمير ويقال لغربتهم حرازة وبها تسمى الاطباق الحرازية قاله ياقوت في المعجم وذكر
الهمداني أيضا الاطباق الحرازية وربما نقله ياقوت عنه

وأما قول الهمداني عن حراز فهو مايلي: مخلاف حراز وهو وزن سبعة أسباع
أي هبم بلاد: حراز المستحرزة، وهو وزن وكرا وإليها تنسب البقر الكرازية،
وصفان، ومشار، وطاب، ومجبح، وشبام، ويجمع الجميع اسم حراز وهو وزن وهما
بطان من حمير الكبرى وهما ابنا العوث بن سعد بن عوف بن عدي

(٣) ذكر الهمداني رداع في وادي اليمن الشرقي وقال ياقوت: رداع بضم أوله
- وأصله التمس من المرض وقيل وجع الجسد اجمع - هو مخلاف من مخاليف اليمن
وهو مخلاف خولان بين نجد وحمير الذي عليه مصانع رعين وبين نجد مذحج الذي
عليه ريمان وقرن، قال ربه وادي النمل المذكور في القرآن المجيد وخبرني بعض أهل
اليمن انه بكسر الراء . ومنها أحمد بن عيسى الخولاني له ارجوزة في الحج تسمى الرداعية
قلت هذه الارجوزة استوقفا للهمداني في آخر كتابه «صفة جزيرة العرب» أو لها

أول ما أبدأ من مقالتي	قال محمد للنعم ذي الجلال
والمن والآلاء والافضال	والملك والجد الرفيع العالي
عد خليلي كم مضت ليال	من شهر ذي القعدة مع شوال
ثم انم بالكور على شمال	عبيدة او قطم ذبال
قد دق منه موضع الجيالي	تمت نادى القوم بارتحال

قوله «الجد الرفيع العالي» أي العظمة قال في تاج العروس الجدة العظمة وفي التنزيل
«وانه تعالى جد ربنا» قبل جده عظمته وقيل غناه وقال مجاهد جد ربنا جلال =

== ربنا وقال بعضهم عظمة ربنا وهما قريبان على السواء وفي حديث دطاء الاستفتاح في الصلاة « تبارك اسمك وتعالى جدك » اه قال لي السيد جمال الدين الافغاني . تعالى جدك أي سريرك والجده هو مرب « ككد » وهو السرير بالفارسية ولكن غاب عن علمائنا أصلها
تم منها

فتيان صدق من بني أيكا	فانهم أولى بما ينسبك
واسرع القوم لما يرضيك	لاني ما صفيك الذي أصفيك
فاسمع الي قولي إذ أوصيك	أوامراً أضاف ما يولييك
من يره يرغب ويزدد فيك	ثم ادع رباً مالكا مليكاً
فانه أجدر ان يكفيك	وقل صحابي ارنحلوا وشيكاً

وهي نحو ٥٥٠ بيتاً مقسومة إلى مقطوعات كل مقطوعة خمسة أبيات يذكر فيها جميع منازل الحج إلى البيت الحرام برجز ساس مئين بضاية الانسجام ويقول عند الوصول الى البيت

بعقبه في الحرم المحرم	ألتى به يا ناق رحلي واسلمي
في منزل كان لهط الاقدم	ثم عن الحجون لا تلمني
الى جوايبها العظام العظم	ثم اشربي ان شئت او تقدي
منها لردم السؤدد المردم	ردم بني مخزومها الخزم
حتى تناخي عند باب الاعظم	وتشربي رياً بمحوض زمزم

والحمد لله الذي قد انما	سيرنا في ارضه وسلمنا
حتى اتينا بيته المحرماً	منا فعضمناه مع من عظما
ثم هدانا نسكاً وعلمنا	كما هدى قبل ابانا آدمنا
ثم تطوقنا به تحرماً	وسنة يفعلها من اسلمنا
ثم استلمنا وكنه المكرماً	ثم ركنا ووردنا زمزمنا

ويقول في الاقاضة

== حتى اذا ضوه النهار ادبرا وغابت الشمس استطاروا حصراً

واثنان ذهب وحديد في القانع (١) وكذلك معدن في البيضاء (٢) نحاس
وعما وجد في بعض الكتب المكتوم سرها وتركيبها من معادن الاجساد
الترايبية التي بين بيشة وذمار خسة وعشرون موضعاً مشهورة ، ولا يصلح منها

= يدعون ذاللز الذي تحضرا ثم مضى إمامهم وكبرا
اقاضة لم يك فيهم منكرا قد لزموا التودة والتوقرا
حقاً آواجماً وجاءوا المشعرا ثم اناخوا ساهات ضرا
بها يخافون العذاب الاكبرا حتى إذا ضوء الصباح اسفرا

وانحجاب ليل ودنا النهار سار إمام الثامن ثم ساروا
مع كل مره منهم احجار سبع لطاف صنع صفار
ثم مضوا عليهم وقار لجرة من دونها حجار
ثم رموها ولهم كبار وحلقوا وذبحوا وازداروا
يوماً به للبدن مستطار من طول ما يشهدنا الشفار

واخر مقطوعة منها

فالجر لله على احسانه وفضله المعروف وامتنانه
سيرنا ذو اللطف في بلدانه في رزقه الفوق وفي امانه
حتى اتبنا البيت في مكانه ثم قضينا شاتنا من شانه
من طوفه والمسح من اركانه ثم هدانا الله في ضيانه
كلا الى المحبوب من اوطانه مع الذي يأمل من غفرانه

« ١ » لم نعتز على ذكر القانع او هي مصحفه

« ٢ » ذكر ياقوت في المعجم سنة عشر موضعاً بامم البيضاء لكنه لم يذكر

ولا يضاء في اليمن .

إلا ستة : واحد منها بنجران ، الثاني بشرم (١) في مكان يسمى القروات ، الثالث بسحر من نواحي هجرة عريمان (٢) الرابع في بلاد بني شداد (٣) يسمونه كحال ، الخامس بردمان بني النعمري (٤) في سكان يسمى العنقفير ، السادس في جبل الاحزم (٥) في سارع وهو أفضل هذه لكن قد نزل قدر ثمانين ذراعاً (وفي الاصل ثمانون) وصاحب هذه الرسالة لا يقيم النحو كثيراً) وحلف عليه من عرضه وهو رطب لا يحتاج لدواء.

(والثاني) مما يذكر يخرج قاسيه يحتاج إلى مليونات . ثم خرج واحد في

١) ذكر الهمداني شرم هذه وضبطها بفتح فكسر وذلك عند كلامه على أسواق حاشد قال : فأولها وأقدمها سوق عمان ، وهمل (بفتححتين) من الحارث وهي سوق جاهلية . والسكالبج المرانيين من الجبر (بفتححتين) وناري للفائشين من الجبر . وسوق صافر ، وسوق الفاقعة ، وسوق الاهنوم وسوق الظهر ، وسوق قطابة « بضم أوله » والرافقة « بفتح فكسر » اقرس بن قدم « بضم نفتح » عيان سوق قديمة من همدان وادران وحجة . ونعل وقيلاب « بفتح فسكون » وشرم ، و١٣٠ « بضم فتكون » وينذ الخ

٢ « أورد الهمداني ذكر سحر وهجرة

٣ ذكر الهمداني بني شداد وقال إن لهم أودية كثيرة النخل مثل البجاجة

ولحية واللوب والتمكا

٤ ردمان مشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مأرب وهو مخلاف خولان بن

عمرو . وهم خولان العالية الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال « اللهم صل على

السكاسك والسكون وعلى الاملوك املوك ردمان وعلى خولان العالية » وقال

الهمداني مخلاف رداع القرينتان رداع واثا والعروش وبشران « بضم فسكون » وأذنة

« محركة » ورحبتما وبلد ردمان « بفتح فسكون »

٥ جبل الاحزم قال الهمداني انه الجنوبي من جبلي لاعة في غربي صنعاء

قرب سوق (كذا) (١) فوق قرية الطجر (٢) من بلاد الاهنوم (٣) في زمن الامام
شرف الدين عليه السلام وضع منه ولده شمس الدين بن الامام وهو جيد بمائل
الذي في احزم بالصلاح.

وحكي ان في سارع بادية تسمى السواد فيها مكان يسمى بني سعيد فيها
مكان يسمى عدة الزعلا مقابل مكان يسمى المقاتل فيها جنس يفرح القلب
ومما حكي ان جبل شايبه جبل الصلب (٤) في شرقيه لون شمعي والمليح
الذي يناله الشمس. والثاني غربي الجبل مشهور كثير يجدوه (٥) يظهر في فضة مليحة
طيبة. وأما المواضع التي تكثر شهرتها فواحد بجبل الشرق من بلاد انس بمكان
يسمى الركن، والاشهر في اسمه ابو صلاح بن علي، وواحد بمكان يسمى
البونين (٥) مستور، وواحد في اكام بني الاقرعي في مكان يسمى السهر تحت
القدرة لونه عجيب يفرح القلب، وواحد في ملتقى وادي مزهر ووادي صيحان (٦)
يقرب الجود يعرفوه البداوة وبعض المخاددين انتهى

«١» هنا كلمة لم نقدر ان تبينها فوضعنا محلها لفظة كذا

«٢» الذي عثرنا عليه هو ان الحجر في بلد حكم بنها مة فهل هي هذه أو قرية أخرى بهذا
الاسم؟ لانهم فقد ذكر الهمداني أن معنى هجر القرية بلنة حمير والعرب العاربة فيها
هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان وهجر حصبة من خلاف ما ذن
«٣» ورد ذكر الاهنوم في اسواق حاشد وقال الهمداني في محل آخر جبل لاهنوم
من همدان ثم من حاشد بطن من خولان بن عمرو بن الحاف وهو قبيلة «نخلى» من
شماله وعلى وصفه من جبال السراة وهو أحسن وأتلع وأوسع

«٤» نطه الصلب بضم ففتح مشدد أي حجر السن

«٥» قال ياقوت بون مدينة باليمن وزعموا انها ذات البئر المعطلة والتصر المشيد
المذكورين في القرآن العظيم قال وحدثني أبو الربيع سليمان المكي والمفضل بن أبي
الحجاج انها بومان وهما كورتان ذانا قرى البون الاعلى والبون الاسفل. ولا ية قوله
أهل اليمن الا بالفتح وهي مذكورة هنا بالثنية
«٦» وادي صيحان بأرض نجران

عمران جزيرة العرب

﴿ وما يجب على الحكومتين السعودية والامامية من استئذنه ﴾

هذا ما أشرنا ذكره على وجه الاختصار عن معادن جزيرة العرب التي يجب على حكومة الحجاز ونجد من جهة وحكومة اليمن من جهة أخرى ان تبادرا فيها إلى مباحث فنية دقيقة عميقة بدون أن يثبطهما عن ذلك ملاسغات سياسية كالتي تقدم ذكرها . فن هذه الملاحظات غير واردة ، وان استثناف عمران جزيرة العرب متوقف على أمرين

(أحدهما) ترقية أحوال الزراعة باستعمال الآلات الرافعة الحديثة واستنباط المياه وبناء السدود، وحفر الآبار الادر توازية وما أشبه ذلك مما يزيد كمية مياه الري (واثنى) تعدين المعادن التي في الجزيرة واستخراج افلاذ هذه الارض التي طالما كانت تغني الاهالي في الاعصر القديمة ، وما صلح به أول الامر يصلح به آخره

فاذا دأبت الحكومات العربية المستقلة في هذه السبيل من الآن وسارت تدريجاً وجسدت من العرب الآخرين الذين بالشام ومصر والعراق والمغرب وغيرها من يأخذ بأيديها . وذلك لان جميع العرب في الدنيا يهتمون بتقوية الجزيرة العربية وصيانتها واصلاح مورها كما يهتمون ببلدانهم ومساقط رءوسهم ، إن لم نقل زيادة ، لانها هي دار العروبة ، وعمر الأمة الناطقة بالضاد ، والمركز الذي تفرقوا منه إلى سائر البلدان ، والملاجأ الذي يلجأون اليه اذا نبا بهم الدهر ، وأدبل من نند بالجزر . وحسبك أنها هي أيضاً دار الاسلام ومبعث الدين ، ومهوى أفئدة مؤمنين ، وان فيها المثابة التي تخفق عليها قلوب ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة

من العالمين وهي البيت الحرام - حياه الله - مركز الحج ومقصد المسلمين من كل فج .
فلا يوجد مسلم على وجه البسيطة إلا وقلبه مشغوف بهذا البيت وجواره ، مشغول
بنصرة حماه وعمارته .

وقد صادفت كثيرين من مسلمي الامم غير العربية - أذكر الآن منهم
كثيرين من أعيان التتر وفضلائهم لقيتهم في موسكو بعد صلاة الجمعة - فرأيت من
اهتمامهم باسم الجزيرة العربية والحجاز الشريف واحفائهم في الاسئلة عنه ،
وتواجدهم الشديد ، مالا يمكن ان يكون أكثر منه عند العرب أنفسهم

دهض سببه على قابلية الجزيرة للعمران

ومما يذهب اليه بعض الناس أن جزيرة العرب لا يتهاها لأن تكون ذات مستقبل
ياهر ، وان تكون ميدان عمل للعرب ، وذلك لحرارة اقليمها التي تزيد على درجة
الاحتمال ، وتمنع العرب الذين في الديار الشمالية من الدب في اطراف الجزيرة
ولا رأي أعرق من هذا الرأي في لوهم

لو كانت الحرارة تمنع العمل لمنعت الاوربيين الذين تجدهم في الهند والجاوى
ومادغشكر وزنجبار والاوغاندة وموزامبيق ، وبلاد الرأس ، والكونغو ، وغينية
والسنيغال وامريكا الجنوبية وغيرها مما لا يحصى ، وقد صاروا فيها كالجراد
المنتشر ، وعمروا فيها أوطاناً ، وأدركوا أوطاناً ، وهم قتل منا تحملاً للحرارة ،
وآفف منا للبلاد الباردة ، ولكنهم قتلوا حرارة التميظ بالوسائل الفنية ، وبسلة
المياه ، وغرس الاشجار ، وبث الحضرة حول المنازل ، بحيث تجدهم بوسطة الفن
في نعيم مقيم في وسط ذلك السمير

على أن الحرارة الشديدة انما هي في أشهر معدودت من الصيف ، وفي
سواحل الجزيرة وتهايتها التي إن ارتفع الانسان عنها مسافة بضع ساعات في

الجبال رق الهواء وطاب الاقليم ومن هناك كلما ارتفع صار إلى الاهوية اللطيفة والامان التي لا يفضلها في الصيف مكان من المعمور كله

جبال جزيرة العرب أطيب هواء من لبنان وسويسرة

إن في جزيرة العرب سلسلة جبال عالية لا تجد أحسن منها هواء ولا أطيب اقلها لافي جبال لبنان ولا في جبال سويسرة ولا في غيرها

ولاجل أن تعلم ارتفاع هذه الجبال أريد أن أذكر لك علو بعض المدن والقرى العربية عن سطح البحر مما أمكنني الاطلاع عليه في كتب من تأليف ضياع من أركان حرب الجيش التركي أطالوا الاقامة باليمن وكتبوا عنه

فالطائف تعلو نحو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر على حين عين صوفر أبداع مصيف في لبنان لاتعلو أكثر من ١٠٥٠ ولا يوجد في جبل لبنان مكان مسكون يعلو عن سطح البحر أكثر من ١٥٠٠ متر

وان علو « ابها » - مركز حكومة عسير - عن سطح البحر ٢٢٧٥ مترا وأعلا منها « سوغا » فهي تعلو ٢٣٦٠ مترا . وهناك بلدة غامد وعلوها ٢١١٠ أمتار . ومجائل وعلوها ١٦١٠ أمتار

ثم ن صنعاء لمبن تعلو عن سطح البحر ٢٣٤٢ متراً . وجبل نقم - الذي تقدم ذكره - بعلو ٢٩٤٢ متراً، وكوكبان ٣٠٠١ متر، وتغز ١٣٤٧ متراً وعمران ٢٣٠٢ وصعدة ٢٢١٦ والروضة ٢٣٠٦ وتالا ٢٨٦١ وذمرصر - تقدم ذكرها في بحث انعامن - ٢٦٩٨ وشبم - تقدم ذكرها أيضا - ٢٦٣٥ وذمار ٢٠١٠ وبيوسر ٢٩٣٦ وسوق الخيس ٢٣٧٢ ومناخه ٢٢٢١

ورفعات مثل هذه مهما يكن من وجودها في منطقة جنوبية . . . أن تكون المثل الاعلا في رقة الهواء وطيب المناخ، والملائمة للصحة . . .

هي عندي أوتاد البيت العربي لافي منعها الطبيعية ومواقفها الحربية فحسب، بل في بنيتها الصحية، ونقاوتها الجوية، إذ ذلك من أعظم العوامل التي تعتمد عليها الأُسرة العربية في صيانة نفسها

وهذه السلسلة الجبلية العالية ممتدة من بلاد الشام، ومن أهم أقسامها وأطرافها نجمة جبال الشراة التي كانت معمورة جداً في صدر الاسلام، والتي لها مستقبل كبير للعرب ومستأنف باهر لو خلصت من أيدي الإنكاز

ولقد أقت بقصة معان شيع شهر في نشاء الحرب العامة سنة ١٩١٥ إذ كنت ذاهباً ومعى ١٢٠ مجاهداً من جماعتي إلى حرب الترة منضمّاً إلى الجيش العربي الحجازي الذي كان يقوده وهيب باشا، وسرنا من معان هبوطاً مستمراً إلى قلعة النخل في صحراء التيه. ولقد قطعت في تلك الرحلة جانباً من جبال الشراة وعرفت أي جبال هي وأي نجمة طيبة هنالك

ومن حول وادي القرى في الحجاز جبل وأودية وعميون تقدم الكلام على شيء منها، وفي جهات المدينة المنورة جبل رضوى الكبير، قل أبو زيد وقرب ينبع جبل رضوى، وهو جبل منيف ذو شعب وودية، ورأسه من ينبع أخضر، وأخبرني من عرف في تيمم فيه مياه كثيرة وأشجاراً، ومن رضوى يقطع حجر أسن ويحمن إلى التيمم كذا، هل النبي ﷺ «رضوى رضي الله عنه، وقدس قدسه الله [قدس بضم فسكون جبل بتلك الرحلة] وأحد بحبه ربه» (١)

(١) ابن سعد في الحديث، في الصحيحين وأما رضوى وقدس فلا يصح فهما ما ذكره، وإنما المراد بحب أحد النبي ﷺ حب الله وهو الانصار رضي الله عنهم، يجوز بعضهم على الحقيقة بمعنى شيء وإنما قوله ﷺ «رضوى» يجوز أن يكون بمعنى جبل أو مدينة أو قرية، فلو كان من جبالها

من إلى الديار ديار إلى
حب الديار شغفن قلبي
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
واكن حب من سكن الديارا

قلت وحدثنا من يعرفون رضوى أنه مصيف كأحسن ما يوجد من مصايف الشام ماء وهواء ، وهو على مقربة من المدينة ومن ينبع وعلى ليلتين من البحر فلا يلزم لرضوى إلا تعبيد طريق تسير عليها السيارات ليعمر وتسكنه الناس وتقصده في أيام القيظ

وقال الهمداني : الجبال المشهورة عند العرب المذكورة في أشعارها : أجا وسلمى جبلاطي ، وابان (بفتح أوله) وتعار (بفتح أوله) وابن (بضم فسكون) وقدس ورضوى وعروان ويسوم وحراء وثبير والعارض وقنان « بفتح أوله » وافرع (على وزن افعل) والنير (بكسر النون) وعسيب ويذبل والمجيمر ولبنان واللحام ومن أزه الجبال في الجزيرة : أجا وسلمى جبلاطي . قيل ان أجا اسم رجل وسلمى اسم امرأة ، وقيل أجا علم مرتجل وقيل بل منقول معناه الفرار ، يقال أجا الرجل إذا فر

قل الزمخشري : أجا وسلمى جبلان عن يسار السمراء وقد رأيتهما شاهقان ونقل ياقوت عن أبي عبيد السكوني : أجا أحد جبلي طيء وهو غربي فيد . وبينهما مسير ليلتين وفيه فرى كثيرة . قال ومنازل طيء في الجبلين عشر ليال من دون فيد إلى قصى أجا إلى القريبات من ناحية الشام . وبين المدينة والجبلين على غير العادة ثلاث مراحل . قل امرؤ القيس :

أبت أجا أن تسل العام جارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
أى أبت أهل أجا ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، مثل قالت
انكثرة لفرنسة كذا ، واحتجت ألمانية على كذا ، وعقدت أمريكا معاهدة
كذا الخ . وقال عارق الطائي :

ومن أجا حولي رعان كأنها قنابل خيل من كيت ومن ورد
وقل الميزار بن لاخلش الطائي :

ألا حي رسم الدار أصبح بالياً وحي وإن شاب القذال الغوانيا
تحمّلن من سلمى فوجهن بالضحي إلى أجاً يقطنن بيذا مهاوياً
وقال زيد بن مهلهل الطائي :

جلبنا الخيل من أجاً وسلمى تحب نزائماً خبب الركاب
جلبنا كل طرف أعوجي وسلهبة كخافية الغراب

وكن يحدّثني عن هذين الجبلين وما فيهما من الريف والخصب والوادية
والميون الاخ رشيد باشا النجمي الذي كان معتمداً لابن رشيد في الاستانة العلية
أيام السلطنة العثمانية . وسمعت أخبارهما من نجديين آخرين ، وطالما تمنيت لو
أمكنتني الرحلة إلى نجد والتزّه فيهما

والسلسلة الجبلية من الحجاز الى اليمن متصلة ، وعن يمين الذهاب من الشام
إلى مكة التهايم الواصلة الى سيف البحر الاحمر ، وعن اليسار بلاد نجد وهي من
أطيب البلدان نجمة وأصفها هواء يضرب امثل بجودة هوائهم فيقل بلاد
نجدية الهواء (١)

وإذا سار الراكب من الطائف إلى صنعاء اليمن ، يصل إليها الا في مسيرة
شهر كما في الجبال العالية ، والاهوية اللطيفة ، والمناظر البديعة ، والمناهل العذبة ،

(١) للشعراء من المسدح هواء نجد والحنين الى صبا نجد ما يكاد يفوق نسيمهم
وتشبيهم بغواني الحسان ، ولعل أمير البيان لو تذكر هذا هنا لروي لنا من
محفوظه الواسع من الشعر الرائح ، هو اشد تشويقاً للجزيرة العرب من سرد اسماء
المواقع ، فان ذكر تلك الصبا ، يكاد يكون ارق من ذكرى أيام الصبا ، وحيي في
هذه الحواشي التي اكتبها باذن الامير لتكون ذكرى لاخائنا الذي لا يلزبه نظير ،
قول الشاعر الشهير

خذنا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رباها يطير بلبه
وإيا كما ذلك النسيم فانه اذا هب كان الوجد أيمر خطبه

ما شاهدنا من الاماكن التزهة بحوار الطائف

وأما ما يسرني مشاهدته من الاماكن التزهة بجوار الطائف فهو وادي محرم أي قرن المنازل الذي ينتهي إلى وادي السيل ، ومنه بحرم الحجاج الذين هم آتون من الشرق ، ولا يبعد وادي محرم عن الطائف أكثر من ساعة ونصف وهو على طريق الكرا ، وهو واد يجف في الصيف إلا أن البساتين منتظمة بجانبه على مسافة ثلاث أو أربع ساعات ، تشرب بالسواني وفيها من جميع أصناف الفواكه وألذها ، ولم أصادف عنباً أشهى ولا أكبر حجماً من عنب وادي محرم . ومن هذا الوادي يصعد الانسان إلى الهدة مرتقياً العقبة المسماة « الكرا الصغير » وسمت علوها بثلاثمائة متر ومرتهاها صعب

وقد كان الواجب على الحكومة وعلى أهالي القرى الكثيرة المجاورة ولاسيما وادي محرم أن يصلحوا هذا المرتقى الذي يترجل فيه كل الركبان من وسط العقبة . وإذا وصل الانسان إلى سطح الجبل وجد يفاعاً منبسطة ينشرح له الصدر ، وشاهد جنانا ناضرة تشرب بالسواني أيضاً يقال لها بستان المغربي وبستان البني وغيرهما . ولقد بتنا ليلتين بوادي محرم ، وليلة واحدة في بستان المغربي ضيوفاً على صاحب البستان وهو مغربي تونسي الاصل أبوه جاء الى هذا المكان وتمكن به . وهناك جبل عال جداً ربما يعلو ٢٥٠ متراً عن البساتين يقال له جبل الهندي وهو نقيء من الارض صعداً أشبه بالثندة وكان في إحدى ذراه حصن بقيت فيه مدافع وجنود إلى آخر أيام الملك حسين ، وقد طلعتنا هذا الجبل إلى قته فظهر لنا جانب كبير من الحجاز وبدت لنا خضرة ونضرة وأودية لا يأخذها الاحصاء ، وكان منظرًا يبهر العقول

وبإزاء هذا الجبل جبل آخر أقل منه ارتفاعاً اسمه « جبل الكمل » بمحذائه قرية بل قرى وبساتين تسقيها النواضح . ومن الكمل الى قرية الهدة مسيرة

فصف ساعة لاغير ، والهدة قرية من أشهر قرى الحجاز تعلو ١٧٦٠ متراً عن سطح البحر ، وفيها جتان ومنازه وبعض مصايف لاهل مكة ، ولها منظر على وادي نعمان لا مثيل له في بلاد العرب لان الناظر يشرف منها على شفير الوادي المسمى « الكرا الكبير » ذي العقبة الشهيرة التي تأخذ ثلاث ساعات على الصاعد وهي من الوقوف في مثل الحائط ، واذا أشرف الراي على حافة هذا الشفير لم يكن أمامه العمق الهائل قط ، بل العمق الهائل والمعرض المدهش ، فليتنظر هناك حد ليس له حد

وتكتب « الهدة » بتشديد الدال لكن غلب عليها التخفيف ، وقد ذكرها ياقوت في المعجم وقال انها مكان بين مكة والطائف فيه القروء (١) قلت والقروء توجد في جبل الكمل الذي فوق الهدة وتقدم ذكره وتكثر في بعض جبال الحجاز ولكنها في جبال اليمن أكثر جداً ومن كثرة ما توصف اليمن بالقردة صار الذين يريدون أن يتدروا على أهل اليمن يقولون ان أبهم قرد .

روى ياقوت ان زياد بن عبيد الله الحارثي خال الخليفة أبي العباس السفاح اجتمع بآبن هبيرة الفزاري - وكان الاول يمانيا وكان الثاني قيسيا - فقال ابن

(١) اقتصر الأمير هنا على هذا خلافا لعادته في الاستقصاء وقد ذكر ياقوت في حرف الهاء ثلاثة مواضع (١) الهدى المقصور قال (الهدى) بالفتح منقول عن انفصل الماضي من هدى يهدي اذا ارشد - موضع في نواحي الطائف (٢) (الهدة) بالفتح ثم التشديد وهو الحسفة في الارض ، والهد الهدم - وهو موضع بين مكة والطائف والنسبة اليه هدي ، وهو موضع القروء وقد خفف بعضهم داله (٣) الهدة بتشفيف الدال من الهدى او الهدى بزيادة هاء - بأعلى مر الظهران بمدرة أهل مكة ، والمدرطين ايض يحمل منها الى مكة تأكله النساء ويدق ويضاف اليه الاذخر يفسلون به ايديهم اه وذكر هذه في التاج وزاد ان بعضهم يزيد فيهم ألف فيقول الهداة . اقول ولم أسمع من نطق أهل مكة الا (الهدى) بالفتح والتقصير

هبيرة لزياد : ممن الرجل ؟ فقال زياد : من اليمن . فقال ابن هبيرة : فاخبرني عنها . فقال زياد : اما جبالها فكروم وورس ، واما سهولها فبر وشعير وذرة . فتغير وجه ابن هبيرة وقال : او ليس ابو اليمن القرد ؟ فقال زياد : انما يكنى القرد بولده وهو ابو قيس فيوجب أن يكون ابا قيس عيلان ، قاصفرون ابن هبيرة من هذا الجواب

فمن هنا يظهر ان مذهب داروين كان ملحوظا في القابرين ، وكان خاطر ابوة القرد لابن آدم وارداً ، الا ان ما كان يقال في الماضي مزاحا صار اليوم جدّاً بحثاً وحقيقة علمية . اقول حقيقة علمية بحسب رأي بعضهم ، والا فليس بصحيح ان الجمهور كلهم في اورية تلقوا هذا الرأي بالتسليم ، بل العلماء في اورية لا يزالون فيه مختلفين . وقد كثر في السنين الاخيرة العلماء القائلون بنقضه ، والا كثرون على عدم الجزم لعدم كفاية دلائله ، ولو قررة نواقضه ونواقصه ، ومن العلماء من يقف موقفاً وسطاً في النظرية الداروينية فيحكم بصحة بعضها ويرد البعض الآخر مما ليس هنا موضعه

ناحية الشفا من جبال الطائف

ومن أنزه الجبال التي عهدتها في حياتي وأبدعها مصيغاً وأطيبها نجمة وأناقها اقلاماً الناحية التي يقال لها « الشفا » (بفتح أوله) وهي جبال المسكون منها يعلو عن الطائف نحو ألف متر وربما أكثر . وسكان هذه الناحية السفائية من ثقيف ولا تبعد عن الطائف أكثر من أربع أو خمس ساعات بالسير المعتدل قصدنا اليها من الوهط والوهيط في رقعة من اخواننا الدكتور محمود بك حدي رئيس الصحية الحجازية ، وفؤاد بك حمزة مستشار الخارجية ، وفوزي بك القاوقجي قائد القوة النظامية الحجازية ، والسيد الطيب الهزاز من رجال المعية الملوكية ، ورشدي بك ماحس محرر جريدة « أم القرى » فبقنا ليلة في الوهط

وليلة في الوهيط، ثم أصبحنا تصدين شرقاً صاعدين إليها في عقاب، فلبناها بمد
مسير ساعتين من الوهيط، ومررنا في طريقنا بخرابة ذات جبانة متسعة يستدل
منها على أن القرية كانت ذات شان. وفي تلك الاودية سدر كثير وطلح وأشجار
غيرها، وفي الجبال عرعر كثير.

وأما شرقاً ففي واد لطيف عن جانبيه البساتين تسقيها النواعير أو السواني
وهي حارتان : شرقاً العليا وشرقاً السفلى . وقد كان نزولنا عند مختار شرقاً
السفلى ، وشعرنا من النشاط ورقة الهواء في تنقرا ما لم نعهده لا في الطائف ولا
في مكان آخر . ولغة أهل تلك الديار فصيحة ، سمعتم يقولون : خصر الماء ،
أي برد ، فخطر بيالي قول شاعر قريش في الحجاز عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً ما إذا الشمس عارضت فيضغى وأما بالمشي فيخصر

ومن شرقاً صعدنا عقاباً أوعر وأعلى من التي توقلنا فيها بين الوهيط وشرقاً
ثم انحدرنا من رأس العقبة الى واد هو مبدأ وادي لبة الشهر . وكنا كما تقدمنا
في السير رأينا الحراج تزداد ولا سيما العرعر والمغص . ومن ذلك الوادي عدنا
الى التصيد فوصلنا الى قرية صغيرة اسمها (مسيبر) فبقنا فيها وشمسنا هواءاً عاصراً ،
وشربنا ماءً خاصراً^(١) وشاهدنا منظرنا ناصراً

قرية الفرع وموقعها من أفضل مصايف الدنيا

ومن مسيبر تسلقنا في عقبة أوعر من كل ما مضى أخذت أكثر من ساعة
ونصف أفضنا في منهاها الى بضع أفيج عليه قرية كبيرة متفرقة الحرات سمها
(الفرع) هي من أعلى العمود في جبال الحجاز ، ومعنى الفرع في اللغة أعلى الشيء

(١) خصر الماء وغيره فهو خصر (كتب فهو تعب) أي برد

ومن عجاسن هذه القرية انها مع علوها - ولا أقله أقل من ٢٥٠٠ متر عن سطح البحر - واقعة في بسيط من الارض تحيط به الهضاب الخضراء المغطاة بالحراج من الارز والعرعر، وهذا البسيط المطمئن في الوسط منه ما هو مزارع للحبوب ومنه ما هو مياقل للخضر ومنه ما هو جنان للفواكه، وكل ما ينبت هناك يأتي بنهاية الزكاء والفكاهة، والجنان تسقى بالسواني والماء غزير

ولما صرت في الفرع تمنيت أن يكون لي هناك مصيف، ورجحته على أي مصيف آخر حتى على عين صوفر التي هي أنزه مصايف جبل لبنان مع كثرتها والتي قضيت مدة شبابي أقيظ بها، ولي فيها الاراضي الواسعة والعقارات، نعم لم أجد أعلى ولا أهدأ ولا أعزل من الفرع

وإلى الغرب من الفرع على مسافة ٢٠ دقيقة فقط شفير عال يشرف منه الانسان على واد عميق قد حزرت انحطاطه عن الفرع بنحو ألف متر، وقد ذكر لي أهل الفرع انهم في فصل الشتاء ينحدرون من الفرع الى هذا الوادي بمواشيم ويشتون فيه ولا يبقى في القرية سوى بعض الحرامس

وأمام هذا الوادي الى جهة الغرب - أي إلى البحر - جبل عال أيضاً لكنه ليس بعلو جبل الفرع، ووراء هذا الجبل أودية أخرى ثم جبال أقل ارتفاعاً وهكذا الى أن تصل الى البحر بين جدة والليث، وقد سألتهم: كم مرحلة من الفرع إلى جدة؟ فقالوا انهم يصلون الى جدة في ٨ أيام بسير البعير

والى الجنوب الغربي من الفرع جبل متصل بالفرع له قمة شاهقة تعلو نحو من ثلاثمائة متر عن أرض القرية يشرف منها الانسان على البحر الاحمر، وقد حدثني صديقي الشيخ عبد القادر الشيباني انه رأى بناظوره من تلك القمة المراكب الشراعية ماخرة في بحر الليث، وشعفت الجبال هناك كلها شاهقة في السماء أينما وقف فيها، الروائي رأى منظرًا عجيباً

وإلى الشرق الشمالي من الفرع قرية يقال لها «الشرف» (محرّكة) هي على
حساواة الفرع؛ ولم يقدر لنا الذهاب إلى هذه القرية وما جاورها من القرى التي
هي في جبال هذيل . وجبال هذيل ممتدة من هناك إلى تهامة أي إلى ساحل البحر
قال الهمداني في (صفة جزيرة العرب)

« منازل هذيل عُرّة (بوزن همزة لمزة) وعرفة وبطن نعمان^(١) ونخلة^(٢)
حورجيل وككب^(٣) (بفتح فسكون مرتين) والبوابة^(٤) (بفتح فسكون) وأوطاس^(٥)»

«١» عرنة واد بحذاء عرفات وعرفة وبطن نعمان تقدم ذكرهما من الاصل
«٢» نخلة وأديان لهذيل الشامية واليمانية على ليلتين من مكة يجتمعان بين
مر وسبوحة والوادي الشامي يصب من الضمير واليماني من قرن المنازل من الاصل
«٣» هما ككبكان احدهما من ناحية الصفراء وهو نقب يطلعك على بدر
والاخر يطلعك على المرج وهو نقب لهذيل . قاله ياقوت اه من الاصل
«٤» قال ياقوت : البوابة صحراء بارض تهامة اذا خرجت من اعالي وادي
النخلة اليمانية وهي من بلاد بنى سعد بن بكر من هوازن . قال رجل من مزينة
خيلى بالبوابة عوجاً فلا ارى بها منزلاً الا جديب المقيد
نذق برد نجد بعد ما لعبت بنا تهامة في حمامها التوقد
فكلامه يختلف عن كلام الهمداني الذي يجمعها من بلاد هذيل . ولعل منها ما
هو لهوازن ومنها ما هو لهذيل

«٥» اما اوطاس فيقول ياقوت انها في ديار هوازن وبها كانت غزوة حنين وبها قال
النبي ﷺ «حي الوطيس» فارسلها مثلاً قال ابن شبيب الفهر من ذات عرق الى
اوطاس واوطاس على نفس الطريق ونجد من حد اوطاس الى الفريين ولما نزل
المشركون باوطاس قال دريد بن الصمة - وكان مع هوازن شيخاً كبيراً - بأى واد
انتم؟ قالوا باوطاس، قال نعم بجبال الخيل، لاحزن ضرس، ولا سهل دهن، وقال
=

فاجد بن فارس في اماليه

(بفتح فسكون) وعروان^(١) (بفتح فسكون)

(قلت) ان جبل الفرخ وجبل الشرف وجميع الشعاف والشناخيب التي هناك هي داخلة تحت اسم عروان . وقد سألت الاهالي عن درجة البرد في الشتاء والربيع في تلك الجبال الشاخحة فقالوا: ان الماء يجمد فيها دائماً ، ولكنه لا ينزل

= يادار اقوت باوطاس وغيرها من بعد أهولها الامطار والمور
كم ذالاهلك من دهر ومن حجج واين حل الدمى والكنس الحور
ردي الجواب على حران مكثب سهاده مطلق والنوم مأسور
فلم تبين لنا الاطلال من خبر وقد تجلي العمايات الاخابير

«١» واما عروان فقد جاء في المعجم انه جبل بمكة وهو الجبل الذي في ذروته الطائف وتسكنه قبائل هذيل وليس بالحجاز موضع اعلى من هذا الجبل ولذلك اعتدل هواء الطائف وقيل ان الماء يجمد فيه وليس في الحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى عروان قال ابو صخر الهذلي

فألحن محبوبا كأن نشاصه مناكب من عروان يبض الهازب
المحبوك الممتلىء من السحاب ونشاصه سحابه

(فات) مراده بقوله في ذروته الطائف : بلاد الطائف كلها لأن جميع هذه الجبال يطلق عليها اسم الطائف . واما الماء فيجمد في اكثر هذه الجبال واحياً في نفس نصابة الطائف . واما ما يرى من الاختلاف بين قول الهمداني وياقوت — والهمداني عاش قبل ياقوت بثلاثمائة سنة — بقول هذا ان ديار كذا لهذيل وقول ذلك انها هوازن، فلعل السبب فيه تميز الايام، والهمداني نفسه يقول بمد ان ذكر منازل هذيل ان بني سعد اخرجوهم منها في وقته ذلك بمونة عبيد بن شاخ سلطان مكة . ثم يقول الهمداني ان عروان امنع الحجاز واكثرها صيداً وعسلاً من الاصل

بيها الثلج المعروف ببلاذنا الشامية (١) وذكروا انه ينزل عندهم صقيع أبيض يجدونه
صباحاً قد غطى الارض

لغة ثقيف وهذيل في هذا العهد

وأما عربية الاهالي ثقيف وهذيل فنتية ، وكيف لا وثقيف مضرب المثل
بفصاحتهم يقال : شاعر ثقيفي ، ويقال مثل آخر : أكثر من شمراء هذيل ، وكان عمر
يقول : لا يبلي مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف ، وكان عثمان يقول عند جمع القرآن :
اجعلوا المعلي من هذيل والكاتب من ثقيف

ومررت بسانية في الفرع يدبرها شاب لا يتجاوز العشرين فأخذت أحادثه
وأسأله عن الفرع فقال لي : سقى الله الفرع فيها من فضول الله ما لا يحصى . أعجبتني
جداً كلاماً ، وقوله «سقى الله الفرع» هذه العبارة الشعرية ثم قوله : فضول الله . ولو
كلن من أهل بلادنا الشامية لقال : افضال الله . جمع فصلا على افضال وهو خطأ
وصوابه فضول كما قال الشاب الفرعي اثتفي . وحسبك أن دبائنا وقعوا في هذا
الخطأ فضلاً عن عوامنا ، وانتقد احمد فارس الشدياق على ناصيف اليزجي
— وكلاهما من مخاخر سوربة — قوله

مضى يجمع الافضال وهي عبيدة

ولكن عند ثقيف وهذيل لغة لم أقرأ عنها في كتاب ولا سمعت بها في مجلس
وهي أن يتلفظوا بالضاد والنظاء كاللام المفخمة فيقولون مثلاً : الليف ، في الضيف
وصلاة اللهر ، في صلاة الظهر ، وقرية الليق في قرية الضيق ، وهله جر
وقد لحظت أنا ذلك ولحظه جميع الرفق وقضينا من هذه لغة اعجب ، ولم

(١) السبب في ذلك ان بلاد الشام يكثُر فيها بخار الماء المتصاعد من البحر
والانهار وجبال الطائف بعيدة عن البحر وليس فيها انهار كأنهار اشام

تسمع هذه اللفظة في بلدة الطائف ، ولا في وادي محرم ، ولا في الهدية ، ولا في وادي لية ، وإنما سمعناها من الوهيط فصاعداً أي في الشفا عند هذيل ، وهذا الحى من ثقيف

ولما كنت في الصيف الفاتت في الأندلس سمعتهم يقولون في كل بلدة «الرابال» . يعنون به ضاحية البلدة فأردت أن أعرف مأخذها فقرأت في كتبهم اللغوية أنها لفظة عربية محرفة عن «الربض» ففكرت حينئذ في قلب الضاد لاما عند هذيل ومن جاورهم من ثقيف ، وقلت من يدري ؟ فلعل أول من تلفظ «بالربض» هناك تلفظ بها باللام (١) فقد كان في غزاة الأندلس كثير من هذيل وثقيف

وبتنا ليلة واحدة في الفرع ، ولكن لم تقدر أن ننام إلا بعد أن أشعلوا النار في الموقد وأكبروها وبعد أن التحفا أسمك الاغطية وكنا في صلاتي العرب والعشاء نتوضأ بالماء الساخن ، وجلسنا بعد الظهر

(١) مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة فهو بينها وبين مخرج الغاء فهذا تشبه الضاد تارة بالطاء في نطق أكثر العرب الى عهدنا هذا وتارة باللام المفخمة في نطق هؤلاء الهذليين والثقفين ، ومثل هذا الاشتباه يكثر في النطق ولا سيما نطق الذي يسجل بالكلام فيتلقاه بعض السامعين محرفاً فيصير التعريف أصلاً متبعاً

وذكر علماء اللغة أنه سمع إبدال اللام من الضاد فقالوا الضجع أي اضطجع كعكسه في قولهم رجل جضد أي جلد . وبعد كتابة ما ندمت راجعت مادة ضجع في التاج فإذا هو يقول قال الأنازي أن بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول «الطجع» ويبدل مكان الضاد اقرب الحروف إليها وهي اللام زاد في اللسان وهو شاذ وقال الأزهري وربما أبدلوا اللام ضادا كما أبدلوا الضاد لاما قال بعضهم الطراد واضطراد لطراد الخيل اهـ وأورد شاهد الكلمة الطجع

على سطح بيت فلما كان عند أذان العصر شعرنا بالبرد ودخلنا إلى الداخل وكان
ميتنا في الفرع ليلة ٢٢ أغسطس أي في إبان الفيض ، فاذا كان هذا في الصيف فما
ظنك بالربيع والشتاء والخريف ؟

تم أمهدرنا من الفرع إلى واد لطيف ملآن بالشجر اسمه « الضيق » (بفتح
أوله) أو على رأيهم « الليق » بتعظيم اللام ، وتناولنا الغداء في قرية بهذا الوادي
ثم انتهينا إلى الوادي الذي ذكرنا أنه مبدأ لمياه وادي لية وصعدنا منه عقبة أنفضنا
منها إلى أراض منبسطة جيدة للزراع وفيها السواني والبساتين والقرى ، وأبنية
جميع القرى هناك وفي جميع جبال الحجاز كلها بالحجر وبعاية اثنتان ، ومنها ما يخاله
الإنسان أبراجا وحصونا ، وفي كل قرية أو دسكرة برج للحصار مستدير الشكل
عال متين البناء معمم الرأس بمدماك من الحجارة البيض

وكانوا في أثناء غزوات بعضهم لبعض والوقائع التي تحصل بينهم ذاهجت
القرية قوة تنوق قوة أهلها لجوا إلى هذا البرج وتتصممو به ، ووجه يرمون
بالمدق من أعلاه

أما اليوم فقد مضى كل هذا وإنما سرت يقولون لك ذلك قول بني روية
من قبل وهو : إن الأمن في زمن من سعادتهم تخيلا تماما على جميع بلادهم
الدماء والآثار كلها انقضت ، وصار الجميع يسرون في كل مكان بدون سلاح ،
وقبل إلا إن لاودية التي سكنها ، والمروع التي فرغها ، لم يكن أحد في الضي
ليسلكها إلا برصاة من سكان السلاح . ون حكومة في أيام الأتراك لم تكن ولا
مرة إلى الزرع والشف ، ولا قدر أحد من الترك أن يفتك بالرض ،

كسرهم من قرية يقول له « الآمت » (بفتح فسكون هي ذاتي
قرى الشفا إلى مدينة الحائف لا تعد عن أكثر من ثلاث ساعات وقد كان مدينته
بتلك القرية وهي قرية في واد تشرف عليه حروف جبال كثيرة الصخور والجندل .

والأمت بالعربي معناه المسكن المرتفع ، ومعناه الروابي الصغار ، ومعناه مسابيل
الوادية ، ومعناه الوهدة بين نشزيرين ، ومعناه الانخفاض والارتفاع ، ومنه قوله
تعالى (لا ترى فيها جوعاً ولا أمتاً) أي لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . وأصح معنى
ينطبق على الامت الذي نحن في صددده « مسابيل الوادية » او « الوهدة بين
نشزيرين » لان القرية هي في مسيل واد وهي منخفضة بين نشزيرين ، ويجوز أن
يكون من باب الانخفاض والارتفاع لاننا هبطناها بمقبة ثم بعد أن وصلنا اليها
وجدنا عقبة ثانية على مقربة منها إلى ناحية الطائف

ومن « الامت » إلى الطائف مررنا بواد كانت فيه سدود عدملية قديمة
تجري منها المياه باقية منحوتة في الصخر إلى بستين خاوية الآن على عروشها .
ثم اننا ملنا إلى بستان اسمه بستان القصر في نفس هذا الوادي عليه سانية غزيرة
الماء تخص رجلا من القبيلة التي يقال لها قريش فتناولنا فيها الطعام وبعد القيلولة
ركبنا عائدين إلى الطائف

وأقول بالاختصار ان مسافة الانتقال من حرارة مكة بالصيف الى برودة
الشفاء التي وصفناها للقاريء لا تزيد اليوم على نهار واحد ، فمن مكة الى الطائف
بالسيارة الكهربائية خمس ساعات (١) ومن الطائف الى الفرع خمس الى ست ساعات ،
ولو كان للشفاء طرق معبدة لكان المصطاف يركب السيارة من مكة صباحا
فيكون في الفرع وقت أذان العصر

(١) بلغنا في العام الماضي انهم وجدوا او عبدوا طريقا آخر يقطع في ثلاث
ساعات او اقل

سكان الطائف وما حولها

أما سكان الطائف فهم شتى شياطين من عرب من ثقيف وعتيبة وغيرها
ومن ترك وهنود وأجناس أخرى

وأما اقليم الطائف فسكان وادي لية من أوسط الوادي الى أسفل الزوران
فخذ من عتبية أي هوازن، ومن وسط الوادي الى أعلاه العمور وهم أشراف تقدم
ذكرهم ، وأما الذين هم بأهل الوادي - ونزلنا عندهم لما ذهبنا الى وادي لية - فهم
عوف بطن من حرب ، حرب من بني هلال

وأما ركة الشهيرة التي تقع الى الشرق الشمالي من الطائف ففيها عدة أفاذ
من عتبية أهمها : العصماء ، الشيايين ، الروقة ، القطاء ، الجمدة ، الودانين ،
السوطة ، العارة ، القثمة ، الثبته

وأما وادي محرم فعلموه ثقيف ووسطه النمرور وأسفله الى وادي السيل طويرقي
وأما الهدة فأهل وادي الاعمق الذراوة ، والزنان ، وآل أبي شنب ، والمه الوه ،
وكاهم من ثقيف .

ونفس قرية الهدة فيها الفشامرة والقصران وبنو صخر ومرجهم أيضاً الى ثقيف
والرج وهو عدة قري على وادي ينصب الى وادي وج الى الشرق من تميم
سكانه الاشراف ذوو ناصر الذين منهم حمود وشاكر

وكانت ثقيف ممتدة الى ركة لكن هوازن أرجستهم الى جبال الحجاز
ثم ان ثقيفا تنقسم الى عدة أفاذ اكبرها سفيان وثمالة ، ومنها قريش
بني سالم والفشامرة والقصران. وبنو سفيان سكان الشفاء ينقسمون الى بني عمر
آل حجة والى آل ساعد وآل عيشة وآل حسن

وثمالة تنقسم الى المشايخ الحدادين (يقال انهم من سلالة الشيخ الحداد)
والضباعين والسودة وآل زيد وآل مقبل وآل ساعد وآل عمر
وجميع قبائل الطائف وبلادها ماعدا الاشراف وما عدا العدوان تفرع مع
ثقيف ضد هوازن، وتسمى ثقيف يوم الفزعة خندقا، وتسمى هوازن أو عتية تشبابة
ولا تنحصر عتية في هوازن بل قد دخلها بطريق الحلف قبائل أخرى
وهذيل يسكنون في جبل برد وما يليه وتسمى هذيل الطلحات

استطراذ

(في قبائل الحجاز بين الحرمين وشمالى المدينة المنورة)

لما كنا قد ذكرنا قبائل هوازن وثقيف وهذيل وغيرها من سكان جبال
الطائف فلا بأس بذكر سائر قبائل الحجاز ممن ينزلون بين الحرمين ،ومن المدينة
إلى الشمال ، وقد كنا يوم زرنا المدينة النبوية قبل الحرب العامة بسنة أخذنا
جدول هذه القبائل من سجلات الحكومة ، واطلعنا على معلومات ذات قيمة بشأنها
فرأينا إلحاقها بهذا الكتاب تماما للفائدة

فأهم هذه القبائل حرب . وهم بنو حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة
من العرب العدنانية وحرب خلف أربعة أولاد : سالم ومسروح وعبدالله وعمرو.
فمسروح أكثرهم ولداً ، وقد دخلت بطون بني عبدالله وبني عمرو في مسروح.
أما صبيح الاعشى فيقول نقلا عن الحداني : أنهم ثلاثة بطون : بنو مسروح
وبنو سالم وبنو عبيدالله، وقال ان من حرب زيد الحجاز وذكر ان منهم بني عمرو.
ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنورة وعددهم يزيد على مئتين الف نسمة
وما بنو سالم من حرب فنزلهم من مكة إلى المدينة إلى وادي الصغرا إلى

الجديدة إلى ينبع البحر وهم يزيدون على خمسين الفا . فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة الف نسمة ، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الاحدي . وكان ناصر بن نصار الظاهر ومنصور الظاهري من مشايخ المراوحة من بني سالم من حرب وبنو مزينة الذين باطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبي سلمى الزبي صاحب المعلقة داخلون الآن في بني سالم من حرب . والحال ان مزينة في الاصل هم بنو عثمان وأوس أبي عمرو بن اد بن طابخة واسمه عمرو بن الياس بن مضر على ما في صصح الاعشى . فقد دخلوا اليوم في بني سالم من حرب وكان شيخهم حجاب بن بخت معدوداً من مشايخ المراوحة من بني سالم وكان من مشايخ حرب يوم زرت المدينة المنورة أو قبل ذلك بقليل بخت ابن بتيان شيخ اللمبة من عوف من مسروح ، والشيوخ ابراهيم بن فهد شيخ قرية قبا والشيوخ احمد بن معين من مسروح . وكان محارب بن موقد شيخ الصواعد من عوف من مسروح ، ومرزوق بن عمر شيخ بئر الماشي من عوف من مسروح أيضاً . وكان أحمد بن مزيع بن ربيق شيخ بني عمرو من مسروح بوادي الفرع ، ومرع بن محمد شيخ قبيلة جهم من بني عمرو بوادي الفرع أيضاً ، وكان عبدالله أبو ربة شيخ قبيلة السهلبه من عوف ثم قبيلة صحح بيدر وشيخها ابن حصاني الصبحي . وقبيلة صحح تنقسم الى اللبده ، ونبي عبدالله وذوي مرزوق . ويوجد فرقة من الاشراف بيدر كان شيخهم الشريف محمد بن سالم بن عبدالله بن نامي ثم قبيلة زيد بين ينسج وجدة . ومن زيد هذه في الجزيرة الفراتية وفي الديار الشامية وفي بلدان أخرى مما نزله العرب . وزيد بضم الزاي وفتح الهمزة الموحدة هو ابن معن بن عمرو بن عزيز بن سلامان بن عمرو بن الغوث بن طي . ومنهم بساحل الحجاز الشمالي عدد كبير يقال ان منهم نحواً من ثلاثين ألف رجل يعملون في البحر ، يجلبون الصدف ويعوضون على اللؤلؤ . وكان الشيخ حسين

ابن مبيريك شيخ رابع هوشىخ زبيد ومن مشايخهم الكبار محمد بن حسم والى المشرق منهم بنو سليم وبنو عبد الله والروقة . وبنو سليم (بضم السين) من أشهر قبائل العرب ويقول الحمداني أنهم أكبر قبائل قيس، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان من العدنانية . ومن منازلهم حرة سليم وحرة النار بين وادي القرى وتيما . وأكثر عرب برقة والجبل الاخضر من بني سليم بن منصور وهم هم الذين ابتلاهم الله بالطليان في هذا العصر ولم يزالوا يجاهدون عن دينهم ووطنهم منذ عشرين سنة . وفي عرب مصر كثير من بني سليم بن منصور ، ومشايخ الاحامدة الذين هم مشايخ حرب في الحجاز يقال أنهم من سليم وإن جددهم العباس بن مرداس السلمي .

ثم قبيلة جهينة المنتشرة من ينبع الى الوجه . وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاة من العرب القحطانية ، وهم من أكبر القبائل، قيل ان إبراهيم باشا بن محمد علي باشا أحصاهم فبلغوا في أيامه ٤٠ ألفاً ، وسمعت من يحزرهم اليوم بسبعين ألفاً وبمائة ألف . وهم فئتان : موسى ومالك . وكان أمير جهينة من قبل العرب الشريف جابر بن حمد العياشي يقيم بينبع النخل ، ومن جهة الدولة العثمانية لأواخر أيامها بالحجاز الشريف محمد بن علي بن بديوي الهجاري يقيم بينبع البحر . والروان فرقة تابعة لجهينة . وكان من شيوخ جهينة أحمد بن حماد الشطيري في ينبع النخل وصالح بن حامد الصريصري . وكان حنشان بن سالم شيخ قبيلة عروة من جهينة . وكان من مشايخهم في ينبع النخل عبد الرحمن أبو رقية ومطلق الشرق . وأشهر فرق جهينة العياشي وهم أشرف ، والصبحة ، والعلوين ، وذبيان ، والمقيبى ، والحجوري ، والحباوي ، والغايدي ، والمراوين ، والزايدي ، والعامري ، وهم من قبيلة موسى . وعروة وشرف ذوي هجار ، والموال ، ورفاعة ، والحصينات ، وبنو كليب ، والحدة ،

والاساورة، والسناي. والصيادي، والريايوي، والقضاة، وغيرهم. وهؤلاء هم بنو مالك ثم قبيلة تلي من الوجه الى ظبي ومن البحر الى مدائن صالح شرقا. وبلي (بفتح الباء) بن عمرو بن الحافي بن قضاة. وقد ذكر القلقشندي ان من بلي ومن جبينه قبائل في صعيد مصر. وقيل لي في المدينة المنورة ان عدد بلي قريب من عدد جبينه وهم عدة فرق، المعاقلة، والعريفات، والرموت، والهلبيان، ووابصة، والسحمة والقواعين، والمواهب، وذباله. وكان شيخهم سليمان باشا بن رفادمت في أثناء الحرب العامة

وإلى الشرق من بلي قبيلة الفقير وهم من عنزة، ومنازلهم من المدائن الى تيماء، وهم فرق: الشقعة، والجمعات، والمغاصيب، والحجور، والخاعلة، وعدد هم نحو ١٠ آلاف وولد علي وهم من عنزة أيضا، ومن هؤلاء قبيلة في بر الشام هي فرقان: (إحداهما) شيخها ابن سمير (والثانية) شيخها الطيار، وأما الذين من ولد علي بالحجاز فنمازلهم بين الملا وخيبر، وقد يبلغون ٢٠ ألفا وهم: السعد، والسند، والشراعية، والمطيمات، والرميلات، والخالد، والركاب، والطلوح، والدجنان، وجبارة، والطوالعة، وكان أشهر مشايخ ولد علي يوم زرت المدينة فرحان الأيدة وأولاد سليمان وهم كذلك من عنزة. ومنازلهم بأطراف خيبر من جهة الشمال والشرق وهم من ٥٠ الى ٧٠ ألفا وهم الشمالان. والسبعة، والجماعة، والبجيرة، والحشنة، والسلمات، وشيخهم العواجبي

ثم ان من قبائل الحجاز مطير وهم أربع فرق: الأولى ميمون وهم العيايين، والهويات، والسكان، والهيطات، والسبيحات، والرمائية، والمدخل، والحرتان وغراية، والجماعة، ويبلغون نحو ١٠ آلاف

ثم الصعبة ومنازلهم بقرب الحناكية الى الشرق وهم: الهالكة، والشطار، والحشوش والشتيات، والعضيلات، والمشاريف، والوطاين، والهجلة، وهم في العدد نظير ميمون

ثم ذوو عوز ومنازلهم من الصفية إلى السوارقية وهم: الحجيلات، وذوو ميزان، والسقاين، وذوو شطيظ، وذوو بدير، والطف، وذوو عزيز، وعدددهم كعدد ميمون أو الصبية

ثم الرياحين ومنازلهم بإطراق السوارقية وهم: الوسمي، والعوارض، والعنائرة، والكركرة، والمعاسي، والمطال، والمطارقة، والهبور، وعدددهم أقل من إحدى الفرق الأخرى ومجموع عدد مطير قد يناهز ٤٠ ألفاً ويقال إنهم أكثر

ثم إن من قبائل الحجاز الحويطات ومنازلهم من ظبي إلى المويلح إلى العقبة وكان أكبر شيوخهم ياسين بن عليان. وبياع الناس في عددهم فيقولون ١٠٠ ألف ويقولون ٢٠٠ ألف ولم كثير من المراسي على البحر. ويتصل محلهم ببني عطية الذين في جبال الشراة التابعة اليوم لشرقي الأردن

ومن خبير إلى الحائط، والحويط إلى الحرة قبيلة هتميم وإيست من القبائل المعروفة بالاصالة في العرب ولكنها كثيرة العدد تصادم شمر، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة. ويقال إنها نحو ٢٠٠ ألف نسمة. وشرقي هتميم حرب الشرقية هي حرب نجد ومن شرقهم شمر وهي من أعظم قبائل العرب نسبها في طيء فيما أتذكر

وأما منطقة الجوف فهي تامة لنجد والجميع الآن في مملكة ابن سعود وعرب الجوف هم من عنزة، والشرايات، والحوازم، ويبلغ عدد أهل الجوف ١٠ آلاف ولكنها تسم أضعاف هذا العدد لكثرة مياهها ونخيلها وخصب أرضها وهي تبعد عن دمشق مسيرة ستة أيام وعن بغداد سبعة أيام وعن المدينة المنورة ثمانية أيام وعن حائل سبعة أيام. فلا يوجد بلدة أوسط منها في بلاد العرب. وعلى مسافة ١١ ساعة من الجوف مدينة سكاكة وقد تكون أكثر سكانا من الجوف وأقرب نقطة إلى الجوف من العمور الغربي هي الكرك لان من الجوف إلى محطة

القطرانة مسيرة يومين ، ومن محطة القطرانة على سكة حديد الحجاز إلى الكوك
مسيرة ست ساعات لا فير

وفي منطقة الجوف الطوير وفيها ٤٠٠ مقاتل وقارة وفيها ٧٠٠ مقاتل ويتبع
هذه المنطقة قرى الملح وهي الكهف، واثرة، والقرقر، والشواش، والعقيلة ،
وأما الاجراس، وفيها كلها نحو ٤٠٠ مقاتل . وهي واقعة في وادي السرحان ومركز
عامل ابن سمود فيها قرية كهف . وعلى مسافة ساعتين منها النبك الذي نزل
به بقية المجاهدين السوريين لما أجلاهم الانكاز بالاتفاق مع الفرنسيين عن
الازرق منذ ثلاث سنوات . وأقام أخي عادل بالنبك نحو سنتين، ولا يزال فيه
محمد باشا عز الدين الحلبي ومعه بضع مئات منهم، كما ان سلطان باشا الاطرش ومعه
جضع مئات نازلون بالحديثة وعين كرم على مقربة من النبك

وعلى مسافة ثلاثة أيام من مدينة الجوف إلى العقيلة بلدة تباء وهي عن سكة
الحجاز الحديدية على مسافة يوم الى الشرق . ويقول ياقوت ان الابلق الفرد
حصن السموأل بن عادياء مشرف عليها

وشرقي تباء قرى متعددة هي: موقد ، وقبة ، وقنا ، وأم القليان، وطوية،
والجندامية ، والوزيد . وبين المدينة وحائل الحائط والحويط

خاتمة الارتسامات

(في صفة موقع الطائف الجغرافي والمسكري ومكانه من البلاد العربية كلها وما كانت شرعت فيه الدولة السمانية من جملة مركز قوتها في بلاد العرب وما يجب على الامة العربية من ذلك)

ألا إن مدينة الطائف مركز عظيم في بلاد العرب لأنها لمكة من قبيل لازم ومزوم ، ولأن اقليمها من أبداع الاقليم ، وثمراتها من أشهى الثمرات ، ولكونها متوسطة في الجزيرة الحجاز محيطة بها ، واليمن جنوبيها ، ونجد والعراق شرقيها ، والمدينة المنورة والشام شماليها . فأختم كتابي ببيان ما يجب على الامة العربية في موقعها لحظت الدولة السمانية هذه الامة لموقع الطائف فكان السلطان عبد الحميد الثاني السمانى عزم على مد الخط الحديدي من الشام إلى المدينة ثم إلى مكة فالطائف فسير فصنعاء اليمن ، ولم يقر ذلك بمجرد رأيه ، بل جمع الوزراء وكبار رجال العسكرية ، وبعد مذاكرات طويلة استمرت عدة ساعات أصدر ذلك المجلس قراره بلزوم انشاء هذا الخط وقاية لجزيرة العرب من عوادي الاعداء ، وتقريباً لها من مركز السلطنة (١)

وقد تمكن السلطان من إيصال الخط من دمشق إلى المدينة المنورة ، وسارت عليه القطر التي لم يكن في كل أورة إذ ذاك قطر أجمل منها ، وكان المسافر يقطع ما بين دمشق والمدينة أي زهاء ألف وأربعمائة وخمسين كيلومتراً في ليلتين ، ولولا مصادفة خلع السلطان أيام العمل بهذا الخط لكان أكمله إلى مكة وإلى الطائف وسار به حتى صنعاء

(١) تزيد على هذا اعتقاد الترك ان سلطانهم على جزيرة العرب لا يتم ولا يدوم الا بذلك فكان أهم غرض لهم منه ان لا يتمكن العرب من مجديد دولة لهم في مقل وطنهم وعقد دارهم

من واجبات الامة العربية السمي في اكمال مشروع السلطان عبد الحميد هذا فقد كان السلطان ووزراؤه يرونه ضروريا للوحدة العثمانية وكان ذلك حقا ، ولكن العثمانية قد ذهبت وذهبت وحدثها ، وانطوى بساطها ، وأما العربية فظن تذهب ، وحدثها لن تزال نشيدة آمال العرب ، وان من أركان هذه الوحدة وأعمدها الكبرى هذا الخط الحديدي ، الذي لا يقف الا تكبير والفرنسيس في وجه استئناف اتصاله بالشام وفلسطين إلا خوفا من تقطع هذه الوحدة

ثم ان الدولة العثمانية كانت قد شيدت في الطائف ثكنة عسكرية من أعظم ثكن الجنود في العالم . طولها ثلاثمائة متر ، وعرضها ما يقرب من ذلك ، وأمامها سهل منبسط مستو كخذ الحصان لا يجتازه الماشي من باب القشلة إلى آخره في أقل من عشرين دقيقة . وقد جمعت في جانب من هذه الثكنة المظيمة مستشفى متقنا ، وفي وسط ميدان الثكنة القسيح قصر آلا اجتماع أمراء الجيش ، وجميع هذه الابنية لا تزال ماثلة لا ينبغي لها الا بعض ترميمات غير ذات بال

ولقد علمت من حديث دار بيني وبين سمو الامير المهذب الكامل فيصل ابن عبدالمزبز ثاني اجمال جلالة الملك ونائب جلالتة في الحجاز ان ترميم المستشفى واعادته كما كان من الامور المقررة ، وكذلك ترميم القصر الذي في وسط الميدان بحيث يجلس فيه الملك عند ما يجيء الى الطائف ، وانهم ينوون نقل جميع دوائر الحكومة في الصيف الى الثكنة ، وكذلك دوائر امانة الطائف . وهذا لمروري من الامور التي تنبئ بالبادرة اليها وقاية لثكنة من التداعي ، لأن كل بناء مهمجور ، محكوم عليه بالذئور ، ولقد كلف بناء هذه الثكنة الدولة العثمانية مبالغ طائلة ، فكما تأخرت اقامة الحكومة بالثكنة ازدادت على الحكومة الحجازية النجدية كلفة تجديدها

وأما الجند النظامي السعودي الذي في الحجاز فانه يقيم في مكة بالثكنة التي في

جروول في أول البلد الحرام للقادم من جدة، ويقوم في جدة بشكنة جدة المناوحة للبحر، ويقوم في الطائف بقلمه الطائف وهي قلعة بنيت منذ نيف ومائة سنة، قبل لي بناها الوهابيون قدمتهم الأولى في القرن الماضي . ولقد زرتها وسررت بانتظام الجند للذي فيها بقيادة ضابط تركي باق من أيام الملك حسين اسمه تحسين بك من خيرة الضباط ، ولقد ازدادت الثقة الآز بحسن قيادة الجيش الحجازي بعد أن عهد بها الملك عبد العزيز (أيدته الله) إلى المجاهد المناضل ، والعالم الفاضل ، فوزي بك . القاونجي من نخبة ضباط العرب، وفقه الله لتحقيق آمال الملك وآمال العرب في القوة النظامية السعودية

وإنا زرت القلعة جلسنا في الغرفة التي كان يسكن بها مدحت باشا أبو الدستور العثماني والتي قتل فيها ، وأمامها غرفة كان يسكن فيها محمود باشا الإمداد ، وهناك غرفة ثالثة كان يسكن فيها خير الله أفندي شيخ الاسلام ، هؤلاء الثلاثة الذين نقاهم السلطان عبد الحميد إلى الطائف من أجل خلع عمه السلطان عبد العزيز

صفة قتل مدحت باشا ومحمود باشا الإمداد

ولقد استقصيت من تحسين بك المذكور ومن الشيخ محمد بكر كمال رئيس بلدية الطائف ومن غيره من المعمرين فيها عما يعلمونه من كيفية قتل مدحت ومحمود الإمداد ، فقيل لي ما خلاصته : جعلوا إقامتهم من البداية في القلعة لكن مع الترفه والاعتناء ، وكان لهم طاه خاص يصلح لهم طعامهم ، لكن بعد أن مضت على ذلك مدة شرعوا بالتضييق عليهم ، وأبوا أن يطعموهم إلا من غذاء المسكر . وبعد عدة سنوات من حبسهم بالقلعة وفي أيام الوالي المشير عثمان نوري باشا قرروا قتل مدحت باشا ومحمود باشا الإمداد ، وكان مدحت في الغرفة التي جلسنا فيها وهي محل استقبال الزائرين اليوم ، فدخل عليه ملازم تركي اسمه اسماعيل : فقيل لي يوم كنت بالطائف (صيف سنة ١٢٤٧) انه لا يزال حياً يرزق وانه مقيم

مجيئة ، ولم يكن قتل هذا الضابط لمدحت ختفا كما كنا نسمع ، بل قبض على أنثيه واستلها بقوة عصبه ، فبرد مدحت في مكانه ، ثم نادوا الى الامداد فحاول أن يجاحش عن نخطيط رقبته ، ولكنهم صرعوه وأزهقوا روحه ، ولم يستلها للموت بدون صراخ ، بل استغاثا بالجيران الذين بيوتهم مجاورة للقلعة ، فصاح النساء بالذين في القلعة ووبختهم ودعون عليهم ، واشتدت الولوجة ، إلا أن ذلك لم يمنع قيام القتل بانفاذ الأمر ،

وأما خير الله افندي شيخ الاسلام فلم يمسه وبقى في القلعة الى أن مات ، ونزوح وهو بالقلعة وولد أولاداً وعاش طويلاً ، ودفن مدحت ومحمود الداماد بتربة الخبر ابن عباس ، ولكن رئيس البلدية قال لي انهم لا يعلمون في أية زاوية من الجبانة كانت مراقدهما ، وقد جاء بعض الأتراك بعد اعلان الدستور العثماني وبخشا عنهما وبنوا لهما قبرين حيث رجح الناس انه وقع دفنهما
وأما قطع رأس مدحت وارساله الى السلطان عبد الحميد في الاستانة كما هو شائع فلا يعلم هؤلاء الرواة شيئاً عنه
ذكرنا هذه الواقعة لانها تاريخية مهمة

وكان الفراغ من تبييض هذا الكتاب بمدينة لوزان من بلاد سويسرة
لأربع خلون من ذي الحجة سنة ١٣٤٩ موافق ٢٢ ابريل سنة ١٩٣١
والحمد لله أولاً وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

﴿ وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٠ ولله الحمد ﴾

استدراكان

(بعد ان تم طبع الرحلة الا هذه الكرامة (الملزمة) الاخيرة جاءنا من مؤلفها الامير هذان الاستدراكان لاجل إلحاقهما ببعث المعادن فنشرناهما هنا لما فيهما من المناسبة للخاتمة في الحوض والحث على المبادرة الى عمران الجزيرة)

الاستدراك الاول

أرجو منكم اذا وصلتكم الى بحث المعادن أن تضيفوا الى الماتن أو تضيفوا
بالحاشية الجملة الآتية :

« ومن المعادن المعروفة في الحجاز معادن السوارقية وهي على ثلاث مراحل من المدينة إلى الشرق منها وهي ذمب وفضة وورصاص وهناك طواحينها وافرانها . ومن الغريب اني لم أجدها في معجم ياقوت إلا اذا كان قد ذكرها تحت اسم آخر . وبحثت في القاموس وانتاج عن « السوارقية » فرأيت أنه يذكر بلدة بهذا الاسم بين الحرمين الشرقيين ولم يذكر ان فيها معادن ويقول انها « بضم أولها »

وإذا وصلتكم إلى ذكر خيبر أن تضيفوا إلى كلامي عليها الجملة الآتية :
« ولما كنت في المدينة المنورة سنة ١٣٣٢ قيل لي ان خيبر هي عن المدينة على مسافة ثلاثة أيام الى الشمال بسير الجمل وانها كانت آتلة الى الخراب فيعد ان كان ابن رشيد يأخذ منها في السنة ١٢٥ ألف ريال أصبحت الدولة لا تأخذ منها إلا ألف ريال »

وإذا وصلتكم الى ذكر الفرع أن تضيفوا الجملة الآتية : « وقيل لي في المدينة يوم زرتها سنة ١٣٣٣ ان بالفرع ستين عين ماء

الاستدراك الثاني

بينما نحن مباشرون طمع هذا الكتاب إذ حدث حادثان مهمان يتعلقان بالمعادن وأمر التنقيب عنها في الجزيرة العربية وفقاً للاماني التي تجول في صدور مفكري العرب من استثمار هذه الخيرات العظيمة والاستماتة بها على اصلاح أحوال العرب. وهذان الحادثان أولهما ان الامام عبدالعزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها قد انتدب المستر توتشل المهندس الاميركي التخصص بالمياه والمعادن للتنقيب عن المياه التي يقرب انبساطها والمعادن التي يتحقق وجودها من ممالك الحجاز ونجد، وان المهندس المذكور قد بدأ بالعمل وسار إلى سواحل الحجاز الشمالية ورافقه في رحلته الاخ السري الفاضل خالد بك القرقي الطرابلسي العربي من سلالة بني هود الجالين من الاندلس وقد جاء في العدد ٣٣٥ من جريدة أم القرى الرسمية تاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ ما يفيد ان المهندس المذكور تجول في سواحل الحجاز الشمالية ودأب هناك في الفحص والبحث مدة ثلاثة أسابيع قطع خلالها مسافة ٣٥٠٠ كيلو متر. وانه رأى ان المياه في تلك المنطقة لا تقل غزارة عن مياه المنطقة الواقعة بين وادي فاطمة وجدة، وانها قريبة جداً من سطح الارض لا يتجاوز أقصى عمق لها عشرة أمتار كما ان اماحة المياه في هذه المنطقة لا يحتاج فيها إلى حفريات ارتوازية. قالت الجريدة وانه عثر على منجم بتروك غزير بين اللبانة والمولح في مساحة لا يقل طولها عن ٣٥٠ كيلو متراً تقريباً. وكنا نسمع دائماً ان في ذلك الساحل زيت بتروك يسيل إلى البحر، فعسى أن لا يبطيء انك عبدالعزيز في استخراج هذا المنبع الغزير القريب من البحر الذي لا ينزم له مد أن يب على مسافات طويلة جداً كما هو الشأن في منابع باكو ومنتابع الموصل مثلاً

ثم قالت الجريدة ان هذا المهندس قد عثر أيضاً على منجم ذهب غزير في ضواحي الوجه مؤلف من عروق ذهبية عديدة ، وعلى منجم رصاص بالقرب من الوجه أيضاً .

فسي أن يطوف هذا المهندس في جميع مملكة ابن سعود وأن يردف بمتخصصين آخرين ويبحثوا في الاماكن كلها مما سبق العهد بالمعادن والزيوت والاملاح فيه وما لم يعرف عنه شيء إلى اليوم .

وأما الحادث الثاني فهو ان الاخ الفاضل السيد رتدي الصالح ملحق التابلسي محرر جريدة أم القرى أخرج رسالة في المعادن بالحجاز ونجد، وملحقتهما ذكر فيها ما فيهما من مناجم مختلفة واملاح ، مما وصفه الهمداني وياقوت والقدسي والزحشري وبعض رجال الانراك الذين سبقت لهم ولايات في جزيرة العرب وغيرهم . وقد أهدي الينا نسخة من هذه الرسالة التي يقول انه انزاعها من كتاب هو شارع في وضعه تحت اسم « معجم البلدان العربية » فصفحناها ووجدناها رسالة قيّمة ثمينة كأنها هي بذاتها معدن من معادن العلم والتحقيق ، ورأينا فيها ذكر معادن كثيرة أوردنا الخبر عنها في كتابنا هذا ، وربما جاء فيها ما فاتنا ذكره ، كما ان في هذا الكتاب عن معادن اليمن ما ليس في تلك الرسالة واستيفاء البحث عن معادن الجزيرة العربية يستجلب على كل الاحوال أنظار العرب اليها ، ويستثير هم الناهضين منهم إلى استخراجها ، وافاضة خيراتها على هذه الامة . فنسأله تعالى تعجيل هذه الامنية . آمين



جدول خطأ الطبع

صواب	خطأ	سطر	صفحة
يوماً	يوم	١٧	١٤
السلوج	العلوج	٣	٢٠
يطوفون	يتطوفون	٦	٢١
الاعمة	لاعة	١	٢٩
قذف	قدف	١١	٣٢
الى الظل	الى الطل	٢	٤٦
الا وقد سعدت	وقد سعدت	١٢	٥٢
ذكر	ذكري	١٦	٥٤
كانا	كان	٤	١٠٠
وتعبدها	وتعبرها	١٩	١٠٣
بها	بها	٢	١٠٨
فيها	انها	٢٤	١١٥
وبنت الحبال بسا	وبنت الحبال بنا	٢٦	»
الكهرباء	الكهرباة	١٠	١١٧
الحجاز	الحجار	١٦	١٣٦
قبور	القبور	٢١	١٤٤
مساجد	مساحة (برأس الصفحة)	١	١٤٥
بائعين	بالمين	١٥	»
طرفها	طرفيها	٢٢	١٤٩
الاوزاعي	الاوزعي	١٨	١٥٠
مارأيت احدا	رأيت ما احدا	٢	١٥٢
اثوني	اتموني	١٥	١٥٨
لما كان له بالمرج	لما كان له وما عليه بالمرج	١٨	١٦٥

صواب	خطأ	سطر	صفحة
بن	بن	١٣	١٦٦
اسماعيل	اسماعيل	٢	١٦٨
قيس عيلان	قيس بن عيلان	٥	د
الداال	لداال	٣	١٧٣
فيه	فيها	٤	د
الاودية	الوديان	٢٢	د
الرفيق	الرفيق	٢٠	١٧٤
اني	التي	٣	١٧٦
السفاينة	السفاينة	٨	١٧٩
أخذته	خذته	١١	١٨٩
زياد	يزيد	١١	٢٠١
الدعّار	الادعّار	٦	٢٠٤
المال	الماء	٣	٢٢١
فتشكلاهما	فتشكلاهما	٥	٢٢٣
المحبّجة	المحبّجة	١٠	٢٢٩
العم	العم	٤	٢٣٦
هالقي	هالقي	١	٢٣٢
ديناراً	دينار	٢٢	٢٣٥
وأختها بتوعر	وأختها توعر	١٣	٢٤١
بيجان	بيجان	٢٧	د
من شاكر بن	من ساكر بن	١٦	٢٤٥
ثقل	ثقل	٣	٢٤٨
المرض	المرض	٦	٢٦١
عوجا	جوعا	٣	٢٧٠

فهرس الار تسامات اللطاف

	صفحة		صفحة
أهمية المياه في الحجاز	٣٣	تصدير الكتاب لناشره	
لذة الماء والخضرة في البلاد الحارة	٣٦		
أثر السيدة زبيدة والوصف التفصيلي لعمل هذا الأثر	٣٨	مقدمة او فاصحة الرحلة	
مخالفة الشيعة لاهل السنة في موقف عرفات	٤١	من السويس الى جدة	٦
روعة موقف عرفات، ومواكب الحج فيها أيام دون الاسلام، ووصف ابن جبير لها	٤٢	وصف جدة وخرابة ألوان بحرها وتعليه	٧
علة أمير الحج العراقي في عرفات ومواكب في القرن السادس	٤٣	مباني جدة وعمراتها	٩
الوزير الجواد الاصفهاني وآثاره العمراية في الحجاز	٤٦	سوري القومي	
العبرة بتدمير السقف وتخريب الخلق في الحجاز	٥٠	في جدة والحجاز	١٠
الاسلام		لقاء الملك ابن السعود وكلمة في جلالاته	١٢
دين العمران، بريء من نعمة انحطاط مسلم في هذا الزمان	٥٢	الطريق من جدة الى مكة	٥
(شغف بعض ملوك الاسلام بالعمران)		الكلام على مكة المكرمة	١٤
آثار عبدالرحمن الناصر في الاندلس ووصف الزهراء	٥٥	صفحتها الحسنية والمعنوية، وكعبتها البهية وهوي القلوب اليها من جميع البرية، ورزقها من جميع الاغذية والثمار	
عمران قرطبة العجيب في عهد الناصر (مثال آخر من النظام عند المسلمين)	٥٨	استجابة لدعاء ابراهيم عليه السلام	
خبر عبدالؤمن صاحب دولة الموحدين	٦١	مياه مكة في الجاهلية والاسلام	١٦
(مثال آخر من حب العمران)		عين زبيدة وعين الاضفران	١٧
سورة المنه والسمه وه، الخ	٦٥	الحرف في الحجاز واقتضاؤه لكثرة المياه	١٩
		حرفة في القديم وخبر عبد الله بن عامر الصحابي العمراني	٢٥
		المناهل في مكة	٢٩
		موه تصرف المسلمين في أوقاف سليبي	٣٢

٦٦	سيرة مولاي اسماعيل سلطان المغرب	١١٧	الانسان هو غير العمر الحقيقي
٦٩	تسميه العجيب ونحريب خلفه	١٢٢	قريه نعيم وكروها ومباها
٧١	كتب الافرنج في فن الممار الاسلامي	١٢٣	الامام عبد المزيز بن السمود
٧٩	﴿خبر المطوفين بمكة المكرمة﴾	١٢٤	أمير الطائف الملقب بالصحابي
٨٩	والمزورين بالمدينة المنورة (وهو من أم فصول هذه الرحلة)	١٢٥	﴿الكلام على الطائف﴾ وفضل صيفها
٨٩	اقتسام المطوفين والمزورين لحجاج الاقطار . وجوب اعتناء حكومات الدنيا كلها بامر الحج والحجاج	١٢٧	﴿شرفاء مكة وامراؤها﴾ واستنثارهم باحسن اراضي الحجاز
٨٩	اعتناء الحكومات الاسلامية على أوقاف الحرمين	١٣١	وأمازكا ولا سبها الطائف عين سلامة وعين المناة في الطائف
٩٣	طمس الدول المستعمرة لاوقاف المسلمين	١٣٣	الكتب والرسائل المؤلفة في الطائف حديث «الطائف قطعة من الشام» تشبيهه وهو غير صحيح
٩٨	مرض في مكة وتأثيره في أثناء أداء المناسك	١٣٤	رواية الحديث وكتابه حديث « من كذب علي متعمدا» الخ متواتر
١٠٠	الكلام على الزاهر من ضواحي مكة	١٣٥	الآثار في فضل الطائف
١٠٠	السمود الى عرفة في شدة المرض	١٣٦	موقع الطائف وهوؤها وماؤها
١٠٠	الالتجاء إلى الطائف	١٣٧	حدود الحجاز ووجه تسميته
١٠٢	الكلام على ذات هرق	١٣٨	الشام : هوؤها وواؤها
١٠٤	الكلام على سوق عكاظ	١٤٠	عمران الطائف وتقلصه بعد الحرب
١٠٧	ذكر أسواق الرب في الجاهلية (استطراد)	١٤١	فتكة الملك ابن السمود بسلطان بن بجاد ويفصل الدويش من غلاة قواده النجديين
١١٠	في قطع بعض الافرنج في تمثيل الحوادث، والتشكيك في الحقائق .	١٤٣	مسجد ابن عباس بالطائف وقبره وبعض رجبته
١١٢	الكلام على صخور الطائف والحجاز	١٤٤	هدم الوهاية لقاب القور
١١٣	كيفية تشكل الصخور		
١١٥	العمر الطبيعي المقدر للحياة على الارض . فالسمر الطبيعي الذي يقدر		

فهرس الارتسامات الطائف

ح

١٤٥	حكم الصلاة الى القبور وفي	١٨٣	عرض الطائف الجغرافي وسبب تأسيسه
١٤٧	مسند ابن عباس وغلط بعض العلماء	١٨٦	خبر فتح النبي ﷺ الطائف
١٤٨	في عدد أحاديثه	١٩٠	دعوة النبي ﷺ أهل الطائف الى الاسلام ودعاؤه بالبلغ هنالك
١٤٩	الموضوعات في الساسيين ،	١٩١	خبر إيمان عداس النصراني بالنبي (ص)
١٥١	نزق العلماء للهولك بخلود ملكهم	١٩٢	اثارة تاريخية في امارة آل ارسلان على لبنان
١٥٣	فوائد تراجم المظاء	١٩٢	وجوب اتخاذ آليات الحرب الحديثة وقنون صناعتها
١٥٤	اسلام عروة ابن مسعود وقتله	١٩٥	آثار حضارة العرب في الطائف
١٥٥	كما أخبر النبي ﷺ	١٩٦	كتاب الاكليل، المادم النيل
١٥٥	وفود ثقيف على النبي ﷺ كما	١٩٨	الخطوط والرسوم الاثرية في الطائف
١٥٩	من كان في الطائف من علماء السلف ومن فيه من شهداء الصحابة	١٩٩	الشيخ عبدالقادر الشيبني وآله سدنة الكعبة أقدم وظيفة وأقدسها في الاسلام
١٦٠	أشهر الرجال المولودين في الطائف	٢٠٣	اشراف الحجاز على العمران بشمول العدل والاحسان
١٦١	الحجاج بن يوسف الثقفي وبعده رجته الفظيمة	٢٠٧	قابلية خبير للعمران
١٦٥	شعراء الطائف	٢٠٩	العلی ووادي القرى
١٦٦	العرجي الشاعر	٢١١	أودية العقيق في المدينة والجمامة وغيرها
١٦٦	أمية بن أبي الصلت	٢١٤	سلع المدينة المنورة
١٦٨	طربح بن اسماعيل الثقفي	٢١٥	بنبع ورايح ويشة
١٧٠	غيلان	٢١٨	الطريقة المثلثی
١٧٢	تخطيط الطائف		لعمران الحجاز الاقتصادي وهو من أهم فصول هذه الرحلة
١٧٨	وسبب نزول ثقيف بها		وهو من أهم فصول هذه الرحلة
١٧٨	الوصيلتان لاستئناف عمران الطائف	٢٢٢	أماكن معدن الذهب في جزيرة العرب
١٧٩	الوصيلتان لاستئناف عمران الطائف		
١٧٩	وادي لية ووادي جلدان		

(وهذه الحقائق في وصف جزيرة العرب وقابليتها لأعلى العمران لا توجد في غير هذه الرحلة قدي كل عرب النامل فيها)	٢٣٢	الدين النصيحة
٢٣٣	كلام الهمداني في معادن جزيرة العرب	
٢٣٧	تقرير علمي فني في أراضى الحجاز	٢٦٧
٢٦٩	لغة ثقيف وهذيل في هذا العهد	٢٦٩
٢٧١	قرية الامت	٢٦٩
٢٣٩	رسالة في معادن اليمن	٢٧١
٢٧١	سكان الطائف وما حولها اليوم	٢٧١
عمران جزيرة العرب		
٢٥٤	وما يجب على الحكومتين السعودية والامامية من استئنافه	٢٥٤
٢٥٥	دخض شبهة على قابلية الجزيرة للعمران	٢٥٥
٢٥٦	جبال جزيرة العرب وكونها أطيب	٢٥٦
٢٥٧	هواء من لبنان وسويسرة	٢٥٧
٢٥٨	حديث « أحد جبل يحبنا ونحبه »	٢٥٨
٢٥٩	أجأ وسلمى جبالطيء بنجد	٢٥٩
٢٦٠	هواء نجد ، ووصف الشعراء له	٢٦٠
٢٦٢	الاماكن الزهية بجوار الطائف	٢٦٢
٢٦٣	ناحية الشقمان جبال الطائف	٢٦٣
٢٦٤	قرية الفرع وكون موقعا أفضل	٢٦٤
٢٦٥	مصائب الدنيا	٢٦٥
٢٧٨	(في صفة ، وفتح الطائف الجغرافي	٢٧٨
٢٧٩	والسكري ومكانه الوسط من البلاد العربية	٢٧٩
٢٨٠	كلها ، وما كانت الدولة العثمانية شرعت فيه	٢٨٠
٢٨١	من جعله مركز قوتها ومواصلاتها في بلاد	٢٨١
٢٨٢	العرب وما يجب على الامة العربية من ذلك	٢٨٢
٢٨٣	صفة قتل مدحت باشا ومحمود باشا	٢٨٣
٢٨٤	الداماد في قلعة الطائف	٢٨٤
٢٨٥	استدراك	٢٨٥